الشعراء المخضرمون

د. عبد الحليم حفنى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لا يكاد كتاب من كتب التراث يخلو من حديث أو إشارة عن الشعراء المخضرمين ، ولكن هذه الأحاديث لا تهدف إلى إيجاد بحث أو منهج عن شعراء هذه الحقبة بحيث ينتهى البحث إلى نتيجة محددة فى غرض من الأغراض ، وإنما هى أحاديث مبتورة تنحصر معظم أهدافها فى الأخبار أو الطرائف ، وهذا الغرض بطبيعته شخصى وليس جماعيا أو طائفيا ، بمعنى أن هذه الأحاديث إنما تتناول الأفراد من هؤلاء الشعراء ، فتتحدث عن الشاعر الذى تعرض للحديث عنه فى موقف يتعلق به ، أو خبر يساق عنه ، أما عن الشعراء المخضرمين بوصفهم طائفة أو جماعة فقلما نجد حديثا للعلماء القدامى عنهم ، وإن وجد مثل هذا الحديث على ندرته فإنما يساق أيضا بوصفه خبرا ، لا بوصفه بحثا يتناول منهجا أو يهدف إلى حكم على منهج للشعراء المخضرمين ، أو على جماعة منهم يجمعهم موطن أو هدف واحد .

ثم ظهرت فى الحقبة الأخيرة بحوث قليلة حول الشعراء المخضرمين فى بعض الجوانب التى يدور معظمها حول أثر الاسلام فى شعرهم ،

ولكن الجوهر الذى تطلعت إلى أن أراه واضحا فلم أجده فيما وصل إلى علمى من بحوث هو موقف الشعراء المخضرمين أنفسهم من الاسلام بوصفه دينا.

وقد يقال كيف هذا مع أنه من المشهور أن للاسلام شعراء ، ولأعداء الإسلام أيضا شعراء ؟ والجواب أن هذا فى ظاهره ليس بمختف ، ولكن حقيقة الأمر أنهم لم يكونوا شعراء للاسلام بوصفه دينا ، وإنما كان أولئك وهؤلاء شعراء يصارع بعضهم بعضا ، كما كانوا يفعلون قبل الإسلام ، وكما كان يفعل كل شعراء العصبية والشعوبية فى أى عصر من العصور ، فشعراء الاسلام لم يدافعوا عن الدين نفسه ، وإنما دافعوا عن كيانهم وانتمائهم ، وكذلك فعل شعراء أعدائهم ، لم يطعنوا فى الإسلام نفسه ولم يهاجموه لذاته ، وإنما هاجموا خصومهم الذين يعتنقون هذا الدين ، وآية ذلك أن شعر الطرفين لم يظهر إلا حينما احتدمت المعارك ، وأخذ الصراع صورة العصبية الجماعية بين الطرفين منذ موقعة بدر ، أما قبل ذلك فلا نكاد نعلم أن الشعراء اتخذوا من الدين موضوعا لهم ، سواء بالدعوة إليه ، أو بالتنفير منه ، وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل والبحث ، كيف لايكون للشعر موقف جاد واضح من هذا الحدث الذى قلب حياة الجزيرة العربية وغيرها رأسا على عقب فى سنوات معدودة ؟ وكان هذا من دوافعى إلى هذا البحث .

وثمة أمر آخر لا يخلو من غرابة ، وهو أن هذا الجيل الذى بلغ ذروة من الخلق والسلوك لم يبلغها جيل قبله ولا بعده حتى حظى بهذه

الشهادة فى القرآن الكريم (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وروعة الإيجاز فى الوصف أنهم لم تكن صفتهم التزام المعروف والانتهاء عن المنكر فى أنفسهم وحسب ، وإنما يلتزمون أن يأمروا غيرهم بما التزموه ، وأن ينهوا غيرهم عما انتهوا عنه هم ، ولم تكن هذه صفة جماعة معينة من الجيل الذى رباه النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت صفة الجيل كله فى مجموعه ، ولكن الأمر الذى أشرنا إلى أنه لا يخلو من غرابة هو أن الشعراء فى مجموعهم كانوا يمثلون الشذوذ فى هذا الحكم أو فى هذه القاعدة ، فقد كان الشعراء — فى مجموعهم — أضعف هذا الجيل تمسكا بالإسلام وآدابه ، وسلوك الشاعر ليس بعيدا عن شعره ، بل إن الشعر كما هو معروف ليس إلا صدى لحياة الشاعر ومشاعره ، وكان هذا أيضا من دوافعى إلى هذا البحث :

وهناك جوانب طرقتها بعض آراء النقاد وبحوثهم سواء فى القديم والحديث كالآراء والبحوث التى تناولت هبوط مستوى الشعر فى الحقبة الأولى من الإسلام عما سبقها وما تلاها من الأحقاب ، ولكن هذه الآراء والبحوث لم تقدم من التعليل وإبداء الأسباب ما يقنع النفوس كل الإقناع ، ومثال ذلك ما يشبه الاتفاق بين النقاد قديمهم وحديثهم على أن حسان بن ثابت كان فحلا من فحول الشعر فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ضعف شعره ، والنفس قد تقبل هذا بصفته واقعا ، ولكنها تغص به حين تريد الاقتناع بالسبب فى هذا

بالقياس إلى حسان بالذات ، مع ما أتيح له فى الإسلام من وضع قد يغبطه عليه سائر الشعراء .

ومن أمثلة ذلك شهرة الخنساء برثاء أخيها غير الشقيق صخر ، فالنفس قد تقبل كل ما قيل من ثناء على جودة رثائها لصخر ، ولكنها لا تسيغ فى يسر أن يكون رثاؤها لأخيها الشقيق معاوية أضعف عاطفة وشعورا مهما بلغ بر صخر بها .

ومن أمثلة ذلك أيضا شهرة قريش فى هذه الحقبة بأنها من أضعف القبائل شعرا ، فقد تقبل النفس أيضا أن تكون قريش فى أى مستوى من الشعر ، ولكنها تحتاج إلى إقناع أو فهم للأسباب التى تجعلها تختلف عن غيرها من القبائل فى حين أنها قد أتيح لها من الأوضاع ما كان يرجى معه التفوق لا التخلف .

وكان مثل هذه الجوانب والنقاط من دوافعى إلى هذا البحث .

وإذا كان من لوازم الأمانة فى البحث العلمى رد كل معلومة إلى مصدرها ، وإسناد كل خبر إلى راويه ، فإن هذه الأمانة أشد لزوما فى الحديث عن عصر يحوي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كهذا الحديث ، لذلك التزمت رد كل خبر إلى مصدره ، أما ما يتصل به من تعقيب أو تفسير أو تعليل فهذا ما يطالب أى باحث بأن يكون له فيه موقف أو وجهة ، وهذا ما أرجو ألا يكون قد جانبنى فيه الصواب

على أنه ينبغى أن يكون واضحا أن البحث إنما يتناول ما يتعلق بموضوع الكتاب ، أما الجوانب الأخرى سواء أكانت متصلة بالأدب أم بالدين فلم يكن هناك ما يدعو إلى دراستها .

وفى كل حال أسأل المولى جل علمه التوفيق

د . عبد الحليم حفنى

المخضرم

استقر العرف على إطلاق وصف المخضرم على من أدرك الجاهلية والاسلام ، ولكننا حين نتتبع هذا الوصف نجد له دلالات أخرى ، وإن كانت مرتبطة بما انتهى إليه العرف ، ففى اللغة نجد استعمالات الخضرمة (بفتح الخاء) تدور حول النقص ، سواء أكان النقص ماديا أم معنويا ، فالملاحظ فى كل هذه الاستعمالات أنها تشتمل على التقليل من قدر الموصوف بها ، حيث لم يكن العرب فى الجاهلية يستعملون وصف المخضرم عادة إلا لمن كان فيه عيب أو نقص نسبى يشذ به عن غيره .

فمن استعمالات المخضرم [1] عند العرب ، الدعى ، وهو المنتسب إلى قوم ادعاء ، ومنها الناقص الحسب ، ومن لايعرف أبوه ، وكل ذلك فيه نقص واضح ، ومن استعمالاته الأسود الذى أبوه أبيض ، حيث كان ينبغى فى عرف الناس أن يولد أبيض كأبيه ،فكان سواده نقصا لذات السواد ، ونقصا لتخلف الولد عن أبيه فى اللون ، والمعنى الأخير هو المناسب لاستعمالات المخضرم ، فان هذه الاستعمالات لا تلتزم النقص

---

(١) المخضرم بفتح الراء وقد تكسر : انظر خزانة البغدادى ١–٢٦٨

لذاته ، وإنما تلتزم النقص النسبي ، بمعنى أننا قد نجد فى بعضها دلالة على وصف لايعد فى ذاته نقصا ، وإنما يعد نقصا إذا قيس بغيره ، كما سنرى .

فمن استخدام اللغة لهذه الكلمة قولهم طعام مخضرم إذا كان حقيرا تافها ، ولحم مخضرم إذا لم يكن يعرف أهو لحم حيوان ذكر أم أنثى ، فاللحم حينئذ لا عيب فيه لذاته ، ولكن الشك فى مصدره يجعله أقل درجة من اللحم المعروف الأصل ، وكذلك يقال ماء مخضرم إذا نزلت درجته عن الماء الجيد النقى . ويقال ناقة مخضرمة إذا قطع شىء من أذنها

ومن هذا نتبين أن النقص بصفة عامة هدف واضح لاستعمالات المخضرم ، وقد بلغت دقة مراعاة هذا المعنى فى الاستخدام ، أننا نجدهم يصفون من لم يختتن من الرجال بأنه مخضرم ، بينما يصفون المرأة المختتنة بأنها مخضرمة ، وكأنهم يراعون أن عدم الختان فى الرجل نقص ، والختان كمال فى رجولته ، بينما الختان نقص فى أنوثة المرأة ، وعدمه كمال فيها ، فدار وصف الخضرمة حول النقص .

ومن هنا جاء وصف المخضرم لمن أدرك الجاهليـة والإسلام ، فكأنهم راعوا أن الحياة فى الجاهلية نقص فى صاحبها ، وهذا المعنى يصرح به صاحب أساس البلاغة حيث يقول (ناقة مخضرمة جدع نصف أذنها ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والاسلام ، كأنما قطع نصفه حيث كان فى الجاهلية) [1]

(١) انظر فيما سبق الصحاح للجوهرى والقاموس المحيط للفيروز أبادى وأساس البلاغة للزمخشرى مادة(خضرم).

وهذا يدعونا إلى التساؤل : كيف يتفق جلال الجيل المعاصر للنبي صلى الله عليه وسلم مع وصفه بالنقص الذى يوحيه لفظ الخضرمة ؟

ويمكن الرد على هذا التساؤل بأن نظرة الإجلال التى ينظر بها إلى هذا الجيل ، إنما تحددت بصورتها الكاملة بعد انقضاء الجيل نفسه ، بل بالتدرج بعد انقضائه ، بمعنى أنه كلما بعد العهد بهذا الجيل زاد جلاله فى نظرة الأجيال إليه ، أما الجيل نفسه على نطاقه الواسع فى الجزيرة العربية ، فلم يكن ينظر إلى نفسه هذه النظرة ، بل كان على العكس من ذلك ، أول ما يبدو من نظرته إلى نفسه هو الألم والضيق بما أسلفه من حياته فى الجاهلية ، وكان عمق إحساسه بالدين ، وسيطرة التشبث بالإيمان تزيد من إحساسه بالسخط على ما أسلف فى الجاهلية مما يخالف هذا الدين المسيطر على نفسه ، وكثيرا ما بدا هذا من الذين يجيئون إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين ، ولم يكن يخفف من حزن هؤلاء على ما ضيعوه فى حياتهم الجاهلية إلا مثل قول النبي لهم (الإسلام يجب ما قبله)

وهذا التعميم لا ينطبق كل الانطباق على الذين عايشوا النبي صلى الله عليه وسلم واتصلوا به عن قرب ، ومعظمهم من أهل المدينة ، سواء أكانوا من المهاجرين أم من الأنصار ، فهؤلاء لا يعدون مجرد معاصرين للنبي ، وإنما كانوا تلاميذ مباشرين ، حملوا إلى الناس جوهر الدين ممثلا فى القرآن الكريم وتعاليم الإسلام ، وحملوا فوق ذلك آداب الإسلام ممثلة فى سنة النبي وحديثه الشريف ، ومع ذلك كان انبهارهم

بالإسلام وعمق الإيمان فى نفوسهم يجعلهم بين مخافتين ، مخافة أن تلاحقهم مساوىء حياتهم الجاهلية ، ومخافة أن يمسهم عذاب الله لشىء لم يرضه منهم ، ولكنهم بعد حين أخذت نفوسهم تستقر ، وبخاصة حينما استمعوا إلى مثل قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وإلى مثل قول النبى (خير القرون قرنى) بعد ذلك ، وبخاصة بعد وفاة النبى ، ثم مخالطتهم لغيرهم ، أخذوا يقدرون قدرهم الدينى ، ويدركون مدى أهميتهم .

أما من عدا هذه الجماعة من تلاميذ النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه والقريبين منه ، فقد كانوا لبعدهم عن معايشة النبى أقل عمقاً فى الدين ، ويمكن أن يقال إن أبناءهم الذين ولدوا فى الإسلام كانوا خيرا منهم فقها فى الدين ، وعمقا فيه ، ولا يخل هذا بالحديث الشريف (خيرا لقرون قرنى) فهم وأبناؤهم من قرن النبى .

وإذن ففى كل الأحوال كانت الفترة التى كان المسلمون قد قضوها من حياتهم فى الجاهلية شجى فى حلوقهم ، أو ماضيا بغيضا إلى نفوسهم فى أيسر الفروض ، ومن هذا الجانب نشأت تسمية المخضرم للذى أدرك الجاهلية والإسلام تعبيرا عن السخط على حياة الجاهلية .

وحين نتابع استعمال العلماء القدماء لوصف المخضرم ، نجدهم لايلتزمون مدلولا ثابتا له ، ولا يلتزمون أيضا تعليلا متفقا عليه لسبب تسمية الشخص بالمخضرم ، فنجد أحدهم كأبى الفرج الأصفهانى يعمم استعمال الخضرمة فى كل من عاصر عهدين ، بالإضافة إلى

مخضرمة الجاهلية والإسلام ، فهو أحيانا يقول عن بعض من يترجم لهم ، هو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، ، وأحيانا هو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية [1] . ولكن ابن رشيق يسلك فى فهم اصطلاح المخضرم منهجا يختلف عن الفهم السابق ، فهو يرى أن الخضرمة تنبىء عن الكثرة والاتساع [2] وأن المخضرم إنما سمى بذلك لأنه جمع كل المزايا ، أو لأنه يمتاز عمن عاش فى عصر واحد ، بأنه عاش فى العصرين ، كأنه استوفى الأمرين ، أو نصيبه من الأمرين ، وهو يعرف أن الأذن المقطوعة تسمى عند العرب مخضرمة ولكنه يحمل ذلك على أن المخضرم انقطع عن الجاهلية من حيث الدين إلى الإسلام ، فيكون إذن قد انتقل إلى خير كثير لا حدود له ، وينقل ابن رشيق عن الأخفش قوله ماء خضرم (بكسر الخاء والراء) إذا تناهى فى الكثرة والسّعة ويرى أن منه اشتقاق المخضرم لاستيفائه الأمرين معا .

وينقل ابن رشيق رأيا آخر عن ابن قتيبة ، وهو أن المخضرم لا يكون صحابيا ، وإنما يشترط أن يكون قد أسلم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن ابن رشيق ينكر هذا الرأى مستشهدا على خطئه كما سنرى .

---

(١) انظر كتاب الاغانى للأصفهانى

(٢) العمدة لابن رشيق -١-١١٣

الصحابى

والوصف بالصحبة ملابس للخضرمة ، من حيث إنهما قد يجتمعان فى شخص ، وقد يفترقان ، لذلك كان لابد من الإلمام بالحديث عن الصحابى .

والمراد بالصحبة صحبة شخص النبى صلى الله عليه وسلم .

ولم يتفق العلماء على تحديد معنى الصحبة ، وإنما كانت لهم فى ذلك آراء متعددة لم تخل فى مضمونها من تباين ، فبعضهم يتشدد فى وصف الصحبة ، فلا يبيح منحه إلا لمن عايش النبى صلى الله عليه وسلم عن قرب حقبة طويلة ، يحددها بأن يكون قد أقام مع النبى سنة أو سنتين ، أو غزا معه غزوة أو غزوتين ، ومن أشهر المتمسكين بهذا الرأى سعيد ابن المسيب ، وبعضهم يتسامح فى استحقاق وصف الصحبة ، فيرى أنه يوصف بالصحبة كل من لقى النبى ولوساعة من نهار ، أو رآه مجرد رؤية ، ومن أشهر المنادين بهذا الرأى البخارى وابن حنبل والواقدى ، وبعض هؤلاء يحاول أن يصوغ من رأيه تعريفا علميا ، كالحافظ بن حجر ، الذى يعرف الصحابى بأنه (من لقى النبى مؤمنا به ومات على الإسلام) ليخرج بهذا التعريف من لقى النبى غير مؤمن به ، ومن لقيه مسلما ثم ارتد عن الاسلام ، وهناك من يسلك طريقا

وسطا بين المتشددين والمتساهلين ، كابن الجوزى الذى يحتكم إلى العرف فى تحديد معنى الصحبة ، منتهيا إلى أن أدنى صور الصحبة فى العرف المجالسة والمماشاة وان قصرت ، وبهذا يخرج من وصف الصحبة حقيقة من رأى النبي ولم يجالسه ، ويرى ابن الجوزى أن الذين رصفوا بالصحبة لمجرد روئية النبى ، إنما ألحقوا بالصحابة إلحاقا[1]

عدالة الصحابة :

وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بوصفهم جماعة أو أمة ، ليس من شك فى الدين والتاريخ أنهم كانوا كما وصفهم القرآن الكريم « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولكن هذا الحكم إنما ينطبق منطقيا [2] على المجموع ، ولا يراد انطباقه على الأفراد فردا فردا ، وهذا أمر بدهى ، ويزيد بداهته وضوحا أن الوصف منصب على الأمة من حيث إنها أمة ، وليس عليهم بوصفهم أفرادا أو أشخاصا ، ومعنى ذلك أن هذا الحكم العام لا يمنع من أن يكون هناك أفراد من المسلمين المعاصرين للنبى لا يستحقون هذا الوصف ، ومع أن هذه النتيجة من الوضوح بحيث لا يتنازع فيها عقل أو منطق ، فإن العاطفة الدينية التى تملأ نفوس المسلمين فى العصور المتأخرة إجلالا لهذا الجيل الذى سعد وشرف بروئية النبي وصحبته ، تجعلهم ينفرون من هذه النتيجة ، مع أنهم لا ينكرونها فى عقولهم ، ولا ينازعون فيها بمنطقهم ، بل ومع أنهم

(١) انظر تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون التاريخ والسير لابن الجوزى ١٠١ والاصابة لابن حجر —١— ٤

(٢) من المعروف في علم المنطق أن الحكم على المجموع لاينسحب على الأفراد

يقرأون من أخبار هذا الجيل ما يؤكد هذه النتيجة ، أو ما هو على أدنى الفروض مثال لها وشاهد عليها .

ووضوح هذا المعنى شديد الأهمية لموضوع الكتاب وهو الشعراء المخضرمون ، فسنجد فى حديث كثير منهم ما يمىء إلى صفة التدين أو الخلق ، وهو ما يمس عدالتهم ، مع أنهم ممن ينطبق عليهم وصف الصحبة للنبى صلى الله عليه وسلم كما عرفه كثير من العلماء فيما ألممنا بحديثه آنفا ، وهذا مما يدعونا إلى أن نعود إلى حديث العلماء عن تحديد الصحبة ، وحينئذ يمكن لسائل أن يسأل : لماذا كان جيل النبى فى هذه المنزلة التى سمت على كل المنازل ؟ وقد يجيب مجيب بأنهم بلغوا ما بلغوا لأنهم انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام فامتلأت به نفوسهم ، واستقامت له جوارحهم ، فأصحوا لا يعملون ولا ينطقون إلا بما يمليه عليهم الإسلام ويرضاه لهم ، ولكن السائل قد يجد من حقه أن يقول : فما بال المسلمين فى العصور الأخرى لم يكونوا كما كان هذا الجيل ، مع أن الإسلام بتشريعه ماثل بينهم ؟ ومهما يلتمس المجيب من وجوه الجواب ، فلن يأخذ طريقه إلى الإقناع إلا حينما يجعل شخص النبى صلى الله عليه وسلم محور الجواب فلا شك أنه مهما تعددت أسباب تسامى جيل النبى على سائر الأجيال فإن محور هذه الأسباب تلمذتهم المباشرة للنبى ، وتأثير شخصية النبى فيهم ، ولذلك كان من الواضح أن أفضلية كل واحد من أصحابه فى فضله وخلقه تتحدد بمقدار معاشرته للنبى وصلته به .

وهذه المعاشرة ، أو هذه الصلة ، هى التى ينبغى أن يتحدد فى ضوئها وصف الصحبة ، بمعنى أنه يمكن أن يقال فى بساطة لا تكلف فيها ولا اعوجاج : أفضل المسلمين تمسكا بالإسلام وتطبيقاً له أصحاب النبى ، وهم إنما كانوا كذلك لمصاحبتهم للنبى ، وتأثرهم بخلقه وشخصيته ، وإذن فالذين لم يصاحبوه الصحبة المؤثرة فى الخلق والسلوك لا يستحقون هذا الوصف ، وإن كانوا قد رأوه ولو مرارا ، أو اتصلوا به صلة غير ذات تأثير ، فهؤلاء جميعا ، ومن فى حكمهم لا ينبغى أن يوصفوا بأنهم أصحاب . النبى ، بل ينبغى أن يقتصر فهمنا للصحبة على الصلة المباشرة التى من شأنها عادة أن تؤثر فى النفس تأثيرا يظهر أثره فى التدين والخلق والسلوك .

وليس هذا اختراعا أو تجديدا فى الرأى ، بل هو مضمون ما قرره كثير من العلماء ، كما رأينا فى مذهب سعيد بن المسيب ، وفى بعض ما قاله ابن حجر ، بل إننا نجد من العلماء من يتجاوز هذا تشددا وتحرزا فى وصف الصحبة ، كالمازرى الذى ينقل عنه ابن حجر قوله (لسنا نعنى بقولنا : الصحابة عدول كل من رأى النبى صلى الله عليه وسلم يوما أو زاره لماما أواجتمع به لغرض وانصرف عن كثب ، وإنما نعنى به الذين لازموه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) ومع أن المازرى يقتبس من القرآن ما يشير إلى معنى الصحبة ، وإلى قصر الفلاح على هذا المعنى ، ، فالآية التى اقتبس منها المازرى هى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه

مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) [١] فأولئك هم المفلحون أى دون غيرهم من الذين لم يؤمنوا به ، أو من الذين آمنوا به ولم يتحقق فيهم بقية ما ذكرته الآية ، نقول إن المازرى فى نفيه تعميم العدالة على الصحابة إلا من تحقق فيهم ما وصفه القرآن لم يكن إلا مفسرا للقرآن الكريم أو مسترشدا به ، ومع ذلك فإن ابن حجر يحكم عليه بالشذوذ والابتداع [٢] وموقف ابن حجر من المازرى هو موقف أهل السنة ، وجمهور العلماء ، والواقع أن هذا الموقف لا ينبع من بحث علمى ، بمقدار ما ينبع من عاطفة دينية تفيض إجلالا وغبطة للمعاصرين للنبى ، هذه العاطفة التى تبدى لنا أنها تؤثر حب المعاصرين للنبى على التزام الدقة فى استخلاص النتائج العلمية والمنطقية ، ولسنا نعنى بذلك من قريب أو بعيد مساسا بأمانة هؤلاء العلماء فى بحثهم العلمى الذى يعد مفخرة للعلم القديم فى تحديد مناهج البحث والنقد فيما يتعلق بالحديث النبوى وأسانيده ، وبخاصة فى مجال الجرح والتعديل لرواة الحديث ، ولكننا نعنى جانبا معينا لم يلتزموا فيه دقتهم المعهودة ، وهو تحديد الصحبة للنبى .

---

(١) الآية ١٥٧ سورة الأعراف

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ١-٧

الشاعر المخضرم

يبدو أن لفظ المخضرم فى إطلاقه على من أدرك الجاهلية والإسلام إنما بدأ استخدامه فى الشعراء ، بمعنى أنه بدأ الاصطلاح على أن الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام يسمى مخضرما ، ثم توسعوا فى إطلاقه فأطلقوه على الرجل الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، وأطلقوه أيضا على الشاعر الذى عاصر عهدين ، كما يقال للشاعر الذى عاصر دولة بنى أمية ، ودولة بنى العباس إنه مخضرم ، ومما يدل على أن لفظ المخضرم استخدم أولا فى الشعراء أن بعض علماء اللغة ظل يقصر تعريف المخضرم على أنه الشاعر الذى أدرك الجاهلية والاسلام [1]

والبغدادى فى تقسيمه للشعراء من حيث الزمن ، يجعل المخضرمين قسما مستقلا ، حيث يقول إن الشعراء اربع طبقات ، جاهلى قديم ، ومخضرم ، وإسلامى ، ومحدث [2] ومعنى ذلك أنه يراعى اختلاف الشعر باختلاف البيئات والعصور والأحداث ، وإلا لما كان هناك داع لهذا التقسيم الزمنى ، وهذا التقسيم الذى يبرزه البغدادى ، والذى راعاه كثير من العلماء والنقاد القدماء ، هو ما لجأت إليه الدراسات

---

(١) انظر حزانة الأدب للبغدادى ١-٢٦٨

(٢) المصدر السابق ١-٢٦٩

الأدبية الحديثة في تقسيم الأدب العربي إلى عصور زمنية ، ولكن الكثيرين ينسبون هذا إلى اختراع المستشرقين ، ويرونه وليد فكرهم وجهودهم ، وليس هذا الاستطراد هو ما يعنينا لذاته ، وإنما يعنينا منه أن علماء الأدب القدماء يجعلون الشعراء المخضرمين طبقة مستقلة بأدبها ، ومعنى ذلك أنهم يراعون أن لأدبهم طابعا معينا ، وخصائص تميزه عن غيره ، ولكن الحديث عن أدبهم وخصائصه ينبغي أن يسبقه تحديد معنى الخضرمة فى الشعراء ، هل هى مجرد إدراك الشاعر للجاهلية والإسلام ؟ وهل إذا كان هناك شاعر أدرك الجاهلية والاسلام ولكنه لم يقل شعرا فى الجاهلية ، وإنما كان شعره كله فى الاسلام ، يسمى شاعرا مخضرما ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما الفارق بين هذا الشاعر والشاعر الذى نشأ فى الإسلام ؟ فكلاهما كان شعره فى الإسلام وحده ، ومثل هذا يقال عن الشاعر الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، ولكنه لم يقل شعرا فى الإسلام ، وإنما كان شعره كله فى الجاهلية كلبيد بن ربيعة ، هل يسمى شاعرا مخضرما ؟ وإذا كان كذلك فما الفارق بين هذا والشاعر الجاهلى الذى لم يدرك الإسلام ؟ فكلاهما كان شعره فى الجاهلية وحدها .

ونستطيع أن نخرج من هذا التساؤل بشىء محدد ، هو أن هناك فرقا بين أن نقول هذا رجل مخضرم ، وأن نقول هذا شاعر مخضرم ، فالأول يقصد بخضرمته أنه جمع بين الدينين ، دين الجاهلية ، ودين الإسلام ، بمعنى أنه كان يدين بدين الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فأسلم . أما حين نتحدث عن شخص بوصفه شاعرا ، فنقول إنه

مخضرم ،فهذا يعنى ، أو ينبغى أن يعنى أن الخضرمة ليست منصبة على تدينه، وإنما على شاعريته ، بمعنى أننا نقصد ، أو ينبغى أن نقصد حينئذ أن شعره تناول العهدين ، عهد الجاهلية ، وعهد الإسلام ، بمعنى أنه قال شعرا فى كلا الزمنين . ونقول ينبغى أن نقصد ، لأن أحاديث القدماء لم تقف عند هذه النقطة لتوليها شيئا من توضيح أو اهتمام ، وإنما انصب حديثهم على أن الخضرمة هى معاصرة الجاهلية والإسلام معا ، دون تفريق واضح بين الشاعر وغيره فى هذه المعاصرة ولعل لهم فى ذلك بعض العذر ، ومما يعذرون به أن التفريق بين الشعر الجاهلى والاسلامى فى شعر المخضرمين بالغ الصعوبة والتعقيد ، فأغلب الشعراء المخضرمين لا يستطاع التفريق الواضح بين شعرهم الاسلامى وشعرهم الجاهلى ، والقلة التى يستطاع هذا التفريق فى شعرها ، لا يستطاع ذلك فى شعرهم كله ، وإنما فيما ارتبط بمناسبة معينة توضح أنه قيل فى الجاهلية أو الاسلام ، ذلك لأن هؤلاء الشعراء لم يدونوا شعرهم فى حياتهم ، ولم يدونه الجيل التالى لهم ، وإنما بدأ التدوين بعد ذلك ، وكان هم جامعى الشعر حينئذ حصر ما يمكن حصره من شعر كل شاعر معروف ، دون التركيز على الزمن الذى قيل فيه ، ولم يكن يعنيهم حينئذ إلا ربطه بالمناسبة إن عرفت مناسبته ولم يكن تحديد المناسبات لغرض علمى ، أو معتمدا على منهج يراد منه مثلا بيان تأثير المناسبات أو الأحداث فى الشعر ، وإنما كانت تذكر المناسبة من باب التوضيح للغرض من هذا الشعر ، أو من باب سرد بعض الطرائف ، أو نحو ذلك .

ونتيجة لهذا الغموض نلمس بوضوح أن الرواة وجامعي الشعر يعمدون غالبا إلى تحاشي التفصيل أو التحديد ، لأنهم لا يملكون ذلك وبخاصة فى نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام ، فهم يتحاشون تحاشيا تاما أن يحددوا ما قاله الشاعر فى الجاهلية ، وما قاله فى الاسلام ، لأنهم لا يملكون هذا التحديد ، ومثال ذلك ما صنعه السكرى حين جمع شعر الهذليين [1] وفيهم بعض المخضرمين كأبى خراش وأبى ذؤيب ، فإنه فى جمعه لشعرهما يتحاشى نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الاسلام ، ولو كان يملك هذا التحديد لعناه أن يثبته ، كما عنى باثبات المناسبات التى قيل فيها الشعر ، فضلا عن ناحية أخرى كان يدركها بعض النقاد ، فى الفارق بين الشعر الإسلامى والجاهلى للمخضرمين ، كالأصمعى الذى لحظ أن شعر الجاهلية أقوى من شعر الاسلام فى شعر المخضرمين ، وعلل ذلك بأن الشعر نزاع إلى الشر ، يقوى وينشط فى بيئة الشر ، ويذبل ويضمحل فى بيئة الخير ، وضرب لذلك مثالا بحسان بن ثابت ، حيث يقول الأصمعى (الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره) [2] وإذن فالأصمعى يقرر مذهبا ورأيا فى الفارق بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام عامة لدى المخضرمين ، فكان يهمه ويهم مثله أن يميز الشعر الجاهلى من الإسلامى فى حديثه عن المخضرمين وشعرهم ولو للاستشهاد

(١) انظر شرح أشعار الهذليين للسكرى .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبةج ١-٣٠٥

على رأيه ، ولكننا لا نجد ذلك التمييز في الأصمعيات ، ولا في غيرها من الكتب التي عنيت بجمع شعر المخضرمين ، ولم يكن ذلك الخلط في أغلب الظن عفوا ، وإنما دعت إليه دواع كثيرة أحاطت بشعر هذه الحقبة التي سبقت التاريخ العربي المكتوب وهو الذي بدأ بجهود التدوين في أواخر العصر الأموى ، ومن أهم هذه الدواعي إلى الخلط بالقياس إلى شعر المخضرمين ، أنه لم يكن في مدتهم تاريخ أدبي مكتوب ، ولم تحدد الروايات الشفوية على وجه دقيق ، أي شعرهم قيل في الجاهلية ، وأيه قيل في الإسلام ،

ونخرج من هذا كله بأن تعبير الشاعر المخضرم ، كان ينبغي ألا يطلق إلا على الشاعر الذي له شعر في الجاهلية ، وشعر في الإسلام ، حتى تتحقق الخضرمة في شعره ، فإن الخضرمة في الدين غير الخضرمة في الشعر ، ومثال ذلك أن لبيد بن ربيعة العامري لا شك في أنه مخضرم في الدين ، بمعنى أنه عاش في الجاهلية جاهليا وعاش في الإسلام مسلما ، وهو من أكبر شعراء العرب ، ومن أصحاب المعلقات ، ولكن شعره كله كان في الجاهلية ، ولم يقل شعرا في الإسلام ، فشعره جاهلي فقط ، ولا يصدق عليه أنه مخضرم ، مع أن لبيدا نفسه مخضرم . وكذلك الشعراء الشبان في الإسلام الذين كانوا أسن قليلا من النعمان بن بشير الشاعر الأنصاري ، الذي كان أول مولود للأنصار بعد الهجرة (٢) ، هؤلاء يصدق عليهم أنهم مخضرمون

---

(٢) تلقيح فهوم الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ص ١٥٥

لأنهم أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولكن شعرهم كله كان فى الاسلام فشعرهم كله إسلامى ، ولا يصدق عليه أنه مخضرم ، لأنهم لم يقولوا شعرا فى الجاهلية .

ولكن العلماء القدماء رغم قرب زمنهم من المخضرمين لم يكن من المستطاع لهم تحديد الشعر الذى قيل فى الجاهلية ، والشعر الذى قيل فى الإسلام من شعر المخضرمين إلا ما كان منه مرتبطا بمناسبة ، كشعر شعراء الرسول ، حسان وكعب وابن رواحة ، الذى قالوه دفاعا عن الإسلام والمسلمين ، فإنه معلوم أنه قيل فى الإسلام ، وكقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) التى ألقاها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكقصيدة أبى ذؤيب الهذلى (أمن المنون وريبها تتوجع ؟) التى قالها بعد فقد أبنائه الذين ماتوا فى فتح المسلمين لمصر ، أماما عدا هذا الشعر المرتبط بمناسبة جاهلية أو إسلامية ، فلم يكن مستطاعا لهم تحديد نسبته إلى الجاهلية أو الإسلام وفى أغلب الظن أنهم لذلك لم يركزوا حديثهم على خضرمة الشعر نفسه ، واكتفوا بالحديث عن الخضرمة الدينية . وقد يقال : إن الشعر لا يمكن أن تتصور فيه الخضرمة ، فهو إما قيل فى الجاهلية وإما قيل فى الإسلام ، فكيف يتصور شعر معين عاصر الجاهلية والاسلام ؟ والجواب أن هذا غير منازع فيه ،بل ليس هذا ما نعنيه ، وإنما نعنى أنه حينما يكون للشاعر شعر قاله فى الجاهلية ،وشعر قاله فى الإسلام ، يمكن الموازنة بين الشعرين ، على وجه هو أقرب ما يكون إلى الدقة فى الموازنة ، من حيث إن قائلهما شخص واحد ، بخلاف ما لو وازنا بين شعر قاله

شاعر فى الاسلام ، وشعر قاله شاعر آخر فى الجاهلية ، فقد نجانب العدالة والدقة فى الموازنة ، بأن يكون أحد الشاعرين أقوى شاعرية من الاخر ، فإذا كان هذا الشاعر القوى إسلاميا ، فحكمنا بأن الشعر الاسلامى أقوى ، نكون قد ظلمنا الجاهلية ، حيث اخترنا لها شاعرا ضعيفا فى شاعريته ، ووضعناه فى مجال الموازنة أمام شاعر أقوى منه ؛ ولكن العلماء القدماء حين لم يتح لهم الوجه الدقيق الذى يستطيعون تعميمه على كل الشعراء المخضرمين ، اضطروا إلى التجاوز وإلى غض النظر عن كون الشاعر قال شعرا فى العصرين ، أو فى عصر واحد سواء فى الجاهلية وحدها ، أو فى الاسلام وحده ، وحينئذ سيختلف منهج الموازنة ، فبعد أن كان يمكن أن تكون فى شعر الشاعر نفسه ، كما وازن الأصمعى بين شعر حسان الجاهلى وشعره الاسلامى ، تصبح فى جملة الشعر الإسلامى للمخضرمين ، موازنا بشعرهم الجاهلى فى جملته .

ومهما يكن من شىء فإن هذه البحوث المتعلقة بالخضرمة ، وبالصحبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، كانت فى معظمها بعيدة بعدا شديدا أو يسيرا عن الواقع ، فهى إما معتمدة على البحوث اللغوية كالخضرمة ، وإما على العاطفة الدينية كالصحبة للنبى ، وفى كل الأحوال كان اعتمادها على الجانب النظرى أشد من اعتمادها على التطبيق العملى ، واعتمادها على العاطفة أكثر من اعتمادها على القواعد العلمية وتعدد آراء علماء الحديث ، وكثرة اختلافهم فى تحديد الصحبة للنبى دليل واضح على أن كل فريق أو صاحب رأى كان يعتمد على

عاطفته وميله الشخصى ، أما لو اتجهوا إلى تحديد أسس عقلية أو علمية ، فلن يكون هناك مجال واسع للخلاف .

ومثال الفجوة الكبيرة بين التعريفات النظرية لصحبة النبى والجانب التطبيقى أنهم يعدون النعمان بن بشير من أصحاب النبى مع أنه من المؤكد أنه كان طفلا لم يبلغ العاشرة عند وفاة النبى ، لأنه ولد بعد هجرة النبى إلى المدينة . ومعنى ذلك أنه حتى وفاة النبى لم يكن قد بلغ الحلم لأن بلوغ الحلم عادة يكون بعد العاشرة على تفاوت بين البالغين ، والطفل الذى لم يبلغ الحلم لايوصف بانه قد صاحب النبى ، بل إن علماء الحديث يعلمون أنه حين نلتزم الدقة العلمية فلا يوصف من لم يبلغ الحلم بأنه مسلم ولا بأى شيء على وجه التكليف [1] ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من أصحاب النبى ، بل من المشهورين من أصحاب النبى [2] مع أنهم لو عرضوا هذا الوصف على أى تعريف مما عرفوا به صحبة النبى ، أو اشترطوه لاستحقاق وصف الصحبة فلن يستقيم لهم ، ولكنه من الواضح أن مجرد رؤية النعمان للنبى رغم أنه كان طفلا صغيرا أكسبته شرفا جعل علماء الحديث يتجاوزون حتى عن شروطهم التى اشترطوها لتحقق الصحبة ، والنعمان قد ثبت أنه وهو طفل رأى النبى ، حين أراد أبوه بشير بن سعد الأنصارى أن يخصه دون سائر بنيه ببستان إرضاء لأم النعمان ، وأبت أم النعمان إلا أن يشهد النبى على هذه الوصية ، أو هذه المحاباة ، فذهب بشير بطفله النعمان إلى

(١) لأن التكليف فى التشريع الاسلامى يبدأ من البلوغ

(٢) تلقيح فهوم أهل الاثر لابن الجوزى ١٥٥

النبي وطلب منه أن يشهد على ذلك ، فأبى النبي قائلا : لا أشهد ، أولا أشهد على ظلم في رواية أخرى [1] بل هناك أمثلة أشد توضيحا لهذه الفجوة التي نتحدث عنها ، ومن هذه الأمثلة أبو ذؤيب الهذلي الشاعر ، فالروايات جميعا تتفق على أنه لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما حضر جنازة النبي والصلاة عليه ، ثم دفنه عليه السلام ، ومع ذلك يعدونه من أصحاب النبي ومن الذين رأوه [2] ولعلهم يعنون أنه رأى جنازة النبي صلوات الله عليه .

---

(١) انظر صحيح البخاري .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ص ٢١٤ فصل(من عرف بكنيته من أصحاب النبي)

الدين والشعر

ليس المراد من هذا الحديث بيان الموقف التشريعى للدين نحو الشعر ، فمن المعروف أن الإسلام لا يحرم الشعر ولا ينفر منه ، بل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحسن الاستماع إلى الشعر ، وفى كثير من المناسبات أظهر رضاه وسروره من بعض الشعر ، كبعض شعر حسان وكعب بن زهير والخنساء ، ودعا لبعض الشعراء كحسان والنابغة الجعدى ، مما هو مشهور لا يحتاج إلى بسط فى القول .

ولكن هذا الموقف يمثل الجانب التشريعى الذى يعنى ببيان الحظر والإباحة ، والثواب العقاب الدنيوى أو الأخروى ، وليس هذا ما يهدف إليه هذا الحديث ، وإنما نهدف إلى بيان مدى التلاؤم والتوافق بين النزعة الشاعرية ، ونزعة التدين العميق ، بمعنى أنه هل تجتمع فى النفس النزعة الشاعرية الأصلية ، والإيمان العميق المتغلغل المسيطر على النفس ؟ أو بمعنى آخر : هل تجتمع فى شخص واحد ، الشاعرية الكاملة أو القوية ، مع الإيمان النفسى الكامل أو القوى ؟

وفى محاولة الإجابة عن هذا التساؤل ، يمكن أن يقال فى غير تكلف ولا شطط . إنهما لا يتفقان أو لا يجتمعان ، بمعنى أنهما لا يجتمعان

درجة واحدة ، فإذا اتقدت شعلة الشاعرية ، بدأت شعلة الإيمان فى الخبو ، وإذا اشتعلت جذوة الإيمان تهاوت جذوة الشاعرية ، أو بدأت فى التهاوى .

ويمكن لمن يدعى هذه الدعوى أن يقيم عليها أكثر من دليل ، وأول هذه الأدلة قوله تعالى « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[1] فمن الواضح أن القرآن جعل الشعراء طائفة مستقلة ، ومعنى هذا أنها متشابهة يصدق عليها الحكم الذى ورد فى الآيات ، والأحكام دائما تنطلق إلى الأغلبية ، وهذا لا يمنع شذوذ أقلية تخرج من هذا الحكم ، هى التى استثنتها الآية الأخيرة وأما الحكم الذى أصدرته الآيات على طائفة الشعراء ، فهو شقان ، شق صريح ، وشق ضمنى ، فأما الصريح فهو وصفهم بأنهم (يتبعهم الغاوون) ثم (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فالوصف الأول يعنى أنهم من مصادر الغواية والإفساد ، والثانى يعنى أن فى طبيعتهم الكذب ، وكل ذلك من البدهى أنه لا يتفق ولا يجتمع مع الإيمان العميق ، وأما الشق الضمنى الذى كان ينبغى على المفسرين أن يبرزوه ، فهو الحديث عن تنزل الشياطين ، فمن المعروف عند العرب أن الشياطين تتنزل على نوعين ، الكهان والشعراء ، ولكن

(١) آخر سورة الشعراء

الشعراء أكثر شهرة بذلك ، وهم أنفسهم يتحدثون ويفخرون بأن لكل شاعر منهم شيطانا يوحى إليه الشعر ، كما يقول هذا الشاعر

إنى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

وما دام الشعراء ضمن من تنزل عليهم الشياطين ، فهم بالضرورة موصوفون بالإفك والإثم الشديدين ، لأن المعنى أن الشياطين لا تنزل إلا على من طبيعته الإفك وهو الكذب والإثم ، وهذا لا يلزم منه أن يكون كل كلامه كذبا ، ولكن الأصل فيه الكذب ، ولا مانع من أن يكون بعض كلامه صدقا ، وهو معنى (وأكثرهم كاذبون) وفى كل حال ، فالآيات تتضمن وصف الشعراء بالإفك والإثم ، وهذا أيضا من البدهى أنه لا يتفق ولا يجتمع مع الإيمان العميق .

وثانى الأدلة قوله تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) فكون النبى لم يتعلم الشعر ولم يقله أمر واضح ، ولكن موضع التأمل فيما يعنينا هو) وما ينبغى له) فلماذا لا ينبغى للنبى الشعر ، ولا يناسبه أن يوصف بحرفة الشعر ؟ مع أن كثيرا من الأنبياء احترفوا مهنا مختلفة ، فقد كان نوح نجارا ، وكان داود حدادا ، وكان موسى راعيا ، بل كان داود موسيقيا ، ويتخذ من الموسيقى نوعا من العبادة ، فلماذا لم يكن الشعر كنوع من هذه الانواع ؟ ولماذا يصرح القرآن بأنه لا يناسب النبوة والدعوة إلى الإيمان ؟ ومهما تتعدد الإجابات عن هذا التساؤل ، فلا شك أنه سيكون من صلبها أن الشاعرية بما تستلزمه من الجوانب الخلقية غير

المرضية مما أوردته الآيات السابقة لا تناسب أمانة النبوة ، والتزامها الكامل الدقيق للصدق والحقيقة ، وإذن فالنبي وهو قدوة المؤمنين ، وهو الداعي إلى الإيمان ، لا يليق به ، ولا يناسبه أن يكون شاعرا ، ومضمون هذا أن صفة الدين أو الإيمان فى صورتها الكاملة لا تتفق ولا تجتمع مع صفة الشاعرية بصفتها الكاملة ، وتكون الشاعرية كاملة حينما تبلغ حد الاحتراف ، أو ملازمة قرض الشعر .

وثالثها أن بعض العلماء من أئمة النقد والأدب يدركون هذه الحقيقة بوضوح ، وهى أن الشعر لا يتفق ولا يجتمع مع المثالية فى الدين والفضيلة ، بل يصرحون بما هو أبعد من ذلك ، وهو أن الشعر لا تناسبه بيئة الخير قط ، وأنه لا ينمو ولا يزدهر إلا فى بيئة الشر كما يقول الأصمعى (الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف) [1] ومن المشهور قولهم أجود الشعر أكذبه ، ولم يعترض أحد من العلماء والنقاد على هذا ، فكأن هذا المعنى إجماع ، وهو أن الشعر لا يتفق ولا يجتمع مع الإيمان فى صورته الكاملة أو القوية .

ورابعها أن بعض الشعراء ممن بلغوا قمة الشاعرية ، كلبيد بن ربيعة الذى كان من أصحاب المعلقات ، حين دخل الإسلام كأنه أحس أن روحه لا تتسع للإيمان العميق الذى ينشده ، والشاعرية معا ، فقرر أن يهجر الشعر ، ليتسنى له أن يبلغ ما يريد ، وكأنه يقرر أن الشاعرية والإيمان لا يجتمعان بالصورة التى سبق ذكرها ، ومهما علل

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٠٥

لبيد تركه للشعر بالاكتفاء بالقرآن الكريم ، فإن ذلك لا ينفى العلة السابقة ، لأن القرآن لم يوضع أمام الشعراء موضع التسابق أو الموازنة حتى يعلن لبيد حكمه على ترجيح إحدى الكفتين ، ولم يكن القرآن والشعر مترادفين أو متقاربين حتى يستغنى بأحدهما عن الآخر ، وإنما المعقول أن لبيدا وجد أن حلاوة الإيمان الذى عنوانه القرآن هى المسيطرة على نفسه ، وأن الشعر من واد يختلف عن وادى الإيمان ، فآثر طريق الإيمان على طريق الشعر ، ومن المتوقع أن يكون هناك شعراء كثيرون سلكوا منهج لبيد ، ولو فى صورة أن يجعلوا الإيمان فى نفوسهم فى الكفة الأرجح ، والشعر فى الكفة الأضعف ، ويدل على هذا ما لحظه كثير من النقاد من أن الشعر فى الإسلام كان أضعف منه فى الجاهلية ، وهذا يعنى أن الشعراء صرفوا الجانب الأكبر من همهم إلى الدين ، لأنهم لو صرفوا الجانب الأكبر من همهم إلى الشعر ، لظل شعر الإسلام فى نظر هؤلاء النقاد قويا كما كان فى الجاهلية ،ونخلص من هذا أيضا إلى جوهر النتيجة السابقة ، وهى أن الشعر والدين لا يتفقان كل الاتفاق

وخامس الأدلة أن واقع الشعراء يؤكد هذه النتيجة ، فمع أن هؤلاء الشعراء كانوا يعيشون فى أعظم جيل عرفه التاريخ ، وبخاصة فى تطبيق الشريعة على الخلق والسلوك ، إلا أنهم كانوا يمثلون الشذوذ على هذا الحكم ، بمعنى أنه يمكن أن يقال إن هذا الجيل بكل طوائفه وطبقاته كان أعظم الأجيال ، باستثناء طائفة الشعراء ، ولن يكون

فى هذا جور عن الحقيقة ، ولا تحامل على الشعراء ، فسنرى فيما بعد أنه – باستثناء النادر – ما من شاعر إلا وكانت له سيئة أو مساوىء تجعله نشزا يكاد يكون غريبا فى هذا المجتمع العظيم ، ويكفى أن يكون حسان بن ثابت ، الموصوف بأنه شاعر الإسلام أو شاعر الرسول . من أكبر المسهمين فى حديث الإفك ضد عائشة ، وقد ضرب حد القذف من أجل ذلك [1] ، بل إن عائشة كانت ترى أنه المعنى بقوله تعالى (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) [2] وكذلك كان كل واحد من الشعراء له فى دينه أو خلقه أو سلوكه من السوء ما يجعله يكاد يكون غريبا فى هذا المجتمع الذى وصفه القرآن الكريم بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وهذا كله يؤدى بنا إلى النتيجة السابقة ، وهى أن الإيمان الصادق العميق ، والشعر ، كل منهما فى طريق ، وأنهما حين يلتقيان فإنهما لا يتفقان كل الاتفاق .

ومما يتوارد حينئذ أن يقال : فلماذا انفرد الشعراء بهذه الصفة دون سائر الناس ؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن نقطة الاختلاف بين طبيعة الشعراء وبين الإيمان هى الاستقرار وعدمه ، فبينما من أهم أسس الإيمان الاستقرار ، فإن طبيعة الشعراء لا تقوم على الاستقرار بل ولا يناسبها الاستقرار ، فأما انبناء الإيمان على الاستقرار ، فلأن كل شىء فى الايمان من خصائصه الاستقرار والثبات ، فالعقيدة لا توصف بأنها عقيدة إلا إذا كانت ثابتة مستقرة ، وكذلك ما ينبع

(١) سيرة ابن هشام ٣–٧٦٩ –٧٧٠

(٢) من الآية ١١ سورة النور .

منها ويتفرع عنها يحتاج إلى الثبات والاستقرار ، فكل تشريع فى الدين ثابت ، لا يكون حلالا فى يوم ، وحراما فى يوم آخر ، ولا يكون مباحا عند قوم ، ومحظورا عند آخرين ، حتى العواطف والانفعالات يدعو الدين إلى ثباتها واستقرارها ، سواء فى الرضا والغضب ، وفى الحزن والسرور ، كما فى القرآن الكريم توجيها للمؤمنين (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) (١) وكل ما يصدر عن المؤمن يدعو الدين إلى جعله مستقرا على صورة ثابتة هى الاعتدال ، فالمشى معتدل بين السرعة والبطء ، فمن صفات المؤمنين (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . .) (٢) ولقمان يقول لابنه (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك . .) (٣) فالصوت أيضا ينبغى أن يكون معتدلا بين الارتفاع والانخفاض ، وأما طبيعة الشعراء فإنها لا تعرف الاستقرار ، وحينما تستقر فلن يكون صاحبها شاعرا أصيلا ولابد للشاعر حين يشعر أن يكون دائما محلقا مطوفا متقلبا بين أجواء الخيال وأفانين التصوير ، وهذا المعنى يصرح به القرآن فى قوله : (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) وإذا كانت هذه النقطة أو القاعدة هى أساس الخلاف بين الشاعرية والإيمان ، فإن كل ما يتفرع عنها بعد ذلك لا يخلو من اختلاف

---

(١) من الآية ٢٣ سورة الحديد
(٢) من الآية ٦٣ سورة الفرقان
(٣) من الآية ١٩ سورة لقمان
(٤) الآية ٢٢٦ سورة الشعراء

الشعراء

نريد فى هذا القسم أن نسير مع الشعراء المخضرمين ، لنلقى نظرة على موقفهم من الحياة فى جوانبها الهامة ، أو التى لا يتسنى للناس أن يجتنبوها . وأول ما يبادر نا فى هذه المصاحبة النظرة إلى عدد الشعراء المخضرمين ، والواقع أنه ليس من اليسير احصاء عددهم على وجه دقيق ، ليس من جهة الروايات وعدم استيعابها إلا للشعراء الذين ظهروا على سطح الحياة العامة فحسب ، وإنما لسبب آخر يشيع فى الحياة العربية القديمة ، وهو التفريق بين الشاعر المحترف ، وشاعر الذاتية أو المناسبات ، فالاستعداد للشعر شائع بين كثير من العرب القـدماء ، وبخاصة فى فترات الأمية ، حيث كان الشعر حينئذ هو المتنفس الوحيـد تقريبـا لمواهبهم ومشاعرهم ، والوسيلة الوحيدة أيضا للإعلام فى مجتمعهم ، حينئذ كان كثير منهم يبدو لديه الاستعداد لقرض الشعر ، ولكن قلة ممن لديهم الاستعداد هم الذين يحترفون الشعر ، فيتخذونه مهنة يصل الشاعر من خلالها إلى أحد هدفين ، إما منصب أدبى فى المجتمع ، حين يجد أن المناصب الأدبية قد شغلها رؤساء القبيلة وقادتها وفرسانها ، وإما وسيلة لكسب العيش ، فيما يعرف بالتكسب بالشعر ، وهذا الاتجاه لم يعرف إلا

فى أواخر الحياة الجاهلية ، أظهره النابغة الذبيانى ، وسار على نهجه أغلب معاصريه من كبار الشعراء ، وبخاصة زهير بن أبى سلمى ، والأعشى ، وحسان بن ثابت فى فترته الجاهلية . أما الكثرة فهم الذين كان لديهم الاستعداد للشعر ولم يحترفوه ، فكانوا يقولونه فى المناسبات التى يجدون فيها داعيا نفسيا لهم أن يعبروا عما ينفعلون به بالشعر وهؤلاء وإن كنا نستشهد بشعرهم ، لكنا لا نعدهم من الشعراء بمعنى الاحتراف ، وقد ذكرت الروايات كثيرا . من شعرهم ، رغم أن كثيرا من هذا الشعر غير موثوق بصحته ، ولكنه يدل على أن أصحابه كانوا يقولون الشعر ، أو لديهم الاستعداد الشعرى الذى يعبرون به أحيانا عما فى نفوسهم ، ومن هؤلاء أبو طالب عم النبى وأبو سفيان بن حرب ، وعمر بن العاص ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وغيرهم كثيرون [1] .

وأما الذين احترفوا الشعر ، وظهروا على سطح الحياة العامة فى هذه الفترة بوصفهم شعراء فيربو عددهم على التسعين شاعرا ، وبعض المستشرقين يحصى الشعراء الذين عاشوا فى الجاهلية نيفا وثمانين شاعرا [2] ولكنه إذا كان يعنى الشعراء الجاهليين ، والشعراء المخضرمين الذين عاشوا فى الجاهلية حقبة من حياتهم ، فلا شك أن العدد سيكون أكبر من هذا بكثير ، فإن الشعراء المحترفين من المخضرمين وحدهم يزيدون على التسعين كما ذكرنا فيما تحدثنا

---

(١) انظر سيرة الرسول لابن هشام فى مواضع متفرقة كثيرة وللمثال من٤٢٩–٥٣٨

(٢) كارلونا لينو فى تاريخ الاداب العربية ٦٩

به الروايات ، هذا بخلاف الجاهليين الذين لم يدركوا الإسلام ، وهؤلاء ذكرت الروايات منهم شعراء ثلاثة أجيال على الأقل ، إذا راعينا أن عمر الجيل فيما حققه بعض الباحثين أربعون عاما [١] فتكون الفترة التى اتفق معظم الباحثين على أنها عمر التاريخ الأدبى قبل الإسلام ، منها ثلاثة أجيال جاهلية ، وجيل مخضرم قضى شطرا من حياته فى الجاهلية وشطرا فى الاسلام . وليس هناك من يملك تحديدا دقيقا لهذه الفترة السابقة للإسلام ، لأنه ليست لدينا أدلة موثوق بها لتحديدها ، وإنما هى قرائن وملابسات تقرب تحديد هذه الفترة ، ومن ذلك مثلا أنهم يتفقون على أن امرأ القيس من أقدم شعراء الجاهلية فنجد الروايات تذكر أن عامر بن جوين عاصر امرأ القيس ، ثم كان لعامر هذا حفيد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم [٢] ومعنى ذلك أن بين امرىء القيس والنبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجيال ، عمرها الافتراضى حسب التحقيق المشار إليه مائة وعشرون عاما . ذلك أن النابغة الذبيانى مات قبل الاسلام بزمن غير محدود ومع ذلك فمن المحقق أن حسان بن ثابت عاصره ، واجتمعا معا عند ملوك آل غسان ، والخنساء عاصرته وكان النابغة حكما على شعرها فى سوق عكاظ. كما هو معلوم ، والنابغة الجعدى عاصر الذبيانى ، بل كان أقدم وأسن منه [٣]

---

(١) الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلى عبد العزيز الأزهرى ص ٥٧
(٢) انظر القصة فى خزانة الأدب للبغدادى ١-٥٢-٥٤
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٢٩٠

ولكنه عاش حتى وفد على النبى ، وكذلك الخنساء وفدت على النبى[1] وان كان التاريخ يرجح أن النعمان بن المنذر الملك مات سنه ٦٠٢ م وكان النابغة على صلة به حتى موت النعمان[2] ومن هذا نعلم مدى توغل المخضرمين فى الجاهلية وتعمقهم فيها ، سواء أكان تعمقاً فى الزمن ، كالنابغة الجعدى الذى كان أسَنّ من النابغة الذبيانى ، أو تعمقا نفسيا كحسان بن ثابت الذى عاش ستين سنة فى الجاهلية ومن شأن من يعيش فى بيئة زمنا كهذا أن تتشبع نفسه بكل جوانبها وحينئذ لا يكون غريبا أن نرى آثار الجاهلية واضحة فى شعر المخضرمين بصفة عامة .

ومن أهم الجوانب التى يعنينا أن نرى موقف الشعراء المخضرمين تجاهها ، الجوانب الآتية .

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٤٤

(٢) تاريخ الآداب العربية كارل نالينو ٨٦

الدين

في الجاهلية :

لم يكن الدين لذاته موضع اهتمام كبير عند العرب فى الجاهلية ، بحيث يثير فى نفوسهم انفعالات أو عواطف خاصة ينفعل بها الأفراد، وحقا إن الوثينة كانت شائعة مسيطرة على حياة الجاهلية ، ولكنها فى حقيقة الأمر لم تكن تمثل دينا للعرب بمعنى العقيدة الراسخة التى يتشبث بها الأفراد لذاتها حين تمتلىء نفوسهم بها ، ويمكن رد عبادة الأصنام فى حياة العرب إلى سببين :

١ – أحدهما أنها تعبير عن غريزة التدين المعروفة لدى علماء النفس والاجتماع ، من حيث إن الإحساس بوجود الله غريزة فى البشر العادى ، فكل إنسان فى أعماقه الإحساس بالله ، ولكن بعض الناس يتجاهلون هذا الإحساس فينكرونه ولو بألسنتهم مع أن كثيرا من سلوكهم يدل على هذا الاحساس ، وبعضهم يتمثل ذات الله سبحانه فى قوة غامضة أو خفية ، ويرمزون لها بشىء كالصنم ، وبعضهم يتمثلها فى مصدر للنفع كالشمس أو نحو ذلك . والقرآن الكريم يشير إلى أن العرب لم يكونوا يتخذون من الاصنام عقيدة لذاتها ، وإنما يتخذونها تعبيرا عن إحساسهم بالله ، ووسيلة إليه ، فى قوله تعالى

على لسانهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى [1] (وقوله) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) [2] فهم فى الحقيقة يريدون الاتجاه إلى الله ، ولكنهم ضلوا الطريق فوصلوا إلى غيره .

٢ – والسبب الثانى الذى نستطيع به تعليل تعدد الأصنام ، هو العصبية القبلية ، التى نشأت أساسا ، ونشأ معها أو قبلها كل نشاط. ومظهر من مظاهر الحياة العربية من غريزة حب البقاء ، ويتبعها الصراع أو الدفاع من أجل هذه الغريزة ، وذلك أن الفرد فى هذه الحياة لم يكن يجد ما يتمعر أنه حماية له ، من سلطة عامة ، أو قانون ملزم ، وإنما كانت الحياة أشبه بغابة ، البقاء فيها للأقوى ، فراح الأفراد يلتمسون التجمع فى كيان العشيرة داخل القبيلة ، لحماية أنفسهم من العشائر الأخرى فى القبيلة ، وبالتالى تتجمع العشائر فى كيان القبيلة لحماية أنفسهم من القبائل الأخرى ، وكذلك الأفراد كان هم الواحد منهم أن يبرز قوته أمام الأفراد الآخرين فى مبارزات جسدية كالقتال ، أو معنوية كالتفاخر والمهاجاة ، وهكذا يمكن رد كل مظاهر الحياة العربية الجاهلية ، بل وكل ما نشأ عنها من نشاط. كالنشاط الأدبى إلى غريزة البقاء وما تستلزمه ، والقرآن الكريم يشير فى مواضع عديدة إلى أن كل حجتهم فى التمسك بعبادة الأصنام أنهم يحافظون على ميراث الآباء وتقاليدهم ، والاباء وما يمثلونه فى

---

(١) الآية ٣ سورة الزمر

(٢) الآية ٣٨ سورة الزمر الآية ٢٥ سورة لقمان

النسب والانتماء هم من مظاهر الغريزة المشار إليها . ولو اقتنع العرب باله واحد من الأوثان لعبدوه جميعا أو أغلبية ، ولكنهم بنزعة التكتل والانتماء إلى قوة يحتمون فيها جعلت كل قبيلة لنفسها صنما معينا تعبده ، وأهم من عبادته أن يكون هذا الصنم رمزاً لها ، وكتب الأخبار تفيض فى سرد أصنام القبائل ، وتحديد معبود كل قبيلة من الأصنام[1]

وإذا كان الأمر كذلك ، فلانتتظر أن نرى الأدب فى مجموعه – أعنى بصرف النظر عن الحالات الفردية – معبرا عن الدين ، لأكثر من سبب ، منها أن الأدب فى مجموعه إنما هو تعبير عن حالة عصره وانفعالاته ، وما دام الدين لم يكن عقيدة حقيقية مؤثرة فى حياة الجاهلية فلا ننتظر أن نجد له صدى في الشعر . ومن الأسباب أيضا أن الشعراء كما سبق هم أضعف الطوائف عمقا فى الدين وتأثرا به ، فإذا كان المجتمع غير منفعل بالدين ، فالشعراء من باب أولى لاينفعلون .

وأما الأصوات المعبرة عن الدين فى الجاهلية ، كالمتحنفين [2] ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعثمان بن الحويرث ، وكذلك قس بن ساعده المشهور بدعوته إلى الايمان والبعث ، بخطبته وشعره فى عكاظ . وكالأفراد المعدودين من

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى د. شوقى ضيف ١ – ٨٩ – ٢٠١ نقلا عن مصادر أخرى

(٢) نسبة إلى الحنيفية وهى ملة أبراهيم و عبيد الله و زيد أسلما و ورقه يعد مسلما و إن لم يعلن صراحة و لكنة رحب بدين الاسلام و مات عقب البعثة مباشرة وعثمان ابن الحويرث لم يدرك الاسلام

الشعراء الذين تحدثوا عن الدين فى الجاهلية ، كأمية بن أبى الصلت الذى دعا إلى الله وإلى الايمان بالبعث ، وأدرك الاسلام فلم يسلم ، وقال عنه النبى (آمن لسانه وكفر قلبه) ومثل زهير بن أبى سلمى الذى تحدث أيضا عن الله وعن البعث فى أبيات معدودة من قصيدته الميمية ، وكذلك عدى بن زيد ، والأعشى ميمون [1]

كل أولئك لا يمثلون إلا حالات فردية ، ولم يكن لهم تأثير واضح ، ولم يصل أحدهم أو مجموعهم أن يكون لهم اتجاه أو مذهب حينذاك ، فالشعراء لم يجعلوا الدين كله صحيحه وباطله غرضاً وموضوعاً لهم فى الجاهلية .

وأما اهتمام كثير من المستشرقين بإثبات وجود النزعة الدينية ، والنشاط الدينى فى الشعر الجاهلى ، فمن الواضح أنهم يهدفون إلى إثبات نشاط المسيحية واليهودية وتمثيلها بالشعر فى البيئة العربية ، فالمستشرقون النصارى يريدون أن يثبتوا أن النصرانية كان لها كيان وصوت قويان فى الجزيرة العربية ، سواء فى جنوبها وخاصة فى نجران أو شمالها وبخاصة فى قبائل غسان وتغلب وبكر وإياد ، والمستشرقون اليهودية ، يريدون أن يثبتوا أن اليهودية كان لها كيان وصوت قويان ، سواء فى اليمن أو يثرب وتيماء وما وليهما ، ومع أن اليهودية والنصرانية كانتا فعلا فى هذه المناطق ، إلا أنهما لم يكونا شاملين ، ولم تكن لهما

---

(1) زهير مات قبل لاسلام والأعشى أدركه ولم يسلم وعدى مات قبل الاسلام وبعض الروايات تتوهم أنه عاصر الخلفاء الاربعة أو من بعدهم انظر كارل بروكلمان ١ – ١٢٥ – ١٢٦

سيطرة نفسية على أتباعهما من العرب ، ولم يكن هناك تأثير دينى إلا على الذين يدينون باليهودية وهم من أصل يهودى ، كقبائل بنى النضير وبنى قينقاع وبنى بهدل فى يثرب وتيماء ووادى القرى ، أما الذين اعتنقوه من العرب فلم يظهر لهم أثر واضح فى التأثر به ، ولم يكن اعتناقهم لليهودية أو النصرانية إلا من باب عدم تشبثهم بدينهم الوثنى ، وعدم اقتناعهم به .

وما تلمسه المستشرقون فى شعر هذه القبائل التى دخلتها اليهودية والنصرانية من شعر دينى ، فإنه لا يصلح دليلا على دين معين ، وإنما هو دليل على الحس الدينى الذى لا تخلو منه غريزة الإنسان وحسه بطبعه أو احتكاكه بغيره من أصحاب الأديان ، فما الدلالة الدينية مثلا لقول الأعلم الهذلى الجاهلى حين يشبه جلود الضباع بسواد ثياب الرهبان ؟ فيقول (١)

سود سحاليـــل كأنّ جلـــودهن ثياب راهب

وهل معرفة أن الراهب يلبس ثيابا سودا تدل على التدين بالنصرانية وما الدلالة الدينية المعينة على مثل قول زهير أبى سلمى (٢)

فـلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهمـا يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

فهل هذا يدل على تدين بدين معين كاليهودية أو النصرانية ؟

(١) شرح أشعار الهذليين للسكرى ١-٣١٤

(٢) شرح ديوان زهير لأبى العباس ثعلب ١٨

وهل مثل زهير فى عقله وخبرته وتجوابه فى الآفاق فضلا عما لديه كغيره من حس ديني يخفى عليه مجرد العلم بمضمون هذين البيتين ؟

بل لو ذهبنا إلى أشهر شعراء اليهود حينئذ ، وهو السموءل بن عادياء ، وأشهر شعراء النصارى وهو عدى بن زيد فضلا عن غيرهما من شعراء الملتين ، لما وجدنا فى شعرهما ما يدل على التعبير عن دين معين ولم يستطع أحد من المستشرقين رغم حماسهم الشديد لإثبات هذا الاتجاه أن يدلنا على شعر صحيح يدل على إشادة أحد من شعراء الجاهلية باليهودية أو النصرانية أو الدعوة إليهما ، سواء من الشعراء الوثنيين أو اليهود أو النصارى ، هذا رغم إسراف بعض المستشرقين كزعم لويس شيخو أن شعراء الجاهلية جميعا يعدون من شعراء النصرانية ، وان كان بعضهم مثل كارل بروكلمان ينكر هذا الغلو [1] ، ومع ذلك يحتفظ بأساس الاتجاه العام للمستشرقين وهو محاولة إثبات كيان دينهم ، فإن كان المستشرق يهوديا حاول إثبات ظهور اليهودية وانتشارها ، وان كان نصرانيا كان كذلك ، فيزعم كارل بروكلمان بدون دليل تأثير النصرانية فى الثقافة العقلية التى مثلها الشعر فى الحياة الجاهلية [2] ومثل هذا الاتجاه نجده لدى المستشرقين عامة ، بل يحاول بعضهم أن يثبت أن شعراء النصارى كان لهم تأثير فى شعر الاسلاميين كأبى العتاهية فى زهدياته [3] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١ -١٢٧

(٢) المصدر السابق

(٣) تاريخ الأداب العربية كارل نالينو ٨٨-٩٤

ونخرج من هذا كله بأن الشعراء فى الجاهلية لم يتخذوا من الدين غرضا واضحا فى أشعارهم ، فلاهم دعوا إلى أى دين ، ولا هم صدوا عن أى دين ، بل ولاهم أظهروا رضا أو سخطا على أى دين ، وكل حديث يخالف هذه الحقيقة ، إنما ينبعث من ورائه الهوى والتعصب الدينى ، كما يبدو من اتجاه المستشرقين ، وكل ما بدا من المعانى القليلة التى وردت فى شعر بعض الشعراء الجاهليين عن الدين ، إنما تمثل خواطر عن بعض المعلومات الدينية التى لم يخل منها شعب ولا جيل مهما بُلغ من البداوة ، أو نظرات تمثل تفوقا عقليا لدى بعض الشعراء الوثنيين ، أو المعلومات الشائعة فى المجتمع بالقياس إلى شعراء اليهود والنصارى .

فى الاسلام :

وحين جاء الإسلام اهتزت له الجزيرة العربية ، وامتلأت نفوسها انفعالا به ، بين مندفع إليه شديد الحماس فى اندفاعه ، وبين مزْوَرٌّ عنه شديد الازورار ، وبين صاد عنه شديد الصد ، وهذا الانفعال الذى صاحب بدء الإسلام كان ينبغى أن يكون هو المناخ الخصب لتفجير شاعرية الشعراء ، سواء أرضوا عن الإسلام أم سخطوا عليه فإن انفعال الشاعر بأمر من الأمور هو المنطلق لشاعريته ، فكان المنتظر حينئذ أن تتدفق ألسنة الشعراء بما تفيضه عليهم انفعالاتهم إزاء هذا الدين الجديد الذى أصبح الشغل الشاغل للعرب ، بين مؤمن وكافر

ولكن الشعراء لم يكونوا كما كان ينتظر حسبما يوحيه منطق الأمور ومع ذلك نستطيع أن نفصل بين نوعين من الشعراء .

١ - شعراء المدن والحواضر التى تعرف بالمدر ، وهى حواضر مكة والمدينة والطائف وقرى البحرين من عبد القيس [١] وهؤلاء تصدى عدد غير قليل منهم للإسهام بشعره فى هذه الفورة الدينية العارمة ، وانقسموا فى أول الأمر إلى قسمين ، قسم يناوىء الاسلام ويحاول أن ينال من المسلمين ومن شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تركز هؤلاء فى مكة بالذات ، وأشهرهم عبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص [٢] وقسم يدافع عن المسلمين وعن شخص النبى ، وتركز هؤلاء أيضا فى المدينة بالذات ، وأشهرهم ثلاثة عرفوا بأنهم شعراء الإسلام ، أو شعراء الرسول ، وهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة [٣] وحين نتأمل فى شعر القسمين جميعا نجد أننا إنما نعد شعرهم دينيا بالقياس إلى غيره من الشعر الذى لم يعن بالدين قط ، أما حقيقة هذا الشعر فهى أقرب إلى العصبية منها إلى جوهر الدين ، فلا شعر المسلمين كان تصويراً صحيحاً أو قريبا من الصحة للإسلام ولا شعر المشركين كان تصويرا صحيحا أو قريبا من الصحة لتشبث المشركين بدينهم أو آلهتهم أو عاداتهم وتقاليدهم . ولسنا نعنى بتصوير

---

(١) المفصل فى تاريخ الأدب العربى احمد أمين وآخرين ١ - ١٠٧

(٢) شرح حماسه أبى تمام للتبريزى ٢ - ٥٨

(٣) المصدر السابق وسيرة ابن هشام

الشعر للدين أن يكون منظومة تحوى التشريع والأحكام والمواعظ ، وإنما نعنى جوهر الدين وفضائله ، فقد كان الشاعر يستطيع أن يسبغ على شخص معين يمدحه من الفضائل والمزايا ما يتحدث به الركبان ، ولكن شعراء الاسلام لم يبرزوا من الإسلام إلا معانى سطحية لا تحمل سمات التصوير الشاعرى ، كقول كعب بن زهير يخاطب الرسول فى قصيدته المشهورة (بانت سعاد) .

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القـــرآن فيها مواعيظ وتفصيل

وقوله – إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

أما سائر القصيدة ، سواء فى مقدمتها المفيضة فى وصف الناقه أو مؤخرتها المفيضة فى مدح الرسول وعشيرته من قريش والمهاجرين ، فلم تكد تخرج عن أسلوب الجاهلية فى الشعر ، سواء فى الألفاظ أو المدح كمدح الرسول [1] ولو كان للاسلام أثر واضح فى نفس كعب ، لظهر فى تصويره للرسول حين يمدحه ، ولن يعجز شاعر مثل كعب حينئذ أن يصف المزايا الدينية والخلقية وما أحدثه الرسول من تغيير كامل فى نقل العرب من جاهلية دينية خلقية إلى نور الإسلام ، وغير ذلك ، خاصة وأن هذا الشعر كان قبيل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . حيث كان الاسلام قد سيطر على الجزيرة العربية واتضحت معالمه ومزاياه حتى للذين لم يكونوا قد

---

(١) انظر شرح ديوان كعب للسكرى ص٦ وما بعدها

دخلوه بعد ، ولكن مدح كعب كله اعتمد على تصوير الرسول بصورة أسد منيع ، يحتل واديا رهيبا لا يجرؤ طامع أو صائد أن يدنو منه[1] .

بل إن حسان بن ثابت مع أنه كان أكثر الشعراء صلة بالرسول وأقربهم مكانا منه ، ومع أنه كان من خيرهم دفاعا عن الاسلام ، وحبا لشخص الرسول ، إلا أن تصويره للإسلام ، ولصفات الرسول كان من أضعف جوانب شاعرية حسان ، وهذه قصيدة همزية تعد من أشهر شعر حسان الإسلامى ، ومع ذلك فكل ما جاء فيها من مدح الرسول تقريبا هو [2]

وقال الله قد أرسلت عبـدا يقول الحق إن نقـع البلاء

ويروى (يقول الحق ليس به خفاء) فما ميزة الرسول فى هذا المدح عن أى رجل شجاع يقول الحق وسط الشدة ، أو يقوله واضحا غير ملتو ؟ ولذلك أبدى الأصمعى ملاحظته عن الفارق بين الشعر الجاهلى والإسلامى ، مستشهدا بحسان بن ثابت كمجرد مثال ، حيث يقول (الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الاسلام سقط شعره)

وكذلك شعراء المشركين فى مكة ، لم يكن لديهم دافع دينى حقيقى يدعون إليه أو يدافعون عنه ، وإنما كانوا يدافعون عن كيانهم هم ، وعن تقاليدهم ومكانتهم ، ولذلك تحاشوا فى شعرهم الذى كانوا

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت ٧٣ وما بعدها
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٠٥

يناوئون به المسلمين أن يتحدثوا عن آلهتهم أو عن دينهم ، فلم يكن الدين لذاته غرضا واضحا فى شعرهم على الإطلاق ، وحتى هجاؤهم حينئذ للنبى صلى الله عليه وسلم لم يكن من الناحية الدينية ، وإنما بوصفه خصما وعدوًّا لهم ، أعنى أنهم لم يركزوا هجاءهم على إنكار صفة النبوة ، أو تكذيب الاسلام ، وإنما على طابع الهجاء التقليدى فهذا هبيرة بن أبى وهب المخزومى الذى أصر على كفره حتى مات ، يسوءه أن تسلم زوجه أم هانئ ابنة أبى طالب ، فلم يزد فى حديثه عن إسلامها على إعلان فراقه إياها ، وأن ما بينهما من البعد أصبح شاسعا بعيدا ، فيقول [1]

فإن كنت قد تابعت دين محمد   وعَطفَّت الأرحام منك حبالها
فكونى على أعلى سحيق بهضبة   مُلمْلمَةٍ غبراء يَبْس بلالها

ب – شعراء البادية ، أو ما يعرف بالوبر ، وهم الذين تشبعت نفوسهم بغلظة البادية ، وجفوة الأعراب ، وهؤلاء كانوا بطبعهم أقل الناس عمقا فى الدين ، فإن الإيمان بمعناه النفسى يعتمد على الروحانية والمشاعر النفسية الرقيقة الرحيمة العميقة ، وهم بأسلوب معيشتهم غير مهيئين لهذه الدرجة من هذه المعانى ، فكانوا قبل الاسلام أسوأ الجاهليين ، تناحرا وتدابرا وقطعا للطريق وغير ذلك ، وكانوا فى الاسلام أضعف المسلمين إيمانا ، ولذلك خصهم القرآن بأكثر من وصف بالغ الإفصاح فى تمييز طبيعتهم كقوله (الأعراب أشد كفرا

---

(١) سيرة ابن هشام ٤–٨٧٧ – ٨٧٨

ونفاقا [1]) وكقوله (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) وحيث كان هذا حكما على أعراب البادية ، فإنه أشد انطباقا على شعراء البادية ، لأنهم كما سبق أضعف الناس تهيؤاً لمعنى الإيمان العميق الثابت المستقر ، ولذلك نجد شعراءهم تلازمهم رقة الدين وضعف التشبث بالإيمان وما منهم إلا من له فى ذلك أخبار كثيرة تنبىء عن أن نفسيته لم تنفعل بالدين فى أعماقها ، وأنه وإن اكتسى إهاباً مسلما منقاداً لحكم الاسلام وسيطرته فإن قلبه لم يزل يحن حنينا قويا أو ضعيفا إلى الجاهلية ، ومن أطرف ما عبر به الشعراء حينئذ عن حالهم هذه التى أصبحوا فيها مكبلين بقيود الإسلام ، لا يستطيعون منها فكاكا ، ثم يحنون إلى الجاهلية فلا يجدون إليها سبيلا ، قول أبى خراش الهذلى الذى كان فى الجاهلية صلعوكا قاطعا للطريق ، يفعل ما يشاء ، ، ثم جاء الاسلام بقيوده التشريعية التى يراها أبو خراش سلاسل حيث يقول :

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل [2]

ولذلك لم يتردد هؤلاء الأعراب فى الخلوص من الاسلام والردة إلى الجاهلية فور أن زالت من نفوسهم هيبة النبى بوفاته ، فارتدوا ولم يبق فى الاسلام إلا أهل الحاضرتين مكة والمدينة .

---

(١) الآية ٩٧ سورة التوبة
(٢) الكامل للمبرد — ٢٦٧

وإذا ألقينا نظرة على موقف الشعراء المخضرمين من الدين ، سواء من ناحية العقيدة والتشريع ، أو من ناحية السلوك والتطبيق ، نجد الوضع كما يلى :

الانحراف فى الدين :

المتتبع لأخبار الشعراء فى هذه الحقبة الأولى من الإسلام ، وهى دون شك أزهى الفترات الدينية على الإطلاق ، يستطيع أن يخرج بحقيقة أو حكم لا تكاد تختلف عليه الروايات ، وهو أن الشعراء فى مجموعهم كانوا هم الاستثناء أو الشذوذ فى الوضع المثالى الذى بلغه هذا الجيل المعاصر للنبى صلى الله عليه وسلم عقيدة وسلوكا ، والذى لم يبلغه جيل قبله ولا بعده ، فالشعراء كانوا هم الفئة الوحيدة التى عرف شذوذها عن هذا الوضع ، ولكنهم لقلتهم عددا فى المجتمع ، ولقوة اندفاع الحماس الدينى الذى لم يكن يستطيع أن يعاكسه ، بل ولا أن يقف فى وجهه أى شذوذ وأيضا لان شذوذهم كان ذاتيا لم يقصدوا منه أن يكون منهجا لغيرهم ، أو دعوة يدعون إليها ، لذلك لم يكن شذوذهم واضحا ، فضلا عن أن يكون ذا تأثير .

فأما أنهم كانوا يمثلون الشذوذ ، فهذا ما تفيض به الروايات ولا تستثنى منهم إلا النادر ، فبعضهم تجمع الروايات على اتهامه فى عقيدته نفسها ، كأبى الطمحان القينى ، الذى تصفه الروايات بأنه

كان خبيث الدين فى الجاهلية والإسلام [1] والحطيئة الذى تصفه الروايات بأنه رقيق الاسلام ، لئيم الطبع ، وقد أنكر الزكاة ، وأنكر خلافة أبي بكر[2] وعتيبة بن مرداس المشهور بابن فسوة ، يصفه ابن عباس وهو وال على البصرة بالكفر والعصيان ، ويصفه بنحو ذلك عامر بن الكريز الوالى وله شعر يعرض فيه بهما والروايات تصفه بأنه خبيث اللسان ، مخوف المعرة فى جاهليته وإسلامه [3] ومن المتهمين فى عقيدتهم شبيل بن ورقاء ، الذى يوصف إسلامه بأنه إسلام سوء ، وكان لا يصوم رمضان ، وحين أنكرت منه ابنته ذلك ، قال :[4]

تأمرنى بالصوم لا دَرَّ درها وفى القبر صوم ، لا أباك طويل

ومنهم النجاشى الحارثى الشاعر ، الذى تصفه الروايات بانه فاسق رقيق الاسلام ، وكان يفطر رمضان علانية ، حتى ضربه على بن أبي طالب فى ذلك ثمانين سوطا ، وزاده عشرين ، فقال له النجاشى : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ فقال هذه لجرأتك على الله فى رمضان[5] ومنهم حريث بن زيد الخيل الطائى الذى قتل معلم القرآن الذى أرسله عمر بن الخطاب ، رقتل عددا من أصحابه ، ثم هجا قريشا ، لمجرد أن هذا المعلم واسمه أبو سفيان ضرب رجلا طائيا من قرابة زيد الخيل

---

(١) الأغانى للاصفهاني ١٣-٣

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٢٢ والخزانة للبغدادى ٢-٤٠٨ الكامل ١-٢٣٢

(٣) الأغانى للاصفهانى ٢٢-٨ ٢٢-٢٣١

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٤٥٢

(٥) المصدر السابق ١-٣٣٠

وهو يعلمه القرآن فمات الطائى الذى يدعى أوس بن خالد، وقال حريث بعد قتله أبا سفيان المعلم وصحبه يخاطب قريشا والمسلمين [1] .

فإن تقتلوا بالغدر أوسا فإننى تركت أبا سفيان ملتزم الرحل
قتلنا بقتلانا من القوم عصبة كراما، ولم نأكل بهم حشف النخل

وأمية بن الأسكر تغلبه العصبية على الدين ، فيهجو رجلا لمجرد أنه أعان النبى والمسلمين على قومه من هوازن ، فى سرية بنى المصطلق [2] وتميم بن مقبل يوصف بأنه كان يبكى أهل الجاهلية [3] وأبو خراش الهذلى يرثى دُبَيَّة السلمى سادن العزى الذى قتله خالد بن الوليد بعد أن هدم العزى صنم غطفان [4] ومنهم المغيرة بن الأسود الأسدى الذى تصفه الروايات بأنه كان ماجنا فاسقا فاجرا مدمن خمر ، وكان يسخر من معالم الإسلام ، كسخريته من الصلاة ، حين قيل له اتق الله وصلِّ ، فقال بعد أن ضيقوا عليه : إما أن أُصلى ولا أتطهر ، أو أتطهر ولا أصلى ، ثم صلى بغير وضوء [5] ، وهذا منازل بن ربيعة المنقرى ، ينشد شعرا والناس فى صلاة الجماعة ، فوصفه عمر باللعين حتى غلب عليه لقب اللعين المنقرى ، ويوصف بأنه هجاء للأضياف [6]

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٢٨٦
(٢) الأغانى للاصفهانى ٢١-٢١
(٣) خزانة البغدادى ١-٢٣١
(٤) الأغانى للاصفهانى ٢١-١٠٩
(٥) خزانة البغدادى ٤-٤٨٩
(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٤٩٩

ومنهم أبو محجن الثقفي الذي اشتهر عنه ولعه الشديد بالخمر ، والذى تناقل الناس عنه فى هذا الولع قوله فيما قال من شعر كثير فى الخمر :

إذا مت فادفنِّى إلى أصل كرمة ... تُرَوِّى عظامى بعد موتى عروقها

ولكن الأبعد من هذا فيما يتعلق بحديثنا عن العقيدة ، أن أبا محجن فيما تذكره الروايات قد تعدى نهمه فى الخمر إلى إدعاء أنها حلال ، ملتمسا فى ذلك بعض التأويل ، مع أن مثل هذا يعتبر كفرا ، لأنه إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، ولذلك أفتى على بن أبى طالب بقتله هو وجماعته التى ادعت حل الخمر إن أصروا على تحليلها ولكنهم رجعوا وقالوا بتحريمها ، فأقام عليهم الحد ، فلما جلد أبو محجن قال شعرا يؤكد إصراره على الخمر من مثله قوله :

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى ... ولست عن الصبهاء يوماً بصابر

فأراد عمر بن الخطاب أن يزيده جلدا فوق الحد ، فأفتى على بن أبى طالب بأن فى القرآن ما يلتمس له به شىء من عذر بوصفه شاعرا كقوله تعالى عن الشعراء (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فيحمل إصرار أبى محجن على أنه أمنية لا يلزم تحققها [1] ، وهذا عمرو بن معد يكرب الزبيدى الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وآمن به عند لقائه ، نجده ما إن يعلم بوفاة النبى حتى يرتد عن الإسلام ، لا لعصبية قبلية تنقم على قريش بلوغ ما بلغته ، ولا للتخفف من مغرم الزكاة التى حسبها بعض العرب جزية تفرضها عليهم قريش الظافرة

---

(١) الأغانى للاصفهانى ١٩-١١-١٣

المنتصرة ، وحسبها بعضهم الآخر إثقالا عليهم ومقاسمة لهم فى أموالهم ، وإنما ارتد عمرو فيما ظهر من أمره بسبب نفوره من الوالى الذى ولاه النبى أميرا على قومه وهو فروة بن مسيك ، وقد عبر عمرو عن إنكاره لولاية فروة بشعر منه [1]

وجدنا ملك فروة شر ملك حماراً ساف مُنخرَهُ بثَفْــــر

ومنهم أبو شجرة السُّلمى الذى كان قد ارتد مع المرتدين عن الإسلام ، ولكنه أبدي بشعره نفورا شديدا من المسلمين ، وتحاملا شديدا عليهم ، ثم وفد على عمرو بن الخطاب ، وكأن عمر أحس أن أبا شجرة لم يزل قريبا من الجاهلية ، بعيدا عن الإسلام ، فذكره عمر بقوله فى حربه خالدا وجيشه من المسلمين أثناء الردة :

وَرَوَّيْتُ رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أُعَمَّــرا

ثم انحنى عليه عمر يضربه بالدرة ، فحل عقال ناقته ، وانطلق مسرعا تجاه قومه من بنى سليم وهو يقول شعرا منه [2]

مازال يضربنى حتى خذيت له وحال من دون بعض الرغبة الشفق

وهذا الشماخ بنُ ضرار ، يستهين بالحلف ، ولا يرى فى اليْمين أكثر من شىء يريح النفس ، ويزيح عن القلب همومه ، ومما قاله فى ذلك [3] .

ففرجت غم النفس عنى بحلفة كما قدَّت الشقراءُ عنها جِلالها

---

(1) سيرة ابن هشام ٤-١٠٠٤

(2) الكامل ١-٢٢٩

(3) خزانة البغدادى ٣-١٩٥ الشطر الثانى يعنى كما تلقى الدابة جلا لها عن ظهرها

الشعراء المنافقون :

وهناك شعراء كانوا أشد سوءا من الشعراء الذين كانوا يصدرون فى مجافاتهم للإسلام عن ضعف فى التدين ، أو عدم عمق فى الإيمان ، وهم الشعراء المنافقون ، فهؤلاء كانوا خطراً على الإسلام ، حيث كانوا ينفثون سمومهم ، ويستغلون مقدرتهم الكلامية ، وتقبل الناس للشعر وتأثرهم به ، فيطعنون فى الاسلام ، ويكيدون له ، بكل ما ما تمليه عليه شاعريتهم ، وكل ما يرون فيه هدما للإسلام بهذه الوسيلة ، فهذا أبو عفك الذي ظهر نفاقه حينما قال شعرا يحرص فيه الأنصار على التمرد على الاسلام ، ساخرا من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، متهما إياه بأنه صدع جمع الأنصار أولاد قيلة ، الذين يزعم أنهم كانوا قبل ذلك جمعا قويا لم يضعفوا إلا بتفريق الإسلام لهم ، ثم يسخر من التشريع الإسلامى متهما إياه بأنه يسوى بين النقيضين معا فى الحلال والحرام ، وهذه المزاعم مع ظهور بطلانها ومخالفتها للواقع إلا أن هذا البطلان إنما يتضح للذين كانوا يحتكون بالاسلام عن قرب ويعرفون شيئا عن حقيقته ولو كانوا غير مسلمين ، أما القبائل البادية فى الصحراء ، والذين لم يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئا إلا من الأخبار ، وأقوى الأخبار تأثيرا فى نفوسهم ما صيغ بالشعر ، فيمكن لهذا الشعر أن يؤثر ضد الاسلام حينئذ تأثيرا بعيد المدى خطير الأثر ، ومن شعر أبى عفك هذا :

لقد عشت دهرا وما إن أرى   من الناس دارا ولا مجمعا

أبرَّ عهودا وأوفى لمـــن يعاقد فيهم إذا مـا دعـا
من أولاد قيلة فى جمعهم يَهُدُّ الجبال ولم يخضعـا
فصدعهم راكب جـــاءهم حلال حرام لشتَّى معـا

لذلك ضاق النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الشعر ، وأمر بقتل أبي عفك فقتل فقالت إحدى نساء المسلمين وهى أمامة المزيرية تظهر رضاها عن التخلص من أبى عفك مخاطبة إياه :

تكذب دين الله والمـرء أحمدا لعمر الذى أمناك أن بئس ما يمنى
حباك حنيف آخر الليل طعنة أبا عفك خذها على كبر السن

ولكن قتل أبى عفك أظهر نفاقا آخر بالشعر ، فقد انبرت إحدى شواعر المنافقين ، وهى عصماء بنت مروان ، التى أظهرت فى شعرها نقمة عارمة على الاسلام ، وحقدا شديداً على شخص الرسول ، تلوم أنصار النبى من بنى مالك وبنى عوف وبنى النبيت وبنى الخزرج على اتباعهم للنبى ، زاعمة أنه يفرض عليهم الإتاوة ، ثم تريد أن تحط من نسب قريش وكيانها ، زاعمة أنها دون مراد ومذحج ، وأخطر من هذا أنها تحاول أن تثيرهم وأن تذكرهم بقتل المسلمين للرءوس ، تعنى رءوس الكفر ، ولعلها تعنى من بين الرءوس أبا عفك ثم تنتهى من هذا كله إلى التحريض على اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم فتقول

باسْت بنى مـالك والنبيت وعوفٍ ، وباست بنى الخزرج
أطعتم أتاوِىَّ مـن غيركم فلا من مـراد ولا مذحج

تُرَجُّونة بعد قتل السرءوس كما يُرْتجى مَرَقُ المنضج
ألا أَنِفٌ يبتغى غـرَّةً فيقطعَ مـن أَمَلِ المـرتجى

وخطورة هذا الشعر المثير للفتنة واضحة ، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتلها فقتلت [1] ولم يكن أبو عفك وعصماء بطبيعة الحال كل شعراء المنافقين المحترفين للشعر ، أو الظاهرين بين الشعراء ، وان كانت الروايات لم تبرز من هذا النوع من الشعراء غيرهما ، ولعل مرد ذلك هو ارتباط أخبارهما بشخص النبى وأمره بقتلهما . .

شعراء اليهود :

ومن المعروف أن اليهود كانوا أخطر أعداء الإسلام منذ بدء الاسلام ولذلك فمن المتوقع أن تظهر هذه العداوة فى الشعر ، سواء من الشعراء اليهود ، أو الشعراء العرب الموالين لهم ، والمتعاطفين معهم ، ثم من الطبعى أن يكون هناك شعر للرد على هذا الشعر .

وقد كان من شعراء اليهود المشهورين كعب بن الأشرف ، رغم أن نسبه الحقيقى فى طىء من الأصل اليمنى ، ولكن أمه كانت من يهود بنى النضير ، ولا يزال اليهود يعدون الأصالة فى اليهودية ترجع إلى الأم ، وليس إلى الأب ، بمعنى أنهم يعدون اليهودى من كانت أمه يهودية ولو كان أبوه غير يهودى ، ولا يعدون الشخص يهوديا إذا

---
(١) سيرة بن هشام ٤-١٥١

كانت أمه غير يهودية ولو كان أبوه يهوديا ، وقد كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود تعصبا ضد الاسلام ، وحرصا على حرب المسلمين ، وقد أصابه الفزع على مستقبل اليهود حينما انتصر المسلمون فى بدر وأحس بما يستقبل المسلمين من مجد وعلو وغلبة ، فرحل إلى مكة يؤلب قريشا ضد المسلمين ، ويعدهم بمؤازرة اليهود لهم ، مثيرا فى نفوسهم الحزن والحقد لمقتل رءوسهم فى بدر ، مظهراً حزنه الشديد على قومهم ، وقد قال فى ذلك شعرا غير قليل منه :[1]

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعدوا إن الملوك تصرع

ثم يقول :

صدقوا فليت الأرض ساعة قُتِّلوا ظلت تسوخ بأهلها وتُصَدَّع

ثم رجع كعب بن الأشرف من مكة إلى المدينة ، وكأنه أعلن الحرب على المسلمين بالشعر ، وكان من أبرز ما عمد إليه حينئذ ايذاء المسلمين فى أعراضهم ، والتشبيب بنسائهم[2] حتى ضاقوا به فأمر النبى بقتله فقتل

وكان مقتل كعب بن الأشرف طعنة تألم لها سائر اليهود ، بوصفه علما من أعلامهم ، فانبرى شعراؤهم يعبرون عن هذا الألم فى صورة وعيد للمسلمين ، أو تمجيد لكعب أو نحو ذلك ، وهذا سماك

(١) سيرة ابن هشام ٣-٥٦٤ ومابعدها

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك٢-١٧٨ وفية شعر تشبيب كعب ببعض نساء المسلمين وانظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٥٣

اليهودى الشاعر يخاطب المسلمين بقوله :[1]

إن تفخروا فهو فخر لكم بمقتل كعب أبى الأشرف
غداة غدوتم على حتفه ولم يأت غدرا ولم يحاف
فإن لا أمت نأتكم بالقنا وكل حُسام معا مُرْهَف
بكف كمىٍّ به يُحْتمى متى يَلْق قرنا له يُتْلف

وقد تلى ذلك إجلاء بنى النضير عن المدينة ، بعضهم إلى خيبر ، وبعضهم إلى الشام حين توالى كيدهم للاسلام والمسلمين ، وآخر الكيد محاولتهم اغتيال النبى صلى الله عليه وسلم بإلقاء حجر كبير عليه من شاهق وهو جالس فى ديارهم يفاوضهم ، ولكن الله أوحى إليه ذلك فانصرف قبل تنفيذ مؤامرتهم ، فيقول سماك اليهودى فى مقتل كعب وإجلاء بنى النضير شعرا كثير منه :

قتلتم سيد الأحبار كعبا وَقِدْماً كان يأمن مَنْ يجير

ومن شعراء اليهود الذين جعلوا من شعرهم سلاحا ضد الاسلام مرحب اليهودى ، الذى كان من شعره هذا الرجز الذى ارتجزه حين كان النبى والمسلمون يحاصرون حصون اليهود فى خيبر ، حيث خرج مرحب بسلاحه يتحدى المسلمين ، ويطلب المبارزة قبل أن يقتله محمد بن مسلمة :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مُجَرَّب

---

(١) سيرة ابن هشام ٣-٦٨٨

أطعن أحيانا وحينا أضرب إذا الليوث أقبلت تحَرَّب [1]

بل إن بعض شعراء اليهود اتخذوا من شعرهم وسيلة للتعبير عن الخيانة فى الأعراض ، والتسلل إلى أزواج المجاهدين ، كهذا الشاعر اليهودى الذى لم تحدد الروايات اسمه ، والذى تسلل إلى زوج الأشعث الأنصارى ، الذى كان غائبا عن المدينة فى إحدى غزوات المسلمين فى عهد عمر ، ومر بكر بن الشداخ بدار صديقه الأشعث ، فسمع هذا الشاعر اليهودى يحادث زوج الأشعث ، ويقول شعرا يسخر فيه من الأشعث ومن الاسلام ومنه :

وأشعث غرَّهُ الإسلام حتى خلوت بعرْسه ليل التمام

فقتله بكر وألقى به ، فناشد عمر المسلمين من فوق المنبر أن يدلوه على قاتل هذا اليهودى ، فقام قاتله فاعترف ، وقص ما حدث فأهدر عمر دم الشاعر اليهودى [2] ولكن بعض الشعراء العرب كانوا متعاطفين مع اليهود ، فأظهروا أسفهم على هزيمة اليهود ، ونيل المسلمين منهم ، ومن هؤلاء المتعاطفن معهم العباس بن مرداس السلمى ، الذى تغنى بشعر قبل إسلامه يبدى فيه إعجابه برجال بنى النضير ونسائهم مظهرا حزنه عليهم ومنه :

لو ان أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدهر ملهى وملعبا

عليهن عينٌ من ظباء تبالة أوانِس يصبين الحليم المجربا

(١) سيرة ابن هشام ٣-٧٩٦

(٢) الأصابة فى تمييز الصحابه لابن حجر العسقلانى ١-٥١

إذا جاء باغى الخير قلن فجاءة	له بوجوه كالدنانير : مرحبا

ولذلك يجيبه خوات بن جبير الأنصارى منكرا بشعر منه : [1]

تُبَكّى على قتلى يهود ، وقد ترى	من الشجو لو تبكى أحب وأقربا

ومن الشعراء المتعاطفين مع اليهود عبد الله بن الزبعرى القرشى ، الذى يظهر حزنه على قتلى اليهود يوم الخندق ، ممجدا صمودهم للمسلمين فى حصونهم ، فى شعر منه : [2]

حَىٍّ الديار محا معارف رسمها	طول البلى وتراوح الأحقاب

فكأنما كتب اليهود رسومها	إلا الكنيف ومقعد الأطناب

شهرا وعشرا قاهرين محمداً	وصحابه فى الحرب خير صحاب

ومن هؤلاء الشعراء جبل بين جوال الثعلبى ، الذى بكى بشعره أئمة اليهود من بنى النضير وبنى قريظة ، فيعدد فى حزنه ورثائه كثيرا من زعماء اليهود ، ومن ذلك : [3]

وأقفرت البويرة من سلام	وَسَعْيَة وابنِ أخطب فهى بور

وكل الكاهنين وكان فيهم	مع اللين الخضارمة الصقور

شعراء الشرك :

ونعنى بهم الشعراء الذين أدركوا الإسلام ولم يسلموا ، وهؤلاء لا يعدون فى حقيقة الأمر من المخضرمين بالمقياس الذى سبق الحديث

(1) سيرة ابن هشام ٣-٦٩٠

(2) المصدر السابق ٣-٧٣٥

(3) المصدر السابق ٣-٧٤٥

عنه ، وإن كانوا مخضرمين من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الزمنية ، فقد أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولكنهم ظلوا من حيث الدين على جاهليتهم ، ومع ذلك فقد كانوا من عوامل ثراء الأدب والإنتاج الشعرى من جانبين ، أحدهما الشعر الذى قاله كثير منهم ضد الاسلام والمسلمين ، والجانب الآخر الشعر الذى قاله الشعراء المسلمون رداً على شعرهم ، فمنذ دعا النبى شعراء المسلمين إلى أن يدافعوا عن المسلمين التزموا أن يردوا على كل شعر يوجه إليهم ، ولذلك نجد كتب الأخبار تقرن كل شعر قيل ضد الاسلام بالشعر الذى دافع به شعراء المسلمين ، وفى كل حال لسنا نسوق حديثهم على أنهم مخضرمون وإنما على أن شعرهم كان من العوامل الأساسية فى شعر المخضرمين الدينى ، فلو رجعنا إلى كتب الأخبار لوجدنا أن شعر المخضرمين ، وبخاصة الشعر الدينى ، أعنى الشعر المتعلق بالاسلام بصفته دينا ، أو بالمسلمين باعتبارهم الكيان المجسم لهذا الدين ، لو رجعنا إلى هذا الشعر لوجدناه فى كثير من الأحيان ردا على شعر قيل ضد المسلمين وإن كانت الروايات تتحرج أن تسوق من هذا الشعر ما يحمل معانى فيها مساس شديد بالاسلام ، ولذلك نجد ابن هشام فى سيرته كثيرا ما يقول عن قصائد من هذا النوع ، تركنا منها أبياتا أقذع الشاعر فيها ، وذلك بعد أن يسوق من هذا الشعر ما تسوغه نفوس المسلمين.

وشعراء المشركين الذين لم يسلموا نوعان

١ – أحدهما نوع من الشعراء أدرك الاسلام ، فلم يسلم ، ولكنه

لم يشهر شعره ضد الإسلام ، ومن هؤلاء قيس بن الخطيم شاعر الأوس فى الجاهلية ، وقد وفد على النبى فى مكة ، ودعاه النبى إلى الإسلام ، فأمهمله إلى عام قادم ، ولكنه مات قبل الحول ، فلم يقل شعرا ضد الاسلام ، سواء قبل لقائه بالنبى أو بعده [1] ومنهم الأعشى ميمون بن قيس القيسى ، الذى وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فى عام الحديبية ليسلم ، ولكن قريشا خشيت أن يؤازر النبى بشعره فأغرته بمائة ناقة على أن يرجع عامه هذا ثم يعود فى العام المقبل ، فرضى الأعشى ورجع ، فلما كان ببعض أنحاء اليمامة نفر به بعيره فألقاه فقتله [2] فلم يقل شعرا ضد الإسلام ، بل يروى أنه كان قد أعد قصيدة يمدح بها النبى عند لقائه ، وهى القصيدة أولها : [3]

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبتّ كما بات السليم مُسَهّدا

ومنها يقول عن ناقته :

وآليت لا أرثى لها من كلالـة ولا من حفًى حتى تلاقى محمدا

٢ - والنوع الثانى هم الشعراء الذين أدركوا الإسلام ، فلم يكتفوا باصرارهم على الكفر به ، وإنما حاربوه بشعرهم ، واتخذوا من هذا الشعر سلاحا قويا ضد الإسلام ، ومن هؤلاء أبو عزة الجمحى القرشى

(١) انظر الأغانى للاصفهانى ٣-١ ومابعدها طبع وزارة الثقافة والارشاد(تراثنا)
(٢) الشعر الشعراء لابن قتيبة ١-٢٥٧
(٣) سيرة ابن هشام ١-٢٥٩ ومابعدها

الذى أسره المسلمون يوم بدر ، فاستعطف النبى أن يعفو عنه ، شاكيا فقره وحاجته ، معاهدا إياه ألا يقول شعرا ضده بعد ذلك ، فرحمه النبى وخلى سبيله ، فعاد بعد حين يهاجم الرسول والمسلمين بشعره ، وإذا هو أسير المسلمين فى أحد ، وإذا هو يعيد استعطافه للنبى ، ولكن النبى يقول له : لا تمسح عارضيك بمكة ، تقول : خدعت محمدا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر بقتله فقتل [1]

ومن هؤلاء أمية بن أبى الصلت الثقفى ، الذى كان فى الجاهلية من أبرز القلة التى تحدثت عن الدين من الشعراء ، فلما جاء الإسلام أبى أن يسلم ، بل استخدم شعره سلاحا ضد الدين والمسلمين ، وقد نهى النبى عن رواية بعض شعره فى رثاء قتلى بدر من المشركين [2] وله أشعار أخرى كثيرة تنقلها كتب الأخبار فيها مساس بالإسلام ، حتى ان ابن هشام يتحرج من رواية بعض أبيات هذه القصائد لأن فيها نيلا من أصحاب النبى [3]

ومنهم هبيرة بن أبى وهب المخزومى القرشى ، الذى لام امرأته أم هانىء بنت أبى طالب على إسلامها بشعره ، وكان من أشهر الشعراء الذين ناصبوا الاسلام العداء بشعرهم حتى مات كافرا [4] ومنهم حماس ابن قيس البكرى الذى كان من الفارين يوم فتح مكة من جند

---

(١) العمدة لابن رشيق ١-٦١
(٢) تاريخ الادب العربى كارل بركلمان ١-١١٣
(٣) سيرة ابن هشام ١-٢-٥٥
(٤) سيرة ابن هشام ٤-٨٧٦

المسلمين ، والذى لامته زوجه على فراره فاعتذر إليها بشعر منه :[1]

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة
وابو يزيد قائم كالمائمة واستقبلتهم السيوف المسلمة
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة

ومنهم كنانة بن عبد يا ليل الثقفى وكان يرد على شعراء المسلمين مفتخرا ومتوعدا بشعر يبدو فيه الاعتزاز بقوة قومه[2] ومنهم مسافع بن عبد مناف الذى كان معدودا من أشهر شعراء قريش الذين عرفوا بالتصدى للمسلمين[3]

المنتكسون الى الشرك :

وبعض الشعراء نكسوا على رءوسهم ، فأغمضوا أعينهم عن نور الإسلام بعد أن رأوه ، ومما لا شك فيه أن هؤلاء لم يسمحوا للإيمان أن يصل إلى قلوبهم ، وإنما أسلم بعضهم لغرض خاص يهدف إليه كما سنرى ، وأسلم البعض الآخر لا رغبة فى الإيمان ، ولا اقتناعا ويقينا وإنما وجد الناس جميعا مندفعين إلى الاسلام فاندفع معهم ، أو وجد الإسلام قويا ظاهرا منتصرا فأراد ألا يفوته شرف الانضمام تحت لوائه ، وفى كلا الحالين لا يكون مثل هذا الشخص مؤمنا إيمان اليقين أو الاتجاه الصادق إلى الله ، ونستطيع التمييز بين نوعين مختلفين اختلافا كبيرا من هؤلاء الشعراء .

(١) تاريخ الطبرى ٢-٢٣٥. سيرة ابن هشام ٤-٨٦٦
(٢) سيرة ابن هشام ٤-٩١٩
(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى ٣-٢٧٠

١ - أحدهما نوع ارتد عن الإسلام وظل على الشرك حتى مات وهو ما نعنى أنه من الذين لم يؤمنوا عن رغبة فى الايمان لذاته ، وإنما لظروف خاصة ، وهذا النوع قليل العدد ، ولا نكاد نعلم منه أكثر شاعرين ، أحدهما مقيس بن صُبابة الذى كان إسلامه مجرد خدعة يريد أن يخدع بها الأنصار حتى يأخذ منهم بثأر أخيه ، فقدم من مكة إلى المدينة مظهراً إسلامه ، عارضا على النبى قضية أخيه الذى قتله بعض بنى النجار خطأ ، فأعطاه النبى دية أخيه ، ومع ذلك فقد عدا مقيس بن صبابة على قاتل أخيه فقتله غدرا ، ثم رجع إلى مكة مرتدا عن الإسلام فى ظاهر الأمر ، أو مظهرا حقيقته فى واقع الأمر ، ومما قاله عن قتل قاتل أخيه :

حللت به وترى وأدركت ثؤرتى | وكنتُ إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به قهرا وحَمَّلت عقله | سراة بنى النجار أرباب فارع[1]

والآخر ابو بكر بن الأسود الذى أوجعه قتل زعماء قريش فى بدر ، فقال بعد ردته عن الإسلام شعرا يرثيهم ويتفجع على قتلهم ، منكرا ما فى الاسلام من حديث عن البعث ، ومن ذلك قوله :

تُحَيَّا بالسلامة أم بكـــر | وهل لى بعد قومى من سلام ؟
فمـــاذا بالقليب قليب بـــدر | من القينات والشَّرب الكرام
يخبرنا الرسول لسوف نحيا | وكيف لقاء أصداء وهام[2] ؟

(١) تاريخ الطبرى ٢ - ٢٦٣ والعقل الدية ، وفارع اسم امرأة من الأنصار ينسب إليها بنو النجار بالتصغير فيقال بنو الفريعة

(٢) سيرة ابن هشام ٢ - ٥٥٠

٢ - والنوع الآخر هم الذين ارتدوا من الشعراء عن الإسلام فيمن ارتد من العرب ثم عادوا إليه ، وهؤلاء كانوا كغيرهم من عامة العرب الذين اسلموا عن مجرد السماع ، أعنى أن الإسلام وصل إليهم فى البوادى فى أول أمر الإسلام مجرد روايات وأخبار عن الإسلام والمسلمين ، بالإضافة إلى ما فى طبيعة البدوى من جفوة وضعف اعتماد على الروحانية والمشاعر ، فهؤلاء لم يدخل أغلبهم الإسلام إلا حينما رأوه قويا ظافرا مكتسحا لأعدائه ، فكان اندفاعهم وراء القوة والنصر أوضح من اندفاعهم إلى الإيمان نفسه ، والقرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)[٣] فقد قرن القرآن دخول الأفواج من الناس فى الدين بمجىء نصر الله والفتح ، وليس بظهور الحق أو نحو ذلك ، وفى هذا أيضاً إشارة إلى التدين الجماعى ضمن الأفواج ، والتدين الفردى العميق المؤمن ، وإذن فهؤلاء الشعراء كانوا كغيرهم من عامة الناس ، آمنوا حينما رأوا الإسلام ظافرا منتصرا ، فلما رأوا عامة الناس أيضا بدأوا ينفضون عنه فى ردة العرب انفضوا كغيرهم ، ولكن الذى يعنينا حينئذ هم الشعراء الذين قالوا شعرا ضد الإسلام والمسلمين فى مدة ردتهم ، وهم عدد غير قليل ، منهم الخطيئة الذى ارتد مع المرتدين ،

---

(١) سورة النصر

ثم عاد إلى الإسلام ، ولكن عقيدته كانت موضع شك ، ومما قال من شعر ضد المسلمين خلال ردته إنكاره خلافة أبي بكر حيث يقول[1]

أطعنا رسول الله إذ كان حاضرا فيا لهفتى ما بال دين أبي بكر ؟

أيورثها بكرا إذا مات بعــده فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

ومنهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى الذى قال شعرا فى ردته ضد المسلمين ، ومن ذلك إنكاره ولاية فروة بن مسيك الذى ولاه النبى على قبائل من اليمن منها زبيد يقول عمرو حينئذ[2]

وجدنا ملك فروة شر ملك حمارا ساف منخره بثفــر

ومنهم ابو شجرة السلمى الذى قال شعرا فى قتاله المسلمين اثناء الردة[3]

ومن المعروف أن أهل مكة والمدينة ثبتوا على إسلامهم فلم يرتدوا مع العرب ، ولذلك لن نجد فى هذا النوع من الشعراء المرتدين بعد وفاة النبى أحدا من أهل مكة والمدينة ، والذين سبق ذكرهم الآن كذلك ، فالحطيئة عبسى ، ومهما تنقل بنسبه فى القبائل كما حدث ، فإنه لم يدع انتسابه إلى أحد فى مكة والمدينة ، وعمرو بن معد يكرب من زبيد اليمنية ، وابو شجرة من بنى سليم فيما يلى مكة والطائف من البادية .

---

(١) خزانة البغدادى ٢-٤٠٨

(٢) سيرة ابن هشام ٤-١٠٠٥

(٣) الكامل للمبرد ١-٢٢٩

المنتكسون فى الايمان :

ونعنى بهم الشعراء الذين لم يكن انتكاسهم من الايمان إلى الشرك وإنما كان انتكاسهم ضعفا فى إيمانهم بينما كان ينتظر منهم صدق الايمان ، وقوة اليقين ، ونعنى بما ينتظر منهم أنهم كانوا فى موضع من الإسلام يمنح صاحبه عادة التقدم والعلوفى التدين ، ولكنهم بدل أن يتقدموا تقهقروا ، وبدل أن يرتفعوا هووا بأنفسهم درجات غير صغيرة فى النزول .

ومن أشهر هؤلاء الذين هبطوا بأنفسهم فى الدين حسان بن ثابت فقد أتيحت له فى الاسلام مزايا لم تتح لشاعر غيره قط . يكفى أن يكون منها تملكه أعظم لقب لشاعر ، وهو شاعر الاسلام أو شاعر الرسول ، بالاضافة إلى كونه أقرب الشعراء مكانا من النبى ، وكونه من أخوال النبى [1] ومع ذلك فقد نزل حسان بنفسه من هذه القمة حتى أوشك أن يدنو من الحضيض ، وقد كبا كبوتين كانتا بالقياس إلى من هو فى منزلته قاتلتين ، إحداهما كانت من أفحش الكبائر ، وهى خوضه فى عرض عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فيما سماه القرآن بالإفك ، وقد جلد حسان من أجل ذلك حد القذف ، بعد أن أظهر القرآن براءة عائشة [2] والكبوة الثانية وإن كانت دون الأولى بكثير ، إلا أنها تدل على عدم العمق الدينى الملائم لمثل حسان ، وهى اعلان سخطه على عطاء النبى

(١) هم أخوال عبد الله والد النبى
(٢) سيرة ابن هشام ٣-٣٦٩

صلى الله عليه وسلم للأنصار من الغنائم يوم حنين ، ونقول إعلان السخط ، لأن كثيرا من الأنصار حينئذ راودهم هذا الشعور ، ولكنهم لم يعلنوا ذلك وان كان قد تحدث به بعضهم إلى بعض حتى أقنعهم النبي بما يهدف إليه ، فى خطبته المشهورة ، والفرق كبير بين مجرد خواطر النفس ، والحديث الخاص وبين الاعلان باللسان والشعر ، وبخاصة فى وقت يمكن أن يكون هذا الاعلان مصدر فتنة ، كما حدث فعلا حينئذ ، حين قال حسان شعرا غير قليل يعاتب فيه النبي عتابا لا يخلو من شعور بالمرارة ، ومنه :

دع عنك شماء إذ كانت مودتها نزراً وشر وصال الواصل النزر

وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن للمؤمنين إذا ما عُـدد البشر

عـلام تدعى سليم وهَى نازحة قدام قوم هم آووا وهم نصروا

فما ونينا وما خمنا وما خبروا منا عثارا وكل الناس قد عثروا

وأوضح ما يشف عن نفسية حسان وألمه فى هذا الشعر حديثه فى الغزل ، فقوله (دع عنك شماء إذ كانت مودتها نزرا . .) ينبىء عن مدى إحساس حسان بالمرارة من حرمانهم من العطاء ، وكان النبي يومئذ قد قسم الغنائم مستهدفا تأليف القلوب ، فكان المحدثون فى الاسلام والمؤلفة قلوبهم أكثر الناس عطاء ، وكان أقلهم من وثق النبي من إيمانهم ، ومن شدة ثقته فى إيمان الأنصار لم يعطهم شيئا كبيرا ، فاستغل المنافقون والشباب الذين لم يفقهوا حكمة الرسول هذا الوضع فأخذوا يوغرون صدور الأنصار ، حتى خطب فيهم النبي خطبته

البالغة التأثير والعمق النفسى ، فاخضلت لحاهم بالدموع ندما وتأثيرا[١] .

ومن هؤلاء الذين هبطوا بأنفسهم من حيث كانوا يستطيعون العلو فى الدين العباس بن مرداس السلمى ، الذى كان من أبرز شعراء بنى سليم وفرسانهم ، وقد قال قصائد يعتز فيها باشتراك ألف مقاتل من قبيلته مع النبى فى فتح مكة والطائف[٣] ورغم أن معظم شعره ينصب على الفخر بقومه ، إلا أنه فى جملته شعر إسلامى كان يمكن أن يسمو بمنزلة العباس بين المسلمين ، ولكنه بدل ذلك وقف موقفين كانا ضد رغبة النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن الطبعى أن ينزلا به فى تدينه ، وفى أعين المسلمين ، وأحد هذين الموقفين رفضه رغبة النبى فى أن ترد إلى بنى سعد بن بكر من هوازن سباياهم من النساء والأبناء حين جاءه وفد هوازن بعد انتصار المسلمين فى حنين على هوازن وتقسيمهم الغنائم ، وفى الوفد زهير أبو صرد يقول عن بنى سعد الذين تربى فيهم النبى رضيعا : يا رسول الله إنما فى السبايا عماتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك ، ولو أنا ما لحنا الحارث بن أبى شمر ، أو النعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين ، يعنى لو أن أميرا من آل غسان أو آل المنذر كفلناه رضيعا ، ثم رأى

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ – ٩٣٣ وما بعدها

(٢) انظر المصدر السابق ٤–٩٠٧ وفية ثمانى قصائد للعباس

ما نحن فيه اليوم من هزيمة وسبى لعطف علينا ، فكيف بك وأنت خير الناس ؟ فخيرهم النبى بين أن يرد إليهم نساءهم وأبناءهم ، وبين أن يرد إليهم أموالهم ، فاختاروا رد النساء والأبناء ، فقال لهم النبى أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموافقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، ففعلوا ، فقال النبى أماما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وقال المهاجرون والأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله . ولكن العباس بن مرداس كان من الرافضين ، حيث قال : أما أنا وبنو سليم فلا ، وإذا بنو سليم يستنكرون ذلك من العباس ، معلنين أن ما كان لهم من نصيب الغنائم فهو لرسول الله ، فاستخزى العباس قائلا لقومه : وهّنتمونى [1] .

وأما الموقف الثانى مما خالف فيه العباس رغبة النبى صلى الله عليه وسلم فهو سخطه على نصيبه من العطاء الذى أعطاه إياه النبى ، وكان النبى قد تألف قلوب بعض رؤساء القبائل والأحياء يوم حنين ، فأعطاهم أعطيات كبيرة ، ومنهم عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس أعطى كلا منها مائة ناقة ، ثم أعطى العباس بن مرداس عددا قليلا من الإبل ، فغضب العباس ، وقال شعرا يعاتب فيه النبى على أن جعل عطاءه وعطاء فرسه العبيد دون هذين الزعيمين . يقول من هذا الشعر .

فأصبح نهبى ونهب العبيـد بيـــــن عيينـة والأقرع

(١) سيرة ابن هشام ٤–٩٢٥ ومابعدها والأغانى للاصفهانى ١٨ – ٧٥

وما كان حصن ولا حابس يفوقـــان مرداس فى مجمع

فقال النبى : اقطعوا عنى لسانه ، فمضى به على بن أبى طالب ، فظن العباس أنه سينفذ فيه ذلك ، فقال لعلى : أقاطع أنت لسانى ؟ قال على مداعبا : إنى لمنفذ فيك ما أمر رسول الله ، ثم مضى به فأعطاه من الإبل حتى طابت نفسه ، ولكن النبى لم ينس له هذا القول ، فقد قال له حينما لقيه : أنت القائل (فأصبح نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة ؟) [1] .

---

(١) خزانة البغدادى ١-١٥٢ وشرح حماسة أبى تمام ١-١٦٦

الانحراف فى السلوك

والمراد بهذا الجانب كل ما سوى العقيدة فيما يصدر من الشخص سواء أكان سلوكا نابعا من تعود كشرب الخمر ، أم نابعا من خلق وصفة نفسية ، كالكذب والخيانة . والشعراء المخضرمون بحكم كونهم عاصروا أزهى فترة دينية عرفها التاريخ ، كان ينتظر منهم أن يتأثروا بهذا الإشراق الدينى الذى استجابت له الجزيرة العربية حينئذ وبخاصة فى السلوك ، بمعنى أن الأفراد مهما تفاوتت معلوماتهم عن الدين وتشريعه وتفصيله ، ومهما تفاوت عمق الإيمان فى نفوسهم ، فإنهم جميعا التزموا فى سلوكهم حينئذ شريعة الاسلام ، ومن يشذ منهم على هذا الوضع كان يلقى من النكير واللوم والنبذ أشد مما يلقاه من العقوبة المحددة فى التشريع إن كانت هناك عقوبة محددة ، ولابد اذن أن يكون الشاذون فى مثل هذا المجتمع قلة قليلة ، ولكن الشعراء فيما تحدثنا به الروايات لم يكونوا كذلك ، فإننا إذا نظرنا إليهم بوصفهم طائفة أو جماعة ، نجد أنهم يعكسون وضع المجتمع ، فبينما الكثرة المطلقة فى المجتمع تلتزم فى سلوكها شريعة الاسلام ومنهجه ، ولا يشذ عن ذلك إلا النادر أو القلة القليلة ، نجد الشعراء معظمهم يجانب فى سلوكه طريق الاسلام ، ولا يلتزم طريق الاسلام فى كل

سلوكه إلا قلة قليلة سيأتى الحديث عنها ، حتى إن الذين تصفهم الروايات باستقامة المسلك فى كل جوانبه ، نفر معدودون ، لا يتجاوزون بضعة شعراء ، أما الباقون جميعا ، فما منهم إلا وله انحراف أو كبوة كبيرة .

ونستطيع أن نلم بجوانب من انحرافات الشعراء المخضرمين فيما يأتى :

الخمر :

تحريم الخمر فى الإسلام صريح وحاسم ، وله حد تمثله معاقبة الشارب بجلده ثمانين جلدة ، وقد استجاب المسلمون حينئذ ، حواضرهم وبواديهم لذلك ، فامتنعوا عن شرب الخمر ، ولو تصورنا أفرادا شذوا عن ذلك ، فمن المؤكد أنهم كانوا يستخفون ، أو يحاولون الاستخفاء بذلك ، حتى لا يظهر عليهم أحد ، فيلقون من الإنكار عليهم ، والنفور منهم ما هو أشد من الجلد ، ولكن الشاربين من الشعراء ، أو كثيرا منهم لم يستخفوا بذلك ، بل أعلنوه إعلانا ، وتحدثوا به فى شعرهم صراحة دون التواء .. غير أن الملحوظ أن هؤلاء جميعا لم يكن أحد منهم من مكة أو المدينة وإنما كانوا من شعراء القبائل فى البادية ، أو الحواضر الصغيرة ، أو الذين سكنوا المدن التى ضمت إلى الاسلام بعد الفتوحات ، فى العراق والشام .

ومن أشهر الذين عرفوا بالولوع بشرب الخمر من الشعراء المخضرمين **أبو محجن الثقفى** ، الذى كان من أبرز فرسان العرب

وشجعانهم ، وصدق بلائه يوم القادسية مشهور ،ولكنه لم يستطع أن أن يتخلى عن إلفه للخمر فى الجاهلية ، فظل يعاقرها رغم أن عمر أقام عليه الحد فيها مرارا ، وحين جلد ذات مرة أنشأ يقول شعرا منه قوله :

وإنى لذو صبرٍ وقد مات إخوتى ولست عن الصبهاء يوما بصابر

ومع أن الرواة يحملون هذا المعنى على إصرار أبى محجن على شرب الخمر ، إلا أننا لو تأملناه لوجدنا أنه أقرب إلى الاعتذار منه إلى التحدى ، بمعنى أنه لا يريد أن يعلن إصراره على الخمر ، وإنما يريد أن يعلن عجزه عن مقامة الإدمان والإلف ، وأن يشير إلى لوم نفسه على هذا العجز ، مع أنه تعود من نفسه الصبر والجلد ، والواقع يؤيد هذه الحقيقة التى يستخرجها ابو محجن من أعماق نفسه ، فقد كان فارسا يثير إعجاب الناس بقوته وشدة بأسه ، ولكنه ضعف عن حمل نفسه على ترك الخمر ، وتحمل فى سبيل ذلك ما صب على نفسه من لوم المسلمين وإنكارهم ، وعلى جسده من أليم الجلد وموجعه ، وقد اجتمع الأمران ، قوته بوصفه فارسا ، وضعفه بوصفه شاربا يوم القادسية حيث حبسه القائد سعد بن أبى وقاص حينئذ لشربه الخمر ، انتظارا للرأى فى إقامة الحد عليه ، ومع هذا الهوان والضعف الذى وضعت الخمر فيه أبا محجن ، فإنه وقف موقفا تاريخيا باعتباره فارسا مقاتلا ، فقد أحس وهو فى محبسه أن المسلمين فى موقف صعب حرج فى قتال العدو ، فاحتال ابو محجن حتى فكت عنه قيوده ، وامتطى فرس سعد

ابن أبي وقاص وسلاحه ، واندفع فى صفوف الاعداء كالعاصفة ، حتى كان من أسباب نصر المسلمين يومئذ ، وحين أطلقه سعد وعفا عنه ، أقسم ألا يذوق الخمر بعدها أبدا ، وكأنه قدر أن عقابه بالجلد كان يكفر عنه ذنبه ، وهو قد يطيق الجلد ، ولكنه لا يطيق عذاب الآخرة ، ومن مشهور شعره فى الخمر قوله (١)

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

ومن هؤلاء المشهورين بالخمر قيس بن عمرو الحارثى الملقب بالنجاشى ، والذى بلغ من استهتاره ومجونه أنه كان يعكف على الخمر مع بعض خلانه فى شهر الصوم ، متحديا بذلك مشاعر المسلمين فى الكوفة ومن بينهم على كرم الله وجهه ، وقد جاءوا به ذات يوم شاربا فى رمضان ، فجلده على بن أبى طالب حد الشرب ، ثم زاده عشرين سوطا ، فقال : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ قال : لجرأتك على الله ، فهجا أهل الكوفة هجاء مرا موجعا ، وسخر من الجلد داعيا عليهم بمثل قوله :

ضربونى ثم قالوا قدر قدّر الله لهم شر القدر (٢)

ومن المشهورين بالخمر فى المخضرمين المغيرة بن الأسود الأسدى

---

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٤٢٣ والأغانى ١٠ -١ ومابعدها . والكرمة العنب

(٢) انظر خزانة البغدادى ٤ - ٧٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٣٢٩ والعمدة لابن رشيق ١-٧٦

المعروف بالأقيشر ، وكان مشهورا بالمجون والاستهتار ، لا يستخفى بمجونه وفسوقه وإدمانه الشراب ، وهو يتحدث عن استنزاف الخمر لما له ، واصفا مجلس شرابه ، تمثل قوله :

أفنى تلادى وما جَمَّعتُ من نشبٍ   قرع القواقيز أفواه الأباريق [1]
كأنهن وأيـدى القوم مُعْمَلة   إذا تلألأن فى أيدى الغرانيق
بنات ماء معاً بيض جناجنهـا   حمر مناقرها صفر الحماليق [2]

وينقل البغدادى من أوصافه (وكان كوفيا خليعا ، ماجنا ، فاسقا ، فاجرا ، مدمن خمر ، قبيح المنظر) [3]

ومنهم النعمان بن عدى ، الذى كان من السابقين فى الإسلام ممن كان فى مهاجرى الحبشة مع أبيه ، ثم ولاه عمر على ميسان من نواحى البصرة ، فقال فى الخمر شعرا منه :

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى   ولا تسقنى بالأصـغر المتثلم
لعـل أمـير المؤمنين يسوءه   تنادمنا فى الجوسق المتهدم

فلما سمع هذا عمر قال : نعم والله ، إن ذلك ليسوؤنى ، ثم عزله فقدم النعمان إلى عمر معتذرا يقول : والله يا أمير المؤمنين ما صنعت

---

(١) التلاد المال القديم ، النشب الضياع والقواقيز والاباريق أوانى الشرب

(٢) الغرانيق جمع غرنوق الشاب الوسيم ؛ وبنات الماء نوع من الطيور والجناحن الصدور الحماليق ما تحت الجفون

(٣) انظر خزانة البغدادى ٤-٤٨٧ والشعر لابن قتيبة ٢-٥٦٢

شيئا مما بلغك أنى قلته ، ولكنى كنت امرءا شاعرا ، فخضت فيما يخوض فيه الشعراء ، فأبى عمر أن يستجيب له ، أو أن يقتنع بما قال ، وأقسم ألا يجعله على عمل ما عاش [1] .

جوانب خلقية :

وقد كان أغلب الشعراء المخضرمين يتميز بجانب أو جوانب فى خلقه وسلوكه ، بحيث يبدو بهذا الجانب شاذا على التشريع الدينى ، أو العرف السائد الذى يقره المجتمع فى صورة الرضا عنه ، لموافقته للعادات والتقاليد ، وقد تكون بعض هذه الأمور المخالفة للعرف غير متعارضة تعارضا صريحا مع الدين ، كما كان يفعل المغيرة بن شعبة الثقفى ، الذى تزوج أكثر من ثمانين امرأة ، وقال : ما أمسكت امرأة منهن على حب ، فزواج أى عدد من النساء لا يمنعه الدين طالما كانت الممسكات فى العصمة لا يتجاوزن أربعا مجتمعات ، ولكن هذا المسلك من المغيرة غير مألوف فى المجتمع ، ولذلك أحاطت بالمغيرة الشبهات والأقاويل ، مما يدل على روح السخط أو الانكار من المجتمع نحو المغيرة ، رغم أنه كان يتمتع بشخصية فذة يشهد لها الجميع بالذكاء النادر ، ولم ينازع أحد فى أنه أحد أفراد قلائل يوصفون بأنهم دهاة العرب ، على رأسهم هو ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣-٢٨٤

ويمكن أن نعرض نماذج من جوانب الانحرافات الخلقية للشعراء المخضرمين فى إيجاز ، كما يلى

الغزل المنحرف :

سواء أكان انحرافا دينيا ، وهو ما يصاحبه عمل محرم ، أو كان انحرافا اجتماعيا ، وهو ما كان مخالفا للعرف ، ولمشاعر المجتمع .

ومن أشهر الخائضين فى هذا الغزل المنحرف سحيم عبد بنى الحسحاس ، الذى كان من أجود الشعراء شعرا ، رغم لكنته الأعجمية حيث كان من أصل افريقى نوبى ، ومن آثار هذه اللكنة أنه كان حين يعجب بشعره يقول : أهشنت والله ، يريد : أحسنت والله وكان قد اشتراه أحد عمال عثمان ليرسله إليه ، وكتب إليه أنه اشترى له غلاما حبشيا يقول الشعر ، فكتب إليه عثمان (لا حاجة لى إليه فاردده ، فإنما حظ أهل العبد الشاعر منه ، إن شبع أن يشبب بنسائهم ، وإن جاع أن يهجوهم) فرده فاشتراه بنو الحسحاس ؛ فكان كما قال عثمان ، فما إن شبع حتى أخذ يتغزل فى نسائهم غزلا فاحشا فاجرا ، أدى به وبهم إلى أن يحرقوه بالنار حتى مات ، وكان عمر قد حذره من تماديه فى فحش الغزل حين سمع قوله :

توسدنى كفًّا وتثنى بمعصم عَلَىَّ وتحوى رجلها من ورائيا

فقال له عمر : ويلك إنك مقتول ، ولكنه أخذ يتمادى فى استفزاز مواليه فى أعراضهم بمثل قوله .

ولقد تحَدَّر من جبين فتاتكم عَرَق على مَتْن الفراش وطيبُ

حتى بلغ بمواليه الغيظ. أن حفروا له أخدودا ملأوه نارا فوق سحيم ، ولكنه أراد أن يزيدهم غيظا قبل أن يموت ، فقال لهم : ما فيكم امرأة إلا قد أصبتها ، إلا فلانة ، فإني على موعد منها (١)

ومنهم حميد بن ثور الهلالى ، الذى لم تمنعه رهبة عمر ، ولا وعيده للشعراء أن يجلدمن يتعرض منهم بشعره لأى امرأة ، فراح حميد يقول غزلا متحديا وعيد عمر ، ومنه :

نأت أم عمرو فالفؤاد مشوق ... يحن إليها والهاً ويتــوق
أبى الله إلا أن سرحة مالك ... على كل أفنان العضاة تروق (٢)
فهل أنا إن عللت نفسى بسَرْحة ... من السَّرح موجود علَّى طريق؟

فالشاعر يستنكر أن يؤاخذه الناس حين يمتع نفسه بسرحة يريد بها امرأة حددها بالانتساب إلى مالك (٢) .

ومنهم المخبَّلُ السعدى التميمى ، الذى نال بغزله بعض الحرائر ظلما وبهتانا ، وهذه قصته مع خليدة بنت أخت الزبرقان بن بدر ، التى نال عرضها ظالما فى غزله بها – زمن شبابه ، فمر بها وهو شيخ ضعيف البصر ، فأكرمته وأهدت إليه جارية ، فطلب أن تعرفه

---

(١) انظر الأغانى للاصفهانى ٢٢–٣٠٣ ومابعدها خزانة البغدادى ٢–١٠٢ والشعراء لابن قتيبة ١ – ٤٠٨

(٢) السرحة الشجرة ويكنى بها عن مراة والعضاة الشجرة الكبيرة وتروق أى تتفوق فى جمالها .

(٣) المعنى يتساءل : الشاعر : هل اذا متعت نفسى بواحدة منهن على مؤخذه ؟ (٢ الأغانى للاصفهانى ٤–٣٥٦ (طبعة مصورة عن دار الكتب) والشعر لابن قتيبة ١–٣٩٠ والكامل للمبرد ٢–٨٥ وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ٢–٣٤٠

نفسها ليشكرها ، فلما استحلفها قالت : أنا بعض من هتكت بشعرك ظالما ، أنا خليدة بنت بدر ، قال المخبل (واسوأتاه منك ، فإنى استغفر الله ، وأستقيلك ، وأعتذر إليك) ثم قال[1] :

لقد ضل حلمى فى خليدة إننى سأعتب نفسى بعدها وأموت

فأقسم بالرحمن أنى ظلمتهـا وجرت عليها والهجاء كذوب

ومن هؤلاء الشعراء من المخضرمين حنظلة بن الشّرَق المشهور بأبى الطمحان القينى ، الذى يوصف بمساوىء كثيرة فى دينه وخلقه وقد سئل عن أصغر ذنوبه ، فحكى لهم قصته مع راهبة آوته فى ديرها فأكرمته ، ولكنه سطا على عرضها ومالها ثم انصرف[2] هذا بالإضافة إلى أنه كان من اللصوص وقطاع الطريق[3] .

ومن هذا النوع المغيرة بن شعبة الثقفى ، ابن أخى عروة بن مسعود الثقفى ، أحد الرجلين اللذين أشار إليهما القرآن فى قوله تعالى « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » والآخر الوليد بن المغيرة . وكان المغيرة بن شعبة بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من مخالفته للعرف فى زواجه بأكثر من ثمانين امرأة ، كان مريبا فى سلوكه ، وقد شهد عليه أربعة من المسلمين فى الكوفة بأنه زنا بأم جميل بنت عمر ، ولكن شهادتهم لم تكن كاملة ، لأن

---

(١) انظر الأغانى للأصفهانى ١٣-١٩٦

(٢) المصدر السابق ١٣-٧ وابن قتيبة ١-٤٨٨

(٣) انظر شعر الصعاليك منهجه وخصائصه للؤلف

الشروط التى يضعها التشريع لثبوت شهادة الزنا لا يمكن عمليا أن تتحقق ، ولذلك قال المغيرة لأحد الشهود : والله لو كنت بين بطنى وبطنها ما رأيت أين سلك ذكرى منها ، ومن المعروف أن الشريعة تتمسك بأنه لابد فى الشهادة المقبولة من إثبات رؤية التقاء عضوى التناسل التقاء كاملا ، وهذا غير ممكن من الوجهة العملية ، ولذلك رفضت شهادة الشهود الأربعه حين اختلفوا ، وأقيم عليهم الحد ، ولكن المسلمين حينئذ كانوا فيما بينهم وبين أنفسهم يؤمنون بصدق هذه الواقعة ، وقد صرح عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب كلاهما للمغيرة نفسه باتهامه ، وحسان بن ثابت يهجوه بذلك فيقول له :

تركت الدين والإسلام لما بَدَت لك غُدوةً ذات النَّصيف

ومن الطريف الذى يدل على عدم نفور المغيرة أو خوفه من مواقف الريبة ، أنه حين دعاه عمر من الكوفة ليحقق فى اتهامه بالزنا ، تزوج وهو فى طريقه إلى المدينة بزويدة ، وحين عجب أبوها من رغبة المغيرة فى الزواج وهو فى هذه الحال ، قال المغيرة : وما عليك ، إن يعف عنى فهو خير لها ، وإن أقتل ورثتنى ، فزوجه إياها [1] .

ومن هذه الأمثلة نعلم أن المراد بانحراف الغزل ، هو الانحراف فى السلوك ، أو ما يدل من الشعر على انحراف فى السلوك ، أما الغزل نفسه ، من حيث كونه تعبيرا شاعريا عن الإحساس بالجمال ، فلا

(١) انظر الأغانى للاصفهانى ١٦-٧٩ ومابعدها

تثريب على شاعر قط. أن يزاوله وأن يفيض فيه ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ما استمع إلى الغزل فى الشعر ، فلم ينكر على على شىء منه ، وقد أفاض كعب بن زهير أمام النبى فى وصف سعاد ، ومع ذلك كانت قصيدته فى جملتها موضع الرضا الظاهر الواضح من النبى .

٢ ـ الغدر :

وبعض الشعراء المخضرمين عرفوا بجانب الغدر فى خلقهم ، ومنهم أبو الطمحان القينى الذى سبقت الإشارة إلى غدره بالراهبة التى آوته وأحسنت إليه(١)

ومنهم أبو ذؤيب الهذلى الذى تروى له قصة مشهورة ، فى صلته بامرأة من قومه ، خان فيها ابن عم له يدعى مالك بن عويمر ، فقد كانت خليلة لمالك ، وجعل مالك رسوله إليها أبا ذؤيب ، فخانه فيها وجعلها خليلة له ، وأخذ يرسل إليها ابن أخته خالد بن زهير ، فخانه خالد فيها أيضا ، فغضب منها أبو ذؤيب وقال :

تريدين كيما تجمعينى وخالدا ... وهل يجمع السيفان ويحك فى غمد ؟
أخالد ما راعيت منى قرابة ... فتحفظنى بالغيب أو بعض ما تبدى

فأجابه خالد مذكرا إياه بسابق خيانته :

فلا تجزعاً من سُنَّةٍ أنت سرتَها ... وأولُ راض سُنَّةً من يَسيرُها

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ ـ ٦٥٤ وديوان الهذليين ١ ـ ٣٤ وخزانة البغدادى ١ ـ ٤٢٢

تنقذتها من عبد عمرو بن مالك   وأنت صَفِىُّ نفسه   ووزيرها [1]

ومنهم أنس بن أبى أناس الدؤلى ، من رهط أبى الأسود الدؤلى ، وعمه سارية بن زنيم الدؤلى ، الذى قال له عمر : يا ساريةُ الجبل الجبل ، ولكن أنسا لم يكن من خلق سارية ولا أبى الأسود فى شىء ، وإنما كان كما يصفه أبو الأسود الدؤلى العالم الفاضل المشهور ، ومؤسس قواعد اللغة :

تبدلت من أنس أنــــه   كذوبُ الأمــانةِ خوَّانهــا

بل كان أنس يدعو إلى الخيانة والسرقة ، كما دعا أنس حارثة ابن بدر وإلى مدينة سُرَّق إلى الخيانة بمثل قوله : [2]

أحار بن بدر قد وَليت إمــارة   فكن جُرَذًا فيها تخون وتَسْرقُ

فلا تحقِرَنْ يا حار شيئًا أصبته   فحظك من ملك العراقين سُرَّق

ومن المشهورين بأحداث الغدر المغيرة بن شعبة ، الذى ارتحل قبيل إسلامه مع نفر من قومه إلى ملك مصر ، فكان المغيرة دون الرهط جميعا فى اهتمام الملك وهداياه وأقلهم ، فنقم المغيرة عليهم ، وخشى منهم إفشاء هذه الصورة فى قبيلته ، فلما كانوا أثناء عودتهم فى بعض الطريق إحتال فى إسكارهم حتى فقدوا وعيهم ، ثم قتلهم جميعا ، وهم ثلاثة عشر رجلا ، وأخذ أسلابهم ، وكأنه أراد أن يحتمى حينئذ من قرابتهم بالإسلام ، فذهب إلى النبى وأعلن إسلامه ، وطلب من

---

(١) الشعراء لابن قتيبة ٢-٦٥٤ وديوان الهذليين ١-٣٤وخزانة البغدادى ١-٤٢٢

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-١٣١ ومابعدها

النبى أن يقسم هذه الأسلاب على أنها غنائم من المشركين ، فقبل النبى إسلامه ، ورفض الأسلاب مصرحا بأنها من عمل غدر .

وكان المغيرة مشهورا بالخداع فى صلاته ، والخديعة نوع من الغدر ، وقد حاول أن يخدع على بن أبى طالب ، فيما يتعلق برأيه فى ترك معاوية على ولاية الشام أو عزله ، ثم أن يخدع عمر بن الخطاب فى أمر زواجه بأم كلثوم بنت أبى بكر ، وقد استطاع المغيرة أن يخدع مصقلة بن هبيرة الشيبانى فى خصومة بينهما ، حتى استدرجه إلى إن أقام عليه القاضى الحد وجلده ، فأقسم مصقلة ألا يقيم ببلدة فيها المغيرة ما دام حيا ، وارتحل عن الكوفة حتى مات المغيرة ، ثم رثاه مصقلة ، ولكنه يصفه فى رثائه بأنه حية ناقعة السم ، لا تنفع فى سمها رقية[1] .

٣ - البخل :

ومن المشهورين بالبخل وهم كثرة ، حسان بن ثابت ، ومن المتحدثين عن بخلة الأعشى فى شعره [2] .

ومنهم منازل بن ربيعة المنقرى ، الملقب باللعين المنقرى ، وقد سجل اللعين بخله فى شعره ، بل تجاوز ذلك إلى هجاء أضيافه والسخرية من جلستهم وهيئتهم ، بمثل قوله :

وأبغض الضيف ما بى جُلُّ مأكله ‌ ‌ ‌ ‌ إلا تَنَفُّجُهُ حولى إذا قعـدا

---

(١) انظر الأغانى للأصفهانى ١٦-٨٠ وما بعدها

(٢) المصدر السابق ٤-١٥٦

ما زال يَنْفُجُ كتفيه وحُبْوتهُ حتى أقول لعل الضيف قد ولدا [1]

وممن عرف بالبخل وهجاء الأضياف مزرد بن ضرار ، الذى تصفه الروايات بأنه كان شريرا ، يهجو ضيوفه ، ويمن عليهم بما قراهم به [2]

ومن المشهورين بالبخل من الشعراء المخضرمين الحطيئة ، الذى كان بالإضافة إلى مساوئه العديدة فى دينه وخلقه ، من أشهر الشعراء بالبخل ومما يروى فى ذلك أنه كان ذات يوم يرعى غنما له وفى يده عصا ، فنزل به ضيف فحرك الحطيئة عصاه مشيرا إلى الضيف فى صورة الوعيد ، فقال الرجل : إنى ضيف ، قال الحطيئة : للضيفان أعددتها [3] .

٤ ـ مساوىء اخرى :

ولم يخل أغلب الشعراء المخضرمين من صفات غير محمودة فى الناس عامة ، وفى المسلمين خاصة ، ومن ذلك ما عرف عن حسان بن ثابت من الجبن الشديد ، الذى يوشك أن يكون فزعا من أى مواجهة لعدو أو خطر مهما صغر ، وكانت له فى ذلك مواقف تثير السخرية والضحك لغرابتها ، أكثر مما تثير الإنكار والاستخفاف ، فمن هذه المواقف أنه جعل لنفسه حصنا خاصا يحتمى به من الفزع سماه فارعا ، وحين داهم الأحزاب المسلمين يوم الخندق ، تجمع

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٤٩٩

(٢) العمدة لابن رشيق ١-٨٨ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣١٥ والتبريزى فى شرح الحماسه ١-٤٥٢ يجعل هذا الوصف لأخيه الشماخ وهو أيضا شاعر مخضرم وكذلك فعل البغدادى فى الخزانة ٣ - ١٩٧ والعلة وهم من اللبس بين لأخوين الشماخ ومزرد

(٣) الكامل للمبرد ٢ - ١٠٣

المسلمون لمواجهه الخطر ، وبقى حسان فى حصنه مع نساء المسلمين وأطفالهم ، ولكن موضع العجب المضحك ، أن بعض النساء حينئذ كن يقمن بدور الحماية لحسان ومن فى الحصن ، أما هو فيأبى أن يتعرض لشىء ، ومن هذا أن صفية بنت عبد المطلب رأت حينئذ يهوديا يتجسس على الحصن ، فطلبت من حسان أن ينزل إليه فيقتله فأبى معتذرا بقوله : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، فلما يئست منه صفية نزلت فقتلت هذا اليهودى ثم عادت تطلب من حسان أن ينزل فينزع عنه أسلابه من الثياب والسلاح ، لأنها تستحيى أن تسلب رجلا ، فمنعه الخوف حتى من هذا ، وتكررت هذه الشهامة من صفية يومئذ ، وتكرر هذا الخوف فى حسان أيضا ، ولذلك يروى أن حسان حينما أنشد النبى : [1]

لقد غدوت أمام القوم منتطقا بصارم مثل لون الملح قطّاع[2]
يَحْفزُ عنى نجاد السيف سابغة فضْفاضةٌ مثلُ لون النِّهْى بالقاع

عندئذ ضحك النبى ، وكان واضحا أنه يعنى التناقض بين واقع حسان ، ووصفه نفسه بهذا البأس الشديد .

وهذا عتيبة بن مرداس المشهور بابن فسوة ، تهيل الروايات فوق رأسه عديداً من من المساوىء ، فيوصف أحيانا بأنه (هجاء خبيث اللسان بذى) ويوصف أحيانا بأنه (شاعر خبيث اللسان

---

(١) الأغانى للأصفهانى ٤-١٦٥ وما بعدها

(٢) يحفز يدفع والسابغة : الدرع . والنهى الغدير ، يشبه الدرع فى بياضها وانسيابها بالغدير

مخوف المعرة ، فى جاهليته وإسلامه) وكان الأمراء والولاة يحذرون لسانه ، ويتقونه بكل وسيلة ، وأيسر ما يتقونه به العطاء ، ولم يسلم من لسانه عبد الله بن عباس ابن عم النبى ، رغم أن الحسن بن على وعبد الله بن جعفر ، اشتريا منه عرض ابن عباس ، حينما علما بأن عتيبة يضمر له سخطا ، ومع ذلك لم يسلم منه ابن عباس ، فقد قال عتيبة بعد ذلك شعرا منه :

أتيتُ ابن عباسٍ فلم يَقْضِ حاجتى ولمَ يُرْجُ معروفى ولم يخشَ منكرى
حُبِسْتُ فلم أنطق بعذر لحاجة وَسَدَّ خصاصَ البيت من كل مَنْظرِ[1]

ثم يتهم ابن عباس بالمحاباة ، ويتمنى فى سخرية أن يكون من بنى زهران أصهار ابن عباس ، ليحظى منه بما يريد ، فيقول :

فلو كنت من زهران لم يَنْسَ حاجتى ولكننى مولى جميل بن مَعْمر

وكان ابن فسوة قد قدم على ابن عباس وهو عامل لعلى بن أبى طالب على البصرة ، يريد منه العطاء ، فنهره ابن عباس قائلا : والله لئن أعطيتك لأعيننك على الكفر والعصيان[2] ، ثم هدده بقطع لسانه إن هجا أحدا ، بعد أن عدد له جوانب من مساوئه المعروفة للناس .

ومن ذوى المساوىء فى الشعراء المخضرمين ، ضابىء بن الحارث البرجمى ، الذى ابتكر فى فحش الهجاء ما لم يفكر فيه شاعر قبله[1] حيث قذف عرض بعض نساء بنى نشهل بكلب ، فاشتد غضب

---

(١) الخصاص : الثقوب والمنظر : مكان النظر معنى أن ابن عباس سد كل المنافذ فى وجهه
(٢) الأغانى الأصفهانى ٢٢ — ٢٧٧

عثمان بن عفان عليه ، وقال له : والله لو كان رسول الله حيا ، لأحسبنه نزل فيك قرآن ، وما رأيت أحدا رمى أحدا بكلب قبلك ، ثم حبسه ، فأراد أن يحتال لاغتيال عثمان ، ومما قاله يشكو محبسه هو وفرسه قيّار [1] .

ومن يك أمسى بالمدينة رَحْلُهُ فإنى وقيّـارٌ بهـا لغريب
ولا خير فيمن لا يُوَطِّنُ نفسه على نائبات الدهر حين تنُوبُ

ومنهم مزرد بن ضرار الذى بلغ به حب الهجاء ، وعدم الإبقاء فى لسانه على أحد ، أن هجا قومه عند النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن شعره فيهم [2] :

تعَلَّمْ رسول الله لم أرَ مثْلهـم أجَرَّ على الأدنى وأحْرَم للفضل [3]

ومنهم سويد بن كراع العُكْلى ، الذى هجا قومه زمن عثمان ، فاستعدوه عليه ، فتوعده ، فكف عن هجائهم ، ولكن نفسه ظلت تنازعه إلى هجائهم ، وهو يصور تصويرا جميلا طريفا ، صراعه مع القوافى التى تريد أن تتدفق فى هجائهم ، ولكن خوف عثمان يجعله يراوغها ويصانعها ، حيث يقول :

أَبيت بأبواب القوافى كأنمـا أصادى بها سرْبا من الوحش نُزَّعا

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٥١ وما بعدها
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ - ٣١٥ والعمدة لابن رشيق ١ - ٨٨
(٣) أصادى بمعنى أقاوم والسرب الجماعة والنزع بمعنى المتحفزة للانقضاض .
(٣) أجرم من الجريرة وهى الذنب يعنى أنهم أكثر الناس إضرارا بالأقرب وحرمانا له من الخير

وجَشَّمني خوف ابن عفان ردها　　فثقَّفْتها حولا جريدا ومربعا
وقد كان فى نفسى عليها زيادة　　فلم أر إلا أن أطيع وأسمعا

فهو يصرح بأن خوف عثمان هو الذى جعله يحبس القوافى فى نفسه أمدا طويلا ، رغم تزاحمها وتكاثرها فى نفسه (1) .

ومنهم الحارث بن الطفيل الدوسى ، الذى كان أول من أسلم من قومه ، ومع ذلك نجده يضيق بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم لقومه ، وهذا ما لم يؤلف من مسلم ، فى كراهيته لدعاء النبى لقومه ، أو غير قومه (2) .

٥ ـ هنات :

ومن الملاحظ أن هذه الغالبية العظمى من الشعراء المخضرمين ، لم يسلم واحد منهم من شىء يؤخذ عليه ، إما فى دينه وعقيدته ، وإما فى خلقه وسلوكه ، فإذا لم يكن شىء من هذا أو ذاك ، لم يسلم من بعض الهنات والعثرات التى إن لم تجعل فى إيمانه أو خلقه خللا ، فإنها ولا شك تهز مكانه ومنزلته بين المؤمنين الصادقين الواثقين ، ومن أصحاب الهنات والعثرات كعب بن مالك ، الذى احتل بين المسلمين منزلة رفيعة بكونه أحد شعراء الرسول ، وكان يمكن أن يسمو بهذه المنزلة ، ويزداد فيها علوا ، ولكنه يعثر عثرة تهبط بمنزلته بين المسلمين هبوطا شديدا ، ورغم أن القرآن أقاله من هذه العثرة

(1) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ — ٦٣٥
(2) الأغانى للأصفهانى ١٣ — ٢١٩

وأعان عفوه عن جريرتها ، إلا أن آثار العثرة ظلت ماثلة فى نفوس المسلمين ، وفى نظرتهم إلى كعب ، وتلك قصته فى تخلفه عن غزوة تبوك ، حيث تخلف عن الرحيل مع النبى والمسلمين دون عذر ، وهو يروى عن نفسه حينئذ ، أنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عن النبى فى تلك الغزوة ، ويقسم أنه لم تجتمع له راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة ، ولكنه مع ذلك تخلف ، ثم ندم ، واشتد عليه الندم مع صاحبيه اللذين تخلفا مثله دون عذر ، وهما مُرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى ثم أمر النبى هؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم ، وتحاشاهم المسلمون جميعا لا يتعاملون معهم ، ولا يسلمون عليهم ، وكأنهم نبذوا من الإسلام نفسه ، وظلوا كذلك خمسين يوما ، ضاقت عليهم فيها الأرض برحبها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، كما وصف القرآن الكريم نفسه ، حتى من الله عليهم فى القرآن فى سورة التوبة بالعفو وقبول توبتهم ، ولكنهم مع ذلك لم يستعيدوا منزلتهم بين المسلمين [1]

ومن أصحاب الهنات والعثرات عبد الله بن رواحة ، الذى كان أيضا من شعراء الرسول الثلاثة ، حسان وكعب وهو ، ولكنه هبط أيضا بمنزلته بين المسلمين فى وقعة مؤتة ، ومع أن له يومئذ شعرا يفيض حماسة وبأسا ، واستعدادا للتضحية والبسالة ، إلا أنه حينما

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٩٥٨ والأغانى للأصفهانى ١٦-٢٢٩ خزانة البغدادى ١-٤١٧

احتدم القتال ، واستشهد القائد الأول زيد بن حارثة ، ثم القائد الثانى جعفر بن أبى طالب ، أخذ راية القيادة عبد الله بن رواحة ، فقال شعرا بالغ الحماس والقوة ، ولكنه عند القتال تردد ، ولم يكن كما يتفق وشعره ، ولا كما يتفق واختيار المسلمين إياه للقيادة رغم أنه قاتل واستشهد ، ولذلك يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر المسلمين وهو فى المدينة حينئذ عن هذه الأحداث بما أخبره الوحى ، وقال النبي عن القادة الشهداء الثلاثة ، زيد وجعفر وابن رواحة ، لقد رفعوا إلى فى الجنة ، فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه ، فقلت عمَّ هذا ؟ فقيل لى : مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ، ثم مضى [1] .

ومنهم سحيم بن وثيل التميمى ، الذى كان من سادة بنى تميم ، وكان يمكن أن ينمى مكانته وجوده بالاتجاه إلى الله فى عمل الخير ، كما يهدف الاسلام ، وكما يشترط فى كل عمل أن يكون نابعا من نية الخير ، ولكن سحيما اتجه بسيادته وجوده إلى التفاخر والتظاهر ، وظل ينافس غالب بن صعصعة والد الفرزدق ، فحين نحر غالب عددا كبيرا من الأبل لقومه ، نحر سحيم ثلثمائة ناقة لقومه ، وكان هذا العمل فى ظاهره خيرا عظيما ، وفيضا واسعا من الخير والجود ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ - ٨٣٤ خزانة البغدادى ٢ - ٣٠٤

ولكن على بن أبى طالب طبق عليه مقاييس الإسلام فى نظرته إلى أى عمل ، واشتراطه الاتجاه به إلى الله ، فوجد أنه تفاخر وليس عمل خير فنهى المسلمين عن أن يأكلوا من هذا اللحم ، وقال لهم : إنه مما أُهِلَّ به لغير الله [1] .

(1) البغدادى ١ - ٢٦٥ وأمالى القالى ٣ - ٤٢ والشعراء لابن قتيبة ٢ - ٦٤٣ والاصمعيات ١٧

الشعراء التائبون

حين بين القرآن الكريم ما فى طبيعة الشعراء عامة من مساوىء فطروا عليها ، استثنى منهم بعضا ، لا ينطبق عليه هذا الحكم إذا توافرت فيه عدة صفات ، فى قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى مُنْقَلَب ينقلبون »[1] وإذن ففى الشعراء بعض خيرون ، وإن كان هذا البعض قليلا بحكم الاستثناء ، بل وإن كان هذا الاستثناء فى شروطه وقيوده العديدة يجعل من هذا البعض قلة قليلة جدا ، ومن حق هذه القلة مهما قل عددها ، أو قلت جوانب الخير فى أفرادها أن يظهر جانب الخير فيهم كما أظهر جانب السوء فى غيرهم أو فيهم هم ، ولذلك أفردنا هذا الجانب المشرق فيهم بالحديث .

ونعنى بالشعراء التائبين الذين قالوا فى الإسلام شعراً يعتذرون به عما سلف منهم فى الجاهلية ، سواء أكان اعتذارا صريحاً عن شعر قالوه ضد الإسلام ، أم كان اعتذارا ضمنيا بحماسهم فى الدفاع عن الإسلام ، أو بمواقف تخدم الاسلام ، ونسوق حديثهم كما يلى .

(۱) آخر سورة الشعراء

(ا) المعتذرون الى النبى بشعرهم :

وهؤلاء من الشعراء الذين بدر فى شعرهم قبل إسلامهم هجوم على الاسلام ، وبخاصة ما يمس شخص الرسول ، فكأنهم كانوا يستحيون من النبى بعد أن آذوه بشعرهم ، فيعتذرون إليه بشعرهم كعادة الشعراء أن يلتمسوا بشعرهم العفو ممن هجوه إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك .

ومن هؤلاء الشعراء ابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، الذى كان من أشهر شعراء قريش المهاجمين للإسلام والمسلمين بشعرهم فجاء إلى النبى بعد أن أسلم ، وقدم بين يديه شعرا يعتذر فيه عن سالف شعره ضد الإسلام ، ومن هذا الشعر

لعمرك إنى يوم أحمل رايـــةً لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمُدْلج الحيران أَظْلَمَ ليله فهذا أوانى حين أَهْدَى وأهتدى
وهاد هدانى غير نفسى ونالنى مع الله من طرَّدتُ كُلَّ مُطـرَّد

وقد أساء التعبير فى الشطر الأخير ، ولذلك دفع النبى فى صدره مستنكراً قول الحارث ، وقال : أنت طردتنى كل مطرد ؟ (١)

ومن هؤلاء كعب بن زهير بن أبى سلمى ، الذى لام أخاه بجيراً الشاعر على إسلامه بشعر فيه مساس بشخص النبى وبالإسلام ، ومنه يخاطب بجيرا :

---

(١) تاريخ الطبرى ٢-٢٣٩وديوان حسان بن ثابت وتلقيح الفهوم لابن الجوزى١٣٧

شربت مع المأمون كأسا رَوِيَّةً فأنهلك المأمون منها وعلّكـــا
وخالفت أسباب الهدى واتَّبعته على أيِّ شيء وَيْبَ غيرك دلّكـا

ويعنى بالمأمون النبى ، وبعد أن أسلم كعب جاء إلى النبى تائبا معتذرا بقصيدته المشهورة التى ألقاها بين يديه ، والتى رضى عنها النبى ومنح كعبا بردته مكافأة له وتعبيرا عن عفوه ، بعد أن كان يتوقع إهدار دمه ، وهى قصيدة (بانت سعاد) ومنها فى الاعتذار

نبئت أن رسول الله أوعـدنى والعفــو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى اعطاك نافلة القـــــــرآن فيهـا مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقــوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فى الأقاويل(١)

ومن المعتذرين إلى النبى بشعرهم أنس بن زنيم الديلى الذى جاء بعد إسلامه إلى النبى ، يعتذر عما قاله عمرو بن سالم الخزاعى فيه وفى قومه من بنى الديل عند النبى ، ومما قال أنس يكذب ما نقله عمرو ابن سالم إلى النبى :

تعلَّم رسول الله أنك مدركـى وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعَلَّم رسول الله أنك قـــادر على كل صرْم مُتْهمين ومُنْجـد
تعَلَّمْ بأنَّ الركب ركب عُوَيْمر هم الكاذبون المُخْلفو كلَّ مَوْعَد
ونبَّوْا رسول الله أنِّى هجوتُـــه فلا حَمَلتْ سَوْطى إلىَّ إذنْ يَدى

---

(١) سيرة ابن هشام ٤–٩٣٧ومابعدها
(٢) سيرة ابن هشام ٤–٨٧٩وعويمر يعنى عمرو بن سالم

ومن المعتذرين أيضا عبد الله بن الزبعرى القرشى ، حيث يروى ابن اسحاق شعراً يشك ابن هشام فى نسبته إلى ابن الزبعرى ومنه مخاطبا النبى :

يا خير من حملت على أوصالها عَيْرانةٌ سرح اليدين غشوم
إنى لمعتذر إليك مـــن الـذى أَسْدَيْتُ إذْ أنا فى الضلال أَهيم
فاغفـــر فدى لك والداى كلاهما زللى ، فإنك راحم مرحوم [1]

وهو حقا لا يشبه أسلوب شعر ابن الزبعرى ، ولا أسلوب شعر المخضرمين ، ولكنه يرشد إلى أن ابن الزبعرى قال شعرا فى الاعتذار إلى النبى .

(ب) المعتذرون ضمنا بشعرهم :

ونعنى بهم الذين لم يعتذروا صراحة عن شعر قالوه ، ولكنهم سخروا شعرهم لخدمة الأسلام ، أو لمواقف تخدم الإسلام ، وفى هذا المجال نجد كثيرا من الشعراء عبروا بشعرهم عن مشاعر أو مواقف إسلامية كانت فى مجموعها خدمة للإسلام ، وتدعيما لقوة المسلمين ، ولا يخل بقيمة هذا الشعر أن نجد كثيرا منه يتسم بالطابع الجاهلى ، كالفخر بالنفس أو القبيلة ، أو التشفى من عداوة قديمة ، ولا يخل بقيمة هذا الشعر أيضا أن كثيرا من هؤلاء الشعراء لم يكن سلوكهم مطابقا لشعرهم ، فقد يبدو فى بعض شعر الشاعر الحماس الدينى ، ولكن سلوكه قد يكون بعيدا عما يرضاه الدين . ولكن الذى يعنينا هنا أن

(١) سيرة ابن هشام ٤ — ٨٧٦

الشعر كان فى هذه الآونة بالذات ، سلاحا من أقوى وأمضى الأسلحة فى المعركة النفسية العاتية التى يخوضها المسلمون ضد أعدائهم ، سواء فى حياة النبى أو بعده ، وبخاصة فى خلافتى الشيخين ، أبى بكر وعمر .

وفى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين خدموا الإسلام بشعرهم ، شعراء الرسول ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وشعرهم فى خدمة الاسلام أشهر من أن ينوه به .

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن جحش الذى يدافع بشعره عن قتال المسلمين فى الشهر الحرام ، حين اتخذت قريش سرية عبد الله ابن جحش دعاية ضد الإسلام والمسلمين ، وأنهم ينتهكون حرمة الشهر الحرام ، ومن ذلك قوله يخاطب قريشا [1] :

تعُدُّون قتْلاً فى الحرام عظيمـةً   وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدودكم عما يقـول محمـد   وكفر به ، والله راء وشاهـد

ومنهم خفاف بن ندبة السلمى ، الذى ينكر على قومه أن يرتدوا عن الإسلام ، وأن يأْخذوا من أبى بكر سلاحا زاعمين أنهم سيقاتلون به المرتدين ، فإذا هم يقاتلون به المسلمين فيقول مخاطبا قومه [2] :

لم تأْخذون سلاحه لقتاله ؟   ولذا كم عند الإله أثـــام

لا دينكم دينى ولا أنا كافـر   حتى يزول إلى ضَمـــرَاة شمام

(١) سيرة ابن هشام ٣-٤٣٩،٤

(٢) الا صمعيات للاصمعى ٣١والاغانى للأصفهانى ٧٨-٧٤وخزانة البغدادى ٤-١٥

ومنهم الأغلب العجلى الذى أسهم بشعره فى حروب الردة ، حيث هجا بشعره سجاحا التى ادعت النبوة فى بنى تميم [١] وهذا الشعر وإن لم يخل من إقذاع ، إلا أن هذا الاقذاع كان مما يزيد فى التنفير من سجاح ، وهو ما يهدف إليه المسلمون .

ومنهم النمر بن تولب العكلى الذى يروى له شعر فى مدح النبى وفى الاعتزاز باحتمال عناء السفر إلى النبى حتى لو اضطروا إلى إطعام خيلهم لحما حين تقفر الصحراء من النبات والمرعى [٢] .

ومن هؤلاء الشعراء عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، الذى أبلى فى الفتوح الإسلامية بلاء حسناً بسيفه وشعره ، بعد أن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه ، وله فى فتوح فارس والروم أشعار كثيرة ، ومنها فى موقعة القادسية [٣] :

والقادسية حيث زاحم رستمُ كنا الحماة بهن كالأشطـــان
الضاربين بكل أبيض مخْـذم والطاعنين مجامع الأَضغـان

ومنهم النابغة الجعدى شاعر بنى عامر بن صعصعة الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بادى الحماس والتأثر بالإسلام فأنشد بين يديه قصيدة يذكر الرواة أنها تبلغ مائتى بيت ، ومنها الأبيات المشهورة التى رضى عنها النبى ودعا له من أجلها بألا يفض الله فاه ،ومنها[٤] :

(١) الأغانى للأصفهانى ٢١-٣١ومابعدها وخزانة البغدادى ٢-٢٣٩

(٢) الأغانى للأصفهانى ٢٢-٢٧٨ والشعرلابن قتيبة١-٣٠٩ وخزانة البغدادى ١-٣٢

(٣) الامالى لأبى على القالى٣-١٤٦وخزانة البغدادى ٢-٤٤٤ وحماسةأبى تمام ١-٤٣

(٤) خزانة البغدادى ٣-١٦٧ والعمدة لابن رشيق ١-٣٥ وشرح حماسةأبى تمام ١-٤٠١ وكاملى المبرد ٢-٢٥٢

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيّرا

أقيم على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا

ثم يقول –

وإنا لقوم ما نُعَوِّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا

وننكر يوم الروع ألوان خيلنا من الطعن حتى تحسب الجون أشقرا

وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحا، ولا مستنكراً أن تُعَقَّرا

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال له النبى : إلى أين يا أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال النبى : نعم إن شاء الله ثم قال النابغة :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يُكدَّرا

ولا خير فى جهل إذ لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبى : لا يفضض الله فاك ، فحفظ الله له أسنانه كاملة حتى مات فى شيخوخته .

ومن هذا النوع من الشعراء عبد الله بن أنيس الذى بعثه النبى لقتل خالد بن سفيان الهذلى ، الذى كان يجمع جيشا ليغزو به النبى فذهب عبد الله بمفرده إلى خالد فى موطنه فقتله ، ومما قال ابن أنيس فى ذلك [1] :

وقلت له : خذها بضربة ماجد حنيف على دين النبى محمد

وكنت إذا هَمَّ النبى بكافر سبقت إليه باللسان واليد

(١) سيرة ابن هشام ٤–١٣٧ومابعدها

فابن أنيس يتخذ من لسانه سلاحا ضد أعداء النبى ، وهو يعرف ذلك ويتعمده ، بل هو يصرح بأن سلاح اللسان أسبق من السيف ، حيث يقول (سبقت إليه باللسان وباليد)

ومن هؤلاء الشعراء فروة بن عمرو الجذامى ، الذى كان واليا للروم فى بعض ما يلى الشام من أرض العرب ، ولكن الإسلام كان أحب إليه من كل شىء ، فأسلم وأرسل إلى النبى يعلن إسلامه ، ويقول شعرا يعبر به عن اعتزازه بالإسلام ، بل يجعل من نفسه مثالا من أمثلة التضحية فى سبيل الإيمان ، فيثبت على اعتزازه بالإسلام حتى يقتله الروم ، ومما يروى من شعره عندئذ [1] :

بلِّـــغ سراة المسلمين بأننى سَلْمٌ لربى أعظمى ومقــامى

ومنهم قيس بن المحسر الذى يعتذر بشعره الصادق المؤثر عن عدم تعرضهم للموت ، وإيثارهم للحياة يوم مؤتة فيما سماه المسلمون حينئذ فرارا ، وذلك بدافع الحماس الدينى العارم الذى كان يجعل الشهادة أمنية قوية مسيطرة ، فظنوا نجاة خالد بن الوليد بالمسلمين فراراً مع أنها خطة بالغة الحكمة والبراعة الحربية ، ولذلك قدرها النبى صلى الله عليه وسلم ، فأثنى على المسلمين وسماهم الكرار ، وأثنى على خالد وسماه سيف الله ، ولكن قيس بن المحسر يندم ندما عميقا على أنه لم يقدم نفسه للموت يومئذ فيقول :

---

(١) سيرة ابن هشام ٤-١٠١١ومابعدها

فو الله لا تنفك نفسى تلومنى   على موقفى والخيل قابعة قُبْلُ[1]

التائبون بمسلكهم :

وهم الشعراء الذين لم يؤثر عنهم شعر يمكن أن يوصف بأنه إسلامى يخدم الدين ، ولكنهم كانوا بخلقهم وأعمالهم أمثلة طيبة لما ينبغى أن يكون عليه المسلم من صفات ، ولو فى بعض جوانب حياتهم أو صفاتهم ، وهؤلاء لم يكن من اللازم أن نعنى بحديثهم هذا ، فإن هذا الحديث إنما ينصب على الشعر ، أو على الأشخاص بوصفهم شعراء ذوى إنتاج شعرى ، ولكننا من باب الإنصاف للشعراء المخضرمين ، كان من حقهم أن نذكر لهم هذا الجانب الحسن من التدين والخلق ، ليتكون منه ما يشبه أن يكون كفة ميزان ولو ضعيفة أو مرجوحة ، فى مقابل كفة المساوىء التى حفلت مما صبه فيها الشعراء الذين نتحدث عنهم ، وهم المخضرمون .

ومن هؤلاء الشعراء لبيد بن ربيعة العامرى ، الذى كان فى الجاهلية من كبار الشعراء أصحاب المعلقات ، ولكنه يترك هذه المنزلة الاجتماعية الرفيعة التى رفعه إليها الشعر ، حبا فى الإسلام ، فحينما سمع القرآن وانبهر بأسلوبه قرر أن يترك حرفة الشعر ، وآلى على نفسه ألا يقول شعرا ما عاش ، وهو بهذا الأسلوب السلبى يخدم الإسلام ، ويدعو إلى تعظيم القرآن بأبلغ مما يعظمه أى شعر ، ولننظر إلى مدى الأثر الذى يحدث فى نفوس العرب ، حينما يسمعون أن شاعرا ، وبخاصة إذا كان فى مثل منزلة لبيد الشعرية ، استصغر

(١) سيرة ابن هشام ٤-٩٣٦ومابعدها والبيت ضمن أبيات أخرى فى الموضوع

شعره بجوار ما ينزل على محمد وهو القرآن ، فآلى لى نفسه ألا يقول شعرا حتى يموت ، وبالإضافة إلى ذلك كان لبيد من الملتزمين خلق الإسلام فى تدينهم ومسلكهم ، حتى تصفه الروايات بأنه من أحسن الناس إسلاما [1] ولا يخل بهذا وصفه فى بعض الروايات بأنه من المؤلفة قلوبهم [2] فإن تأليف القلوب لم يكن يعنى ضعف الإيمان ، وإنما له اعتبارات كثيرة ، منها كسب قلوب سادة القبائل فى بدء إسلامهم لاجتذاب تابعيهم إلى الاسلام .

ومنهم عروة بن أذينة الذى اشتهر بالتدين والصلاح ، وكان يروى عنه الحديث ، وله شعر فى الزهد ، وفى التوكل على الله ، وبلغ من شهرته بالاستقامة أن انكرت عليه امرأة شعرا عاطفيا رأت من وجهة نظرها أنه لا يتفق مع ما عرف عنه من تدين ، حيث جاءت إليه تقول : أيقال فيك : الرجل الصالح ، وأنت تقول : [3] .

إذا وجدت أوار الحب فى كبدي   عمدت نحو سقاء القوم أبترد
هـذا بَرَدْتُ ببرد الماء ظاهَـرهُ   فمن لنار على الأحشاء تتَّقدُ ؟

لا والله ، ما قال هذا رجل صالح قط. ! ! ، ويصفه ابن خلكان بأنه كان من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، وينقل قصة المرأة على أنها بعد استشهادها بشعره ، نظرت إلى جوار حولها ، وقالت (هن حرائر إن كان هذا خرج من قلب سلم قط.) .

---

(١) شرح حماسة أبي تماما للتبريزى ١-٤٣١ والكامل للمبرد والعمدة لابن رشيق ٢-٨٤
(٢) انظر خزانة البغدادى ٢-٢٤٦
(٣) االشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٥٧٩ ومابعدها

ومنهم عمرو بن الأهتم المنقرى ، الذى قال له النبى عن شعره (إن من الشعر لحكما ، وإن من البيان لسحرا) ومن شعره فى التشبث بحميد الخلق [1] .

ذرينى فان البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيـق

ومنهم أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبى ، الذى كان من أكثر شعراء قريش شعرا ضد المسلمين ، فلما أسلم حسن إسلامه ، حتى قال لأهله عندموته : لا تبكوا على ، فإنى لم أصب خطيئة منذ أسلمت

ومن هؤلاء الشعراء عمرو بن الجموح السلمى ، الذى بلغ من حماسه للاسلام وللجهاد فى سبيله ، أن أراد القتال فى بدر رغم أنه كان أعرج ، فلما منعه بنوه اشتد به الضيق ، حتى كان يوم أحد ذهب إلى النبى يستشفع به إلى بنيه حتى لا يحولوا بينه وبين القتال فى سبيل الله ، قائلا (إن بنى يريدون حبسى عن الخروج معك ، وإنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة ، قال : أما أنت فقد عذرك الله ، ثم قال لبنيه : لا عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة) فقاتل فى أحد ، وحرص على أن يكون فى المقدمة حتى استشهد ، ويروى أنه دفن مع عبد الله بن عمرو بن حرام فى قبر واحد ، فخرب السيل قبرهما بعد أربعين سنة ، فوجد جسداهما سليمين كأنهما ماتا

---

(١) المصدر السابق ١-٦٣٢ ومابعدها وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ٢-٣٠٠
(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ١٣١ وشرح التبريزى للحماسة ١-٥٦وبديوان حسان ٧٠

فى اليوم وله شعر فى الزهد ، وفى تحقير الأصنام[1] ومنهم أسماء ابن خارجة الذبيانى الذى كان عف اللسان ، ولم يكذبه أحد حين قال (ما شتمت أحدا قط.) وله شعر بالغ الجودة فى الحض على الجود ومكارم الأخلاق [2] .

ومن الأمثلة الطيبة للشعراء المخضرمين أيضا النمر بن تولب العكلى الذى اشتهر بالجود وفيض العطاء ، حتى إنه حين خرف فى أخريات شيخوخته ، كان يهذى بالحض على الجود والعطاء ، ومما اشتهر به عفة اللسان ، وعفة النفس ، حتى عرف عنه أنه لم يمدح ولم يهج أحدا طول حياته [3] .

ومنهم آبى اللحم الغفاوى ، الذى يوصف بانه شريف شاعر ، وقد استشهد يوم حنين ، وبالإضافة إلى صفاته الخيرة ، كان ذا منهج خاص به فى معيشته ، ومن ذلك أنه لم يكن ياكل اللحم ، ولذلك سمى بهذا الوصف [4] .

ونكرر القول بأن هذه المزايا فى هؤلاء الشعراء وأمثالهم لا تنفى وجود هنات فى جوانب أخرى من صفاتهم أو سلوكهم ، وليس ما يمنع أن تكرن فى شخص ما فضيلة فى جانب ، ورذيلة أو نقيصة أو هنة فى جانب آخر .

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ١٤٤ومابعدها ؛ وسيرة ابن هشام ٢-٣١٠

(٢) الاصمعيات للأصمعى ٤٨ ومابعدها

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٠٩ وخزانة البغدادى ١-٣٢١ والاغانى للأصفهانى ٢٢-٢٧٣

(٤) الاصابة فى تمييز الصحابه لابن حجر ١-٩

على أننا نلحظ أن الرواة والنقاد يحرصون على إبراز كل فضيلة أو حسنة فى الشعراء مهما صغرت ، وكأنهم يرون الخلو من المساوىء فى الصفات ، بل الاتصاف بصفات التدين والإستقامة على نهج الدين والخلق شيئا يلفت النظر بالقياس إلى الشعراء ، ولذلك يلاحظ أن الرواة يغلب عليهم اللجوء إلى صفات خاصة عندما يتحدثون عن الخير من الشعراء ، كقولهم : أسلم فحسن إسلامه ، أو لم ير فى إسلامه سوء ، أو كان صالحا ، أو عف اللسان ، أو نحو ذلك ، وهذه الصفات لا يستخدمونها غالبا عندما يتحدثون عن غير الشعراء من المخضرمين ، بل يكفى غالبا أن يوصف مثلا بأنه صحابى ، فيفهم من هذا ما عرف عن الصحابة من تدين وخلق ، ولكنهم فى كثير من الأحيان لا يكتفون بهذا الوصف إذا كان هذا الصحابى شاعرا وأرادوا الحديث عن فضله ، وكأنهم يجدون أن الصحبة للنبى لم تمنع كثيراً من الشعراء أن يسيئوا قليلا أو كثيرا ، وهذا واضح فى أخبارهم .

شعور الإنسان ، بل الحيوان عامة ، بالانتماء أمر نابع من الغريزة فكل فضيلة أو نوع من أنواع الحيوان ، ينتمى أفرادها بعضها إلى بعض ، ويأنس بعضهم عادة إلى بعض ، ثم يتفاوت أفراد كل جنس فى مدى التعاون ، وتنظيم أسلوب المعيشة .

ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بأشياء عديدة ، أهمها العقل والعاطفة ، العقل الذى يزن به الأمور ، ويقدر من خلاله مصلحته ، ومدى توافقها أو تعارضها مع مصالح الآخرين ، والعاطفة التى تشده أحيانا إلى آخرين بروابط معينة ، منها الإلف ، والتوافق فى اتجاه معين ، ونحو ذلك .

وهذه الجوانب التى نشير إليها من الغريزة البشرية نريد أن نصل منها إلى أن شعور الإنسان بالانتماء أمر نابع من الغريزة ، وإذا كان انتماؤه إلى الجنس البشرى غريزة حيوانية ، يشارك فيها سائر الحيوان فإن العاطفة والعقل اللذين يتميز بهما ، يجعلانه يتجاوز الشعور بمجرد الانتماء إلى الجنس البشرى ، إلى الانتماء إلى نطاق أضيق ، هو ما ترتبط به مشاعره وعواطفه فى القرابة المباشرة كالأسرة ، وما

ترتبط به مصالحه فى القرابة غير المباشرة كالقبيلة أو البلدة أو الوطن .

وإذن فالشعور بالانتماء لذاته غريزة ، وما دام غريزة فلا يوصف بأنه خير أو شر ، لأن الغرائز لذاتها لا يحكم عليها ، وإنما يحكم على توجيهها ، فإذا وجهت نحو الخير كان هذا التوجيه خيرا ، وإذا وجهت نحو الشر كان هذا التوجيه شرا ، فصلة الرحم مثلا ، تعد توجيها لها نحو الخير ، والتعصب الأعمى للقرابة ولو كانت على خطأ ، يعد توجيها لغريزة الانتماء نحو الشر .

والعرب الجاهليون أحاطت بحياتهم ظروف جعلتهم يوجهون انتماءهم فى معظم حالاته نحو الشر ، حين تشتعل الحروب ، وتراق الدماء ، ويروع الأمن ، ويشترك الأفراد جميعا فى هذه النكبات ، يشتركون بدافع الانتماء ، الذى يوجهونه نحو شر ، هو التعصب الأعمى للنسب ، والاندفاع وراء الداعى إلى الشر ، حتى ولو لم يعرف بعض الأفراد حينئذ ، لماذا هذا الدعاء ؟ وإلى أين يتجهون ؟ وإذا أريد التماس عذر لأهل الجاهلية فى هذا فمن أهم جوانب هذا العذر ؛ أنه لا توجد وسيلة ولا جهة لحماية الأفراد إلا هذا الانتماء ، فليست هناك سلطة أو قوة يلجأ إليها الفرد لحمايته إلا قبيلته ، فهو يندفع لحماية فرد آخر من القبيلة ، أو يستجيب للقبيلة ، مقدرا أنه قد يحتاج إلى هذه الحماية ، فيجد ردًّا لهذا القرض الذى قدمه قبل ذلك ، فتحمية القبيلة إن تعرض لظلم أو جور . ومن ثم أصبحت كل جماعة أو قبيلة ، كأنها دولة مستقلة بكيانها وقوتها وانتماء أفرادها إليها .

ثم جاء الإسلام فبطل هذا العذر الجاهلى فى حاجة الأفراد إلى الحماية من القبيلة ، حيث أصبح الإسلام نفسه بتشريعه وسلطانه هو القوة التى تكفل للجميع كل الحماية وكل القوة ، فى الصورة التى عبر عنها أبو بكر فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة ،حيث يقرل (القوى فيكم عندى ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم عندى قوى ، حتى آخذ الحق له) ، ولم يكن من السهل انتزاع هذا الشعور القبلى المتغلغل فى النفوس ، والمسيطر على الحياة الاجتماعية .

ومن الحق أن يقال إنه ليس من هدف الإسلام محو شعور الانتماء من النفوس ، فحيث كان هذا الشعور غريزة وطبعا فى النفوس ، فإن الإسلام فى منهجه كله لا يحارب الغرائز ، وإنما يحارب توجيهها نحو الشر ، ويحاول جاهدا أن يدفع الناس إلى توجيهها نحو الخير ، فالإسلام لم يحارب قط شعور الانتماء إلى النسب أو القبيلة ، بل ولم يحارب الاعتزاز بهذا الشعور ، وإنما حارب سوء توجيهه ، كهذ المعنى الذى جعله الجاهليون عنوانا لحياتهم (انصر أخاك ظالما أومظلوما) فينصرونه بدفع الظلم عنه إن كان مظلوما ، وبإعانته على الظلم إن كان ظالما ، ولكن الإسلام يأخذ من هذا المعنى أساسه الفطرى ، وهو رباط الأخوة والانتماء ، ويأخذ جانبه الخير فى التوجيه ، وهو معاونة الأخ على دفع الظلم عنه ، وقد قال النبى يوما لأصحابه هذا المعنى المألوف منذ الجاهلية ، فقالوا متعجبين ؛ ننصر أخانا يا رسول الله مظلوما ، فكيف ننصره ظالما ؟ قال : بأن تردوه عن ظلمه ، ومن إقرار الإسلام لشعور الانتماء ، ودفعه الناس

إلى التسامى به ، وحسن توجيهه ، صلة الرحم ، وحسن الجوار . ولم يرد فى الإسلام تنفير من شعور الانتماء ، ولا من مجرد الاعتزاز بالنسب ، أو الاعتزاز بالانتماء إلى جماعة ، وكثيرا ما سمع النبى اعتزازا بالانتماء إلى نسب أو جماعة ، فلم ينكر ذلك ، بل إنه يوم حنين ، حين انكشف المسلمين وتراجعوا ، وأراد النبى أن يدعوهم إلى التماسك والتجمع والحماس للقتال ، أمر العباس أن ينادى بالرجوع إلى رسول الله ، فأخذ العباس ينادى : أيها الناس ، فلم يغن ذلك كثيرا ، فأمره أن ينادى الناس بأسمائهم وأنسابهم ، فأخذ ينادى : يا بنى فلان ، يا معشر كذا ، يا معشر الأنصار ، يا للخزرج [1] ، وكان مما يؤذى النبى أن يسمع إساءه إلى قريش ، أو حطا من قدرها ، وقد تكرر هذا فى التعبير عن تأذيه من الإساءة إلى قريش فى عدة مواقف ، كما سيأتى فى الحديث عن موقف الشعراء المخضرمين من قريش .

فالإسلام إذن لا ينفر من شعور الانتماء ، ولا من الاعتزاز به ، وإنما ينفر من التعصب له تعصبا يتنافى مع مبادىء الدين وروحه ، على أننا نلحظ أن الاسلام كعادته فى إيجاد وسائل للتنفيس بها عن الغرائز والمشاعر الطبعيه ، أوجد بديلا لجموح الانتماء ، أو ما يسمى بالتعصب للنسب ، والبديل هو التعصب للدين نفسه . ويكون الانتماء حينئذ للذين يجمعهم الدين ، وشعاره فى القرآن الكريم (إنما المؤمنون إخوة) فالمؤمن ينبغى أن يكون انتسابه إلى الدين قبل النسب

(١) سيرة ابن هشام ٤-٨٩٥

العرق ، وارتباطه بصلته بالمؤمنين ، قبل ارتباطه بمن تجمعه معهم صلة النسب فى الدم ، وقد نجح هذا المعنى البديل فى جيل النبى ، حينما أحسن المسلمون تطبيقه والتمسك به ، فكان ارتباطهم بالإيمان ، وبالمؤمنين ، هو الذى يقودهم ويحركهم ، وليس ارتباطهم بالنسب وبالقرابة ، وحتى حينما اختلف المسلمون بعد موت عثمان رضى الله عنه ، لم يكن محركهم فى الخلاف نسب أو قرابة ، وإنما الخلاف حول معنى مرتبط بالدين ، وهو الخلافة وما دار حولها من اجتهاد فى الرأى ، أو خلاف بين القائمين على تطبيق الشريعة الإسلامية حينئذ وهم على بن أبى طالب وأئمة حزبه ، ومعاوية وأئمة حزبه . وكذلك حينما اختلف العرب بعد وفاة النبى ، فظل بعضهم متمسكا بالإسلام وارتد عنه بعض آخر ، لم يكن اختلافهم حينئذ نابعا من انتماء لنسب أو تعصب لقبيلة ، وإنما كان خلافا حول الدين ، بعضهم يراه فى فى صورته الصحيحة الكاملة ، وبعضهم يراه فى صورة مبتورة مشوهة وهذه الصورة فى الخلاف والصراع لم تكن قط مألوفة قبل الإسلام فأيا ما كانت أسباب الخلاف ، فإنما كان يحركها التعصب للنسب ، ولكن الخلافات فى جيل النبى كله ، لم يكن يحركها النسب ، وإنما يحركها الدين بطريق مباشر أو غير مباشر ، سواء أكان البعض على حق ، أم على باطل ، وهذه حقيقة لا يلتوى التاريخ فى إعلانها ، وهى غاية لم يكن غير الإسلام يستطيع أن يحققها .

ونخرج من هذا كله بأن الإسلام ، وإن كان يقر شعور الانتماء

إلا أنه يبغض الجموح فيه ، أو ما يسمى التعصب للنسب والقبيلة وأنه أوجد بديلا لهذا الشيء البغيض ، فدعا إلى الانتماء إلى الدين وأبنائه ، وإلى التعصب له ، لأن التعصب للدين من حيث إنه مبادىء لا خوف من آثاره ، بل إن آثاره إصلاح اجتماعي محقق ، وليس هناك خير من مجتمع يتواصى أهله بالمبادىء ويتعصبون لها ، ولذلك يوجه النبي صلى الله عليه وسلم شاعر الأنصار كعب بن مالك إلى هذا المعنى ، حينما قال كعب قصيدته العينية ، بعد موقعة أحد ، يرد بها على هبيرة بن أبي وهب المخزومي القرشي ، ويدافع بها عن المسلمين ، ولكنه ينحو بها منحى العصبية للنسب ، فيقول :

مُجَالِدُنا عن جِذْمنا كل فخمة — مُذرَّبَةٍ فيها القوانسُ تلْمَعُ (1)

ولكن النبي لا يرضى أن يكون الدفاع عن الأنساب والعصبيات فيقول له : أيصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ قال كعب : نعم قال النبي : فهو أحسن ، فغير كعب تعبيره اثناء الإنشاد وأصبح البيت .

مجالدنا عن ديننا كلَّ فخمة — مُذَرَّبة فيها القوانس تلمع

ثم واصل كعب بقية القصيدة .

وننتهي من هذا كله أيضا إلى أن المسلمين في جيل النبي – وهم

---

(1) سيرة ابن هشام ٣-٦٤٥ . ومجالدنا : من المجالدة وهي القتال والجذم بكسر الجيم : الفئة والجماعة التي ينتمي إليها ؛ والفخمة : العظيمة الضخمة ؛ والمذربة الحادة كحد السيف أو سنان الرمح والقوانس خوذة المقاتل وأصلها ما بين أذني الفرس ؛ والمعنى : اننا نقاتل وندفع عن أصلنا وجماعتنا كل قوة وكل سلاح

المخضرمون – استجابوا لروح الإسلام ، فألقوا صورة العصبية الجاهلية الشرسة خلف ظهورهم وخلف تدينهم بالدين ، وحتى إن بقيت جذور من هذه النزعة فى بعض النفوس التى غلبت عليها البداوة ، فإنها لم تعلن هذه النزعة ، ولم تجعلها محركا لحياتها وجوانب عيشها ، وإنما أغلقت عليها قلوبها ، وتركتها مجرد مشاعر أو خواطر ، قد يزهو بها بعضهم أو يختال ، ولكنه لا يتشدق بها علنا ، أولا يجعلها محركا ومؤثرا واضحا فى سلوكه وصلاته ، ولا يخل بهذا الحكم إن وجدنا صوتا أو أصواتا شاذة مفردة .

ولكن الشعراء فى مجموعهم أو غالبيتهم العظمى ، هم الطائفة التى ظلت متشبثة بهذه العصبية الجاهلية ، ولم يتركوها حبيسة قلوبهم ، وإنما أعلنوها إعلانا صريحا واضحا ، بل دعوا غيرهم إليها دعوة ملحة قوية ، ولولا أن المشاعر الدينية حينئذ كانت أقوى من تأثير الشعر ، لكانت دعوة الشعراء هذه مثارا صاخبا عنيفا للحمية الجاهلية ، والعصبية البغيضة . فمن العجيب أن الشعراء المخضرمين ، رغم مصاحبتهم لأزهى فترة فى الإسلام ، بل رغم قرب بعضهم الشديد من النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك لم يستطع أن يخبى جذوة العصبية الجاهلية فى نفوسهم ولا فى ألسنتهم ، فهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول ، وأشهر شعراء الإسلام ، لم يستطع التخلى عن تعصبه لقحطانيته اليمنية ، ضد العدنانية الحجازية ، ورغم أن شعر حسان كان دفاعا مجيدا مؤثرا عن الإسلام ضد أعدائه ، فى مواقف كثيرة ،

فإنه ظل فى كل هذه المواقف يردد تعصبه الواضح لقبيلته من الأنصار خاصة ، ولقومه من نسل قحطان عامة .

بين القحطانية والعدنانية :

من المعروف لدى علماء الأنساب أن العرب يرجعون فى أصلهم إلى أبوين عدنان وقحطان ، فأما قحطان فتنتمى إليه قبائل اليمن ، ومنها كندة وطيء وقضاعة ، وبجيلة ، ومذحج ، وزبيد ومراد وخثعم ، وثمالة ودوس ، وعنس والحارث بن كعب ، والأزد بفروعها العديدة . وكل هذه القبائل كانت أصلا فى اليمن حينما كان مزدهرا بالزراعة والحضارة فى أجياله القديمة ، حتى تهدم سد مأرب فى قصة سيل العرم التى ذكرها القرآن الكريم ، عندئذ حدثت هجرات كثيرة لأغلب هذه القبائل ، التى انتشرت فى وجهات كثيرة أغلبها نحو الشمال ، وأصبحت القبائل اليمنية بعد هذا التاريخ غير محددة الأماكن ولا الكيان على وجه الدقة ، لعدة أجيال تالية ، ذلك أن القبائل لم تهاجر دفعة واحدة ، ولم يهاجر من هاجر فى زمن واحد ، والذين هاجروا لم يستقروا فى مكان واحد ، بل أخذوا ينتقلون ، ويرحلون ثم يقيمون التماسا للعيش المستقر ، أو القريب من الاستقرار ، ثم إن القبائل التى هاجرت ، لم تهاجر كلها ، بل كثيرا ما كان يهاجر بعض القبيلة ويبقى بعض منها ، كما حدث فى قبيلة الأزد ، التى لم يكد يخلو منها ركن من أركان الجزيرة العربية بعد السيل المشار إليه ، فقد بقى فرع من القبيلة فى الجنوب الشرقى من الجزيرة العربية قرب مسقط ، وهم

أزد عمان ، ورحل فرع آخر ، استقر فيما يبدو أول الأمر قريبا من الطائف ومكة ، وهم المسمون أزد السراة ، ثم تفرق منهم بعض آخر انتشر فى فروع كثيرة ، كان منها أولاد قيلة ، الأوس والخزرج ، الذين استقروا فى يثرب ، وكان منهم آل غسان ، الذين آثروا شمال الجزيرة ، وهم جزء من أزد الحيرة ، وقريب منهم أزد تنوخ ، وأما فى الحجاز ونجد ، فقد تفرع من الأزد عدة فروع ، منهم قبائل خزاعة ، ودوس ، وبارق ، وغامد ، ثم ظلوا يواصلون التنقل مع الفتوحات الإسلامية ، حتى كان منهم فرع كبير فى خراسان ، عرفهم التاريخ فى جيوش أبى مسلم الخراسانى [1] ولكنهم مهما أبعدوا فى الرحلة ، ومهما استقر بهم المقام ، فإنهم لم ينسوا أصلهم اليمنى ، وظلت نفوس هذه القبائل النازحة من اليمن مشدودة بعواطفها إلى أرض اليمن ، وبمشاعرها للعنصر اليمنى ، وظل كثير من شعراء هذه القبائل يتغنون بانتمائهم إلى القحطانية ، مدافعين عن هذا الانتماء ، مهاجمين لكل من يمس هذه القطانية ، ومنهم حسان بن ثابت كما أشرنا آنفا ، والذى كان وضعه فى الإسلام يقتضى ألا يكون تعصبه لقحطانية أو عدنانية ولا لقبيلة ، أو عنصر ، إنما يكون تعصبه للإسلام والمسلمين ، لأنه فى موقف يدافع فيه عن المسلمين عامة ، قحطانيهم وعدنانيهم ، ضد الكافرين عامة ، قحطانيهم وعدنانيهم أيضا ، ومثال ذلك قصيدته المشهورة التى توعد فيها قريشا ، وتوقع فيها أن يدخل المسلمون

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة تأليف عمر رضا كحالة .

بخيلهم مكة فاتحين ، فلا يجدون من يدافعهم ، إلا نساء مكة يلطمن وجوه الخيل بخمرهن ، حيث يقول :

تظل جيادنا متمطرات تلطِّمُهن بالخمر النساء

والتي تذكرها النبي حينما تحقق هذا التوقع فى فتح مكة ، فتبسم قائلا لأبي بكر : ماذا قال حسان ؟ فساق أبو بكر هذا البيت . ففى هذه القصيدة تغلب حسانا نزعة التعصب الجاهلى للقحطانية العدنانية ، فيقول :

لنا فى كل يوم من مَعَدٍّ قتال أو سباب أو هجاء

فالمفروض أنه يهاجم بشعره المشركين ، صارفاً نظره عن كونهم من قحطان ، أو من معد بن عدنان ، ولكنه بدل ذلك هاجم العدنانيين ، مع أن منهم النبى والمهاجرين الذين يريد حسان أن يدافع عنهم بوصفهم جميعا مسلمين ، ولم يستطع فى هذه القصيدة أيضا أن يتخلى عن تعصبه للأنصار ، متجاهلا المهاجرين ، فيقول [1]

وقال الله : قد سَيَّرت جندا هم الأنصار عُرضتها اللقاء

مع أن الجند الذين يدافعون عن الإسلام ليسوا الأنصار وحدهم . وكما عرف عن حسان بأنه كان فى الجاهلية شاعر التعصب للأنصار فإنه ظل فى الإسلام شاعر التعصب للأنصار خاصة ، ولليمن عامة [2] وما من شعر قاله حسان فى الإسلام ، أو دافع به عن المسلمين ، إلا

(١) سيرة ابن هشام ٤ – ٨٧٨

(٢) انظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ٢ – ٥٧

وكانت فيه إشادة بعنصره الأنصارى أو اليمنى ، وفخر شديد بأصله ونسبه ، كقوله مقررا أنهم ملوك الناس وسادتهم : (١)

كنا ملوك الناس قبـل محمد فلما أتى الاسلام كان لنا الفضل
أولئك قومى خير قوم بأسرهم فمـا عُدَّ من خير فقومى له أهل

وكقوله ينفى أن أحدا ملكهم أدنى زمن ، ولو كتحلة القسم : (٢)

قـومى أولئك إن تسألى كـرام إذا الضيف يوما ألمّ
فكانـوا ملوكا بأرضيهم ينـادون غضْبـاً بأمر غشم
ملوكا على الناس ، لم يُمْلكوا من الدهر يوما ، كحل القسم

بل إن حسان بن ثابت ، مع حبه الواضح لشخص النبى ، هذا الحب الذى يكاد يكون الميزة الوحيدة فى حسان من الناحية الدينية ، نقول : مع ذلك فإنه يجرؤ يوم حنين على أن يعاتب النبى عتابا قاسيا ، يبلغ حد اللوم ، على أنه قدم قبائل أخرى كبنى سليم على الأنصار فى قسمة الغنائم ، فكان مما قاله (٣) :

عَـلامَ تدعى سُليم وهى نازحةٌ قدّام قوم هُمُ آووا وهُمْ نصَرُوا ؟

وحتى فى رثائه للنبى صلى الله عليه وسلم ، لم يستطع أن ينسى تعصبه للأنصار ، وخوفه على مجد الأنصار وكيانهم ، كقوله (٤)

---

(١) سيرة ابن هشام ٤-٩٨٢
(٢) سيرة ابن هشام ٤-٩٨٣
(٣) سيرة ابن هشام ٤-٩٣٤
(٤) المصدر السابق ٤-١٠٨٢

يا ويح أنصار النبي ورهطه بعد المُغيَّب في سواء الملحد
ضاقت بالانصار البلاد فأصبحوا سُوداً وجوههم كلون الإثمد

وإذا كان حسان قد عرف بالتعصب لليمنية في الإسلام ، فلم يكن وحده المعروف بهذا التعصب ، وإنما لهج بهذه العصبية شعراء آخرون سواء من القبائل التي ظلت مقيمة في اليمن ، كزبيد ومذحج ومراد وكندة ، أو القبائل التي انتشرت في الحجاز ونجد وشمال الجزيرة وسواحل عمان من شرقي الجزيرة ، ومن هؤلاء الشعراء الذين ظلت ألسنتهم تهدر بالعصبية اليمنية عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، الذي لم ينس هذا الفخر اليمني حتى في حديثه عن بلائه في القادسية ، مع أنه كان خليقا حينئذ أن يرفع في فخره راية الإسلام ومجد المسلمين ، ولكنه بدل ذلك ، رفع راية اليمن ، وأخذ يسرد الأمجاد اليمنية ، حتى استغرقت كل قصيدته النونية ، ولولا قوله [٣]

والقادسية حيث زاحم رستم كنا الحماة بهن كالأشطان
ومضى ربيع بالجنود مشرقا ينوى الجهاد وطاعة الرحمن

لما كانت هناك علاقة قط بهذه القصيدة الطويلة والإسلام ، ولو ادعى مدع حينئذ أنها قصيدة جاهلية ، لما كان في القصيدة ما ينفي هذا الادعاء ، وأطول من هذه القصيدة ، وأشد منها إيغالا في التعصب لليمنية ، قصيدته الدالية ، التي يتخذ منها ما يشبه التاريخ للوقائع

---

(١) الأمالي للقالي ٣-١٤٥ وما بعدها

والأمجاد اليمنية [1] . ومن هؤلاء الشعراء الذين عرفوا بالعصبية اليمنية الأجدع بن مالك الهمدانى ، الذى تغنى بأمجاد همدان اليمنية وبكل ما يتعلق بشدة بأسهم وصلابة أسلحتهم وبراعة خيلهم ، كقصيدته العينية [2] . ومنهم مالك بن نمط الهمدانى ، الذى كان فى وفد همدان إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فظل يسرد أمجاد همدان بين يدى النبى ، بشعره ونثره ، متغنيا حتى بأماكنهم وهضابهم [3] وكذلك كان كعب ابن مالك حتى فى أوج انفعاله بالشعر الدينى يوم بدر لم ينس أنه يخاطب معد بن عدنان كلها وليس قريشا أو المشركين [4] .

الجذور الجاهلية :

من البدهى ألا تثور عصبية أو تنافس بدون جذور أو أسباب ، فهذه العصبية بين القحطانيين والعدنانيين يمكن أن تلتمس لها أسباب قديمة عديدة ، منها الاشتراك فى النسب والبيئة بينهما ، فحتى لو بقيت القبائل اليمنية فى يمنها ، والعدنانية فى أماكنها من وسط الجزيرة ، فإن الاشتراك فى أى مقومات هو بطبيعته من دواعى التنافس ثم الاحتكاك والصراع ، ولكن بعض القحطانيين تجاوزوا ذلك إلى مزاحمة العدنانيين فى معيشتهم ومصدر حياتهم من المرعى والمشرب ، حين هاجروا من اليمن وانتشروا فى سائر أنحاء الجزيرة كما أشرنا

(١) الأمالى للقالى ٣ – ١٤٨ وما بعدها
(٢) الاصمعيات للأصمعى ٦ وما بعدها
(٣) سيرة ابن هشام ٤ – ١٠١٧
(٤) انظر خزانة البغدادى ١ – ٤١٨

فزاد هذا من احتكاكهم بالعدنانيين ، ومن مزاحمتهم ومنافستهم ، ثم مصارعتهم ، حتى وصل هذا الصراع إلى درجة الحرب الطاحنة بين العنصرين ، ومن أشهر هذه المعارك بينهما .

١ – يوم الكلاب [1] الذى بدأ أولا بطمع القبائل اليمنية فى قبائل بنى تميم ، حين هزمت تميم فى مواجهة قوات كسرى يوم الصفا بالمشقر [2] ، فجمعت القبائل اليمنية نحو اثنى عشر ألفا تتزعمها قبائل مذحج وهمدان وكندة ، واحتشدت أحياء من تميم على رأسها بنو سعد والرباب ، وكان على رأس جموع اليمن عبد يغوث بن صلاءة شاعر مذحج ، وعلى رأس جموع تميم قيس بن عاصم المنقرى ، خطيب تميم ومن شعرائها ، وبعد اشتداد القتال كانت الغلبة لتميم على اليمنيين الذين هزموا هزيمة منكرة ، ولكن الذى يعنينا من ذلك أن مثل هذا الصراع الذى يبلغ هذه القمة الدموية ، لا ينتهى بدون رواسب فى النفوس ، وإنما تظل آثاره ماثلة تتوارثها الأجيال ، وقد أثمرت هذه الموقعة شعرا كثيرا تناقله العرب فى هذا الوقت السابق للأسلام بقليل ، ومنه رجز قيس بن عاصم أثناء القتال ، ومنه شعر عبد يغوث ، وبخاصة قصيدته المشهورة التى قالها وهو أسير عند بنى

---

(١) بضم الكاف وهو مكان فى بلاد بنى تميم التى تقع شمال نجران واليمامة وشرق نجد وغرب البحرين توازى مكة تقريبا إلى الشرق انظر خريطة العرب القديمة بالوسيط فى الادب العربى للأسكندرى وعنانى ص ٢

(٢) المشقر بفتح القاف المشددة مدينة هجر انظر خريطة ديوان عامر بن الطفيل لابن الانبارى ٦٢

عمير بن عبد شمس ، يحن إلى ربوعه من شمال اليمن ، ويعاتب العيشمية التي سخرت منه ومنها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم مابيا فما لكما في اللوم نفع ولاليا
فياراكبا إما عرضت فبلغن نداماى من نجران ألا تلاقيا
وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا
أقول وقد شدوا لسانى بنسْعَة أمعشر تيم أطلقوا لى لسانيا [1]

وقد ظلت هذه الموقعة موردا خصبا لشعراء كلا الفريقين وشواعرهم ، وكان من شعراء اليمن الذين أسهموا بشعرهم بعد هذه الموقعة البراء ابن قيس الكندى ، ولكننا نلحظ أن كثيرا من الشعر المنسوب إلى اليمنيين يكاد ينطق بأنه مخترع منحول على اليمنيين ، اخترعه بطبيعة الحال شعراء من تميم ، ونسبوه إلى شعراء يمنيين ، يسجلون عليهم فيه الهزيمة ، أو الاعتراف بقوة تميم وعظمتها ، ومن ذلك هذا الشعر المنسوب إلى البراء بن قيس الكندى اليمنى ، ومنه :

قتلتْنا تميمٌ يوما جديدا قتل عاد وذاك يوم الكلاب
يوم جئنا يسوقنا الحين سوقا نحو قوم كأنهم أسد غاب
وحشدنا الصميم نرجو نهابا فلقينا البوار دون النهاب
لقيتنا أسود سعد ، وسعد خلقت فى الحروب سوط عذاب

(١) الأغانى للأصفهانى ١٦ - ٣٣٤ (طبعة مصورة عن دار الكتب)
(٢) الآية ١٣ سورة الفجر

فواضح منه أنه شعر شاعر تميمى ، يفخر على لسان يمنى ، بان تميما قتلتهم قتل عاد ، وأنهم لقوا بدل الغنيمة أسودا وموتا ، وأن بنى سعد طراز متميز بين الناس بالباس الشديد ، بل إن هذا الشعر ينطق بانه إسلامى حيث يقتبس من القرآن تعبير (سوط عذاب) من قوله تعالى (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ومن الشعراء العدنانيين الذين أسهموا بشعرهم فى الحديث عن هذه الموقعة محرز الضبى ، وأوس بن مغراء ، وغيلان بن عقبة ، ووعلة بن عبد الله الجرمى[1] .

٢ – ومن أشهر معارك القتال بين القحطانيين والعدنانيين يوم فيف الريح وهو اسم المكان الذى دارت فيه الحرب فى نجد ، وكان ذلك قبيل الإسلام بوقت قصير وكانت أساسا ضد قافلة لكسرى ، تحمل له المسك من اليمن ، فعدا عليها بنو تميم فانتهبوها ، وانضم إليهم أحلاف من القبائل الاخرى ، وغضبت مذ حج اليمنية لرجالها الذين يحرسون القافلة ، والذين كون منهم باذان عامل كسرى على اليمن هذه القافلة ، فانضم بعض أحياء هوازن إلى تميم ، ومنهم بنو عامر بن صعصعة ، وعلى رأسهم عامر بن الطفيل ، الذى أصيبت عينه يومئذ بطعنة من مسهر بن يزيد الحارثى اليمنى ففقئت ، وقد أسهم أيضا

---

(١) انظر أشعارهم فى الأغانى للأصفهانى ١٦ – ٣٣٥ وما بعدها

شعراء كثيرون من كلا الفريقين اليمنى والعدنانى ، بشعرهم فى التغنى بامجاد كل فريق فى هذه الموقعة ، أو فى التعقيب على بعض أحداثها ، ومن أشهر الشعراء العدنانيين الذين تحدثوا عن هذه الموقعة عامر بن الطفيل ، الذى يتحدث عن إصابة عينه يومئذ ، وعن مقتل مسهر اليمنى الذى فقأها ، وعن فرسه المزنوق ، ومن ذلك قوله[1] :

وقــد عــلم المزنوق أنى أكــرُّ عشية فيف الريح كر المشهر[2]
إذا ازورَّ من وقع الرماح زجرته وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر
لعمرى وما عمرى علىَّ بهيِّــن لقد شان حُرَّ الوجه طعنة مُسْهِرِ

ومن الشعراء العدنانيين الذين تحدثوا عنها الاعشى ميمون القيسى ، ولكنه لم يتوجه بشعره حينئذ ضد اليمن ، وإنما ضد تميم متعصبا لقبيلة قيس ، شامتا فى بنى تميم كقوله :

سائل تميما بهم أيام صفقتهم لما أتوه أسارى كلهم ضرَعا[3]

وقد أفاض عمرو بن معديكرب الزبيدى اليمنى فى الحديث بشعره عن موقعة فيف الريح ، مشيداً بانتصارهم على أحياء هوازن ، وبخاصة بنى عامر بن صعصعة رهط عامر بن الطفيل ، وبنى جشم وبنى سليم ،

---

(١) شرح ديوان عامر بن الطفيل لابن الأنبارى ٦١ وما بعدها والامالى للقالى ٣ – ١٤٧
(٢) أكره : أجعله يكر والمشهر الكريم المشهر
(٣) يوم الصفقة هو عيد فصح النصارى وكان هوذة بن على الحنفى أحلاف قيس قبيلة الأعشى قد أفتدى من عامل كسرى مائة من أسرى تميم يوم الصفقة فالشاعر يمن على تميم ذلك انظر شرح ديوان عامر االطفيل لابن الانبارى ٦٤

وقد أورد عمرو فى بعض هذا الشعر معانى لا تخلو من غرابة على العرف حتى فى الجاهلية كقوله (١) :

فلم نقتل شرارهمُ ولكـــن قتلنـــا الصالحين دوى السلاح
قتلنـــا مطعم الاضياف منهم وأصحاب الكريهـــة والصباح

وهو يريد أن يقول إننا لا نهتم بقتل عامة الناس ورعاعهم ، وإنما نعمد إلى السادة والوجوه والاكفاء ، ولكن اختياره للالفاظ جعله يبعد ولو قليلا عما يريد ، وجعل الاسماع تنبو ولو كانت أسماع الجاهلية عن سماع هذا الفخر ، فإن العرب تمجد مطعم الضيف ، وصاحب المكارم ، ولا ترى فى العمد إلى قتله حمدا ولا مجدا ، ولعمرو ابن معد يكرب قصيدة دالية طويلة ، تفيض إشادة بامجاد قبائل اليمن من مراد وعنس ومذحج وزبيد وقبائل أخرى ، وتفيض فخرا ببأسهم الشديد ، وبما أوقعوه فى أعدائهم من أحياء تميم وهوازن ، ومن الطبيعى أن يتصدى شعراء تميم وهوازن للرد على شعراء اليمن .

وفى كل حال فإن العصبية بين القحطانية والعدنانية التى برزت ولم تختبىء ولم تتقنع حتى فى أزهى فترات الحماس الدينى ، هذه العصبية لم تكن وليدة وقتها أو جيلها ، وإنما كانت موغلة العراقة والقدم ، ولم تكن جذورها سببا واحدا ، وإنما هى أسباب عديدة متشبعة ، بعضها نابع من طبيعة العلاقات الاجتماعية ، وبعضها من أحداث الحياة المعيشية ، وبعضها من غير ذلك . ولكن الذى يعنينا

---

(١) الامالى ٣-١٤٧

من ذلك كله ، أن هذه العصبية كانت ظاهرة واضحة فى شعر الشعراء المخضرمين ، سواء فى شعرهم الإسلامى ، أوفى شعرهم الجاهلى .

ولكننا لا ينبغى أن نغفل أنه مهما تعددت جذور العصبية بين بنى قحطان وبنى عدنان ، فإن صلب هذه الحساسية بينهما يمثل نوعا من العنصرية ، بمعنى أن أساس هذه العصبية بينهما كان مجرد شعور كل منها بأنه ينتمى إلى عنصر أو نسب غير نسب الآخر ، وكان هذا فى ذاته كافيا لأن يجعل كلا منهما فريقا مستقلا عن الآخر ، ومعسكرا مختلفا عن صاحبه ، وكان يمكن أن يظل كل فريق منهما متحاشيا للآخر ، أو غير مصطدم به لو أن القحطانيين ظلوا فى يمنهم ، ولكن هجرتهم إلى الشمال ، ومزاحمتهم للعدنانيين فى أماكنهم ، وفى أسباب معيشتهم ، جعلت بينهما تنافسا ومزاحمة ، ثم احتكاكا ومصارعة وإن لم تكن مصارعة بالسيوف فهى بالسنة الشعراء .

بين القبائل :

لم تكد تعرف الجزيرة العربية عنصرية أو إقليمية سوى ما كان بين بنى قحطان ، وبنى عدنان ، فقد كانت أبرز سمات العصبية بينهما لمجرد انتماء كل منهما إلى عنصر ونسب مستقل ، أما فيما عدا ذلك ، فإن العصبية كانت بين القبائل فرادى ، وكان الذى يثير العداء والصراع بين هذه القبائل ليس الانتماء إلى نسب معين أو إقليم معين ، وإنما كان فى أغلب الاحيان الصراع على أسباب المعيشة من الماء والكلا ، كما يصور عمرو بن كلثوم فى معلقته أهمية الصراع

بين القبائل على موارد الماء ، وأن الاقوى هو الذى يتاح له أن يشرب الماء الصافى ، ثم يترك القاع العكر لمن يليه فيقول[1] :

ونشرب إن وردنا الماء صفـواً   ويشرب غيرنا كدرًا وطينـــا

فإنه وان كان يريد أنهم أقوى القبائل ، إلا أنه عبر بابرز مظاهر القوة فى مجتمعهم ، وهي مغالبة الغير على وسائل العيش المحدودة فى هذه البيئة . ثم تاتى كل مثيرات الصراع بعد ذلك أسبابا ظاهرية ، أو أحداثا مباشرة ، أو خلافات فردية ، وقد يؤدى ذلك إلى حروب طاحنة ، وقد نردها إلى أسباب مشهورة أو معروفة ، ولكن الحقيقة أن الصراع متاصل فى نفوس القبيلتين ، وهو مهيأ لاى حدث عابر يصبح كالقشة التى قصمت ظهر البعير ، فيبدو على السطح أن هذا الحادث هو سبب الحرب ، ولكن القاع العميق من تحته يخبر بان هذا الحادث ليس إلا سببا ظاهريا ، كان يمكن علاجه ، ومحو آثاره لو أن النفوس لم تكن محملة بهذا التنافس الرهيب على أسباب العيش والحياة ، ويكفى أن يكون من عوامل هذا التنافس حرص كل قبيلة على أن تكون هى الاقوى ، لان قوتها تمكنها من كل شيء ، وضعف منافسها يحرمه أيضا من كل شيء ذى أهمية .

وقد كانت فى العرب أنساب أساسية يمكن أن تتكون منها عنصرية أو إقليمية ، ففى العرب قسمان أساسيان من حيث النسب ، أحدهما قبائل ربيعة ، التى كان من أشهرها قبائل عبد القيس ، على الساحل

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ١٠٨

الشرقى للجزيرة فيما يلى الجنوب ، وبنو بكر وتغلب قرب الساحل الشرقى للجزيرة فيما يلى الشمال ، وبنو حنيفة فى منطقة اليمامة ، والقسم الآخر قبائل مضر ، التى من أشهرها قريش رتميم ومزينة وهذيل وقد استوطنت معظم قبائلها فى وسط الجزيرة وغربها منتشرة بين نجد والحجاز ، ويتفرع من قبائل مضر فرع أساسى آخر ، هو قبائل قيس ، التى تسمى قيس عيلان والتى كان من أشهرها قبائل هوازن وما تفرع منها من بنى سعد ، وبنى ثقيف رغيرهما ، وقبائل غطفان وما تفرع منها من بنى عبس ، وبنى ذبيان ، وغيرهما [1] .

فقد كان يمكن أن يصبح الربعيون والمضريون عنصرين ، كما كان القحطانيون والعدنانيون ، ولكننا لا نحس لهذا النسب أثرا فى العنصرية ، سواء فى حروب السيف ، أو فى حروب اللسان ، بمعنى أنه لم تكن سواء فى الجاهلية أو فى الإسلام حروب بينهما ، ينضم فيها بعضهم إلى بعض لمجرد أنه ربعى أو مضرى ، ولم تكن بينهما مهاجاة أو تنافس أدبى ، ينضم فيه بعضهم إلى بعض لمجرد أنه مضرى أو ربعى . وكذلك بنو قيس ، وإن كانوا قد تميزوا عن باقى المضريين بنسب مستقل ، إلا أن هذا النسب لم يتحول إلى عنصرية ، ولم يظهر له أثر ، سواء فى حروب السيف أو اللسان ، وان كان بعض الباحثين يشير إلى عصبية من هذا القبيل فى سياق الحديث عن نحل الشعر دون دليل على أثر هذه العصبية الموجه إلى قوة أخرى ،

---

(١) انظر تاريخ الاسلام حسن أبراهيم ١-٩-١٨

أو كيان آخر [1] ومجرد اعتزاز أحد بنفسه أو فخره بمقوماته ، لا يصلح دليلا على أنه يهاجم بهذه العزة أو هذا الفخر أحدا آخر .

وكذلك كانت فى الجزيرة أقاليم تكاد تكون محددة متميزة ، كالحجاز ، ونجد ، وتهامة ، واليمامة ، ومع ذلك لم يكن لهذه الأقليمية أثر فى العلاقات الاجتماعية ، سواء بالتقارب أو التنافر .

وإنما كان الصراع الدائم ، والبالغ الشدة والعنف ، بين القبائل فرادى ، حين تصطدم مصالح القبيلتين ، إصطداما ماديا بوقوع أحداث بينهما ، أو أدبيا معنويا بمجرد التنافس على أن تكون كل منهما هى صاحبة السيادة والقوة ، ولذلك نجد أغلب الحروب الجاهلية بين القبائل كانت بين أشد القبائل قربا لبعضها جوارا أو نسبا ، ومن ذلك هذه الحرب الطاحنة بين بنى عبس وبنى ذبيان ، وعبس وذبيان أخوان ، من بنى غطفان ، هذه الحرب التى عرفت بحرب داحس والغبراء ، وهما فرسان أعدا للسباق فى قصة معروفة ، وقد أبلى فى الإصلاح بين القبيلتين رجلان من خيار العرب ، هما الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، بعد أن أوشكت الحرب على تدمير القبيلتين ، ولذلك يخاطبهما زهير بن أبى سلمى فى معلقته فيقول :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطرمنشم [2]

---

(١) انظر فى الادب الجاهلى د. طه حسين ٢٤٥ وما بعدها

(٢) شرح ديوان زهيرة لثعلب ١٥ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ٦٣ ومنشم امرأة كانت تبيع العطر فاشترى جماعة منها عطرا وغمسوا أيديهم فيه متعاهدين على القتال حتى الموت فقتلوا جميعا فضرب المثل بعطرها

ومن هذه الحروب حرب البسوس ، التى دامت فى الجاهلية بين بنى بكر وبنى تغلب نحو أربعين عاما ، أو شكت فيها على إهلاك الحرث والنسل ، وظل أوار الحرب التى أشعلها المهلهل بسيفه وشعره متعاظم الاشتعال ، حتى استطاع الحارث بن عباد أن يساعد على إخمادها بسيفه وفرسه المسماة النعامة ، حين لم يجد بدا من اشتراكه فى الحرب ، بعد أن قرر اعتزالها ، وبعد أن قتل المهلهل ابنه الذى جعله أبوه الحارث رسول صلح إليه ، فدعا الحارث فرسه ودرعه بقصيدته المشهورة .

قربا مربط النعـامة منى قرباهـــا وقربا سر بالى

قـــربا مـــربط النعامـــة منى لقحت حرب وائل عـن حيال

هذا مع أن بكرا وتغلب أخوان ، من أبيهما وائل بن جديلة (١)

ولم تثر قط حروب بين عناصر من العرب ، لمجرد انتمائها إلى نسب أو إقليم ، فلم تثر حرب بين المضريين والربعيين ، ولم تثر حرب بين أحدهما وبنى قيس ، ولم تدر حرب بين أهل نجد والحجاز ، أو بين أهل نجد واليمامة .أو نحوذلك ،فالعنصرية الوحيدة فى الجزيرة العربية قبل الاسلام كانت بين القحطانيين والعدنانيين ، ثم استمرت فى عصور إسلامية متوالية ، حتى كانت من الأصوات البارزة المسموعة فى العصر العباسى كله . وفيما عدا ذلك ، كانت العصبية محصورة بين القبائل التى يجمعها رباط يدعو إلى التنافس .

---

(١) تاريخ الاسلام د . حسن ابراهيم ١ - ١٠ .

ولكننا فى سياق حديثنا عن الشعراء المخضرمين نريد أن نبرز معنى ذا أهمية فى الموضوع ، وهو أنه وإن كان الاعتزاز بالنسب والانتماء غير بغيض فى الإسلام كما سبق ، إلا أنه حينما يوضع بجوار الإيمان ، أو الاعتزار بالدين ، وبخاصة فى هذه الآونة الزاهية من حياة النبى صلى الله عليه وسلم وما تلاها ، فإن المسلمين كانوا يرونه ويرون أى شىء سوى الدين صغيرا ويسيرًا حينما يوزن بدينهم .

الشعراء والعصبية القبلية :

ولكن الشعراء لم يكونوا كذلك ، فلم يكن اعتزازهم بالدين فى المقام الأول كما كانت النزعة المسيطرة على المسلمين حينئذ ، وإنما ظلت النزعة الجاهلية فى عبادة الأنساب ، والتهالك على العصبية القبلية بارزة واضحة فى شعرهم ، وإذا استثنينا بضعة شعراء ، كلبيد بن ربيعة العامرى ، وخفاف بن ندبة السلمى ، والنمر بن تولب القيسى ، وفروة بن عمرو الجذامى ، نجد أن الشعراء لم يكادوا ينتقلون من الجاهلية إلى الاسلام ، ولم يكادوا يتجاوزون فى الإسلام صورة العصبية القبلية التى كانوا يديرونها فى الجاهلية .

فهذا شاعر من أشهر الشعراء المخضرمين ، هو العباس بن مرداس السلمى ، كان من الفرسان البارزين فى جيش المسلمين عند فتح مكة ويوم حنين ضد هوازن ، وكانت قبيلته بنو سليم من القبائل التى صدقت فى إسلامها وبلائها يومئذ ، وقد بلغ من كثرة المنضمين منهم

إلى جيش المسلمين أن عقد لهم النبى لواء خاصا بهم ، وكان هذا كله كفيلا بأن يقوى من حماس العباس للدين الذى يدافع عنه ، وأن يبدو أثر هذا الحماس والانفعال فى شعره ، ولكنه كان على عكس ذلك منفعلا بتعصبه لقبيلته ، انفعالا يكاد ينسيه حماسه للدين ، وتعصبه للمسلمين ، ولا يكاد يذكر إلا الألف مقاتل الذين انضموا من بنى سليم إلى جيش النبى يومئذ ، وهو يتحدث حقا عن النبى وعن الإسلام لكنه فى أغلب الأحيان إنما يتخذ من هـذا سبيلا إلى إعلاء شأن بنى سليم ، والإشادة بمجدهم ، كقوله :

فجئنا بألف مـن سليم عليهـم ... لبوس لهم من نسج داود رائع

نبايعه بالاخشبين ، وإنمـا ... يد الله بين الاخشبين نبـايع

فجسنا مع المهدى مكة عنوة ... بأسيافنا والنقع كاب وساطع

علانية والخيل يغشى متونهـا ... حميم وآن من دم الجوف ناقع

ويوم حنين حين سارت هوازن ... إليه وضاقت بالنفوس الأضالع

صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا ... قراع الاعادى منهم والوقائـع

أمام رسول الله يخفق فوقنـا ... لواء كخذروف السحابة لامع

عشية ضحاك بن سفيان معتص ... بسيف رسول الله والموت كانع[1]

فموضوع الشعر ليس الاسلام ، ولا الدفاع عن المسلمين لذاته وإنما موضوعه بنو سليم وأمجادهم وشجاعتهم ، ولم يكن الإسلام إلا

---

(١) سيرة ابن هشام ٤-٩٠٩

فرصة لإظهار مجدهم وشدة بأسهم فى رأى الشاعر ، وكل أشعار العباس فى الإسلام تسير على هذا المنهج ، بنو سليم موضوع الشعر ، والاسلام وأحداثه وسيلة إلى إثبات أمجادهم وشدة باسهم فى الحرب ، بل لم ير العباس بأسا بأن يدعى أنه لولا بنو سليم لحاقت بالمسلمين فى حنين هزيمة منكرة ، يصبحون فيها غنيمة لهوازن ، مدعيا أن النبى جعل من سليم محورا للحرب ، ولم تتوقف الحرب إلا حينما توقف بنو سليم عن القتال ، ومن هذا القبيل قوله [1] .

فهناك إذ نصر النبى بألفنـا ... عقد النبى لنا لواء يلمـع
فزنا برايته وأورث عقـده ... مجد الحياة وسؤدداً لا ينزع
نصر النبى بنا ، وكنـا معشرا ... فى كل نائبة نضر وننفـع
ذدنا غداتئذ هـوازن بالقنا ... والخيل يغمرها عجاج يسطع
إذ خاف حدهم النبى وأسندوا ... جمعا تكاد الشمس منه تخشع
حتى إذا قال الرسول محمد ... أبنى سليم قد وَفيْتُم فارفعـوا
رحنا ولولا نحن أجحف بأسهم ... بالمؤمنين وأحرزوا ما جَمَّعـوا .

وكل ما وصل إلينا من شعر العباس فى الإسلام – وهو كثير – يدور حول هذا المعنى ، وحول معان تقرب منه ، ولكنها لا تمثل الاعتزاز بالإسلام ، وإنما بالقبيلة ، ولا تمثل القتال حبا فى الجهاد أو إعلاء كلمة الله ، بمقدار ما تمثل الرغبة فى إثبات مجد بنى سليم وتفوقهم

---

(١) سيرة ابن هشام ٤–٩٠٨

على سائر الناس ، وفى سبيل ذلك يشير أحياناً إلى التعريض بمنافسيهم أو بمن يراهم الناس أولى من بنى سليم باستحقاق شرف السبق فى نصرة الإسلام وهم الأنصار ، وهذه حقيقة تعد جزءاً من الإسلام نفسه ، ولا ينكرها إلا الذين يعميهم عنها التعصب لقبائلهم كالعباس ابن مرداس ، الذى نراه يعرض بالانصار المشهورين بزراعة النخل فى يثرب ، وباهل اليمن المعروفين بكثرة البقر فى موطنهم ، مشيراً إلى أن بنى سليم خير من أولئك وهؤلاء ، حيث يقول [1]

واذكر بلاء سليم فى مواطنها	وفى سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا	دين الرسول وأمر الناس مشتجر
لا يغرسون فسيل النخل وسْطهمُ	ولا تخاور فى مشتاهم البقر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا	للدين زا وعند الله مدخر
إذ نركب الموت مخضرًا بطائنه	والخيل ينجاب عنها ساطع كدر
تحت اللواء مع الضحاك يقدمنا	كما مشى الليث فى غاباته الخدر [2]

وكذلك كان أبو محجن الثقفى ، من خيرة فرسان العرب ، وصفوة شجعانهم ، وله موقف يذكره التاريخ يوم القادسية ، حين احتال للخروج من محبسه ليشارك المسلمين فى القتال ، حين اشتدت

(١) سيرة ابن هشام ٤ – ٩١١

(٢) الضحاك بن سفيان بن عوف الكلابى الذى تحدث عنه هنا وفى الأبيات السابقة كان من أمراء سرايا النبى انظر تلقيح فهو أهل الأثر ٧٥ – وهو غير الضحاك بن عبد الله صاحب أمر بنى سليم . انظر الشعر لابن قتيبة – ٧٤ ومن المعروف أن صاحب لواء بنى سليم كان خفاف بن ندبة ولكن العباس كان يهاجيه فلعله ينكر إمارته انظر الشعر لابن قتيبة ١ – ٣٤١

عليهم الحرب ، وكان أبو محجن يومئذ من أبرز الأسباب المباشرة فى نصرة المسلمين ، ومع ذلك حين عاد من من موقفه هذا الباسل ، لم تثر فى نفسه مشاعر الإيمان ، ولا مشاعر نصرته للإسلام ، وإنما سيطر عليه شعور الاعتزاز بقومه من بنى عوف من ثقيف . فراح يتغنى بمثل قوله [1] :

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا

وأكثرهم دروعا سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

وليلة قادس لم يشعروا بى ... ولم أكره بمخرجى الز حوفا

فإن أحبس فقد عرفوا بلائى ... وإن أطلق أجر عهم حتوفا

وكون التعصب للقبيلة ، والاعتزاز بالآباء والأمجاد ، أظهر فى شعر المخضرمين من النزعة الدينية ، هذه سمة واضحة وغالبة على شعرهم كله ، فالاعتزاز بالقبيلة غالب على كل شىء ، بما فى ذلك الدين نفسه ، فى شعر كل المخضرمين تقريبا ، وحتى الشعراء الذين عرفوا بأنهم شعراء الإسلام ، أو شعراء الرسول ، لا يكادون يبعدون كثيرا عن هذا الحكم ، فإذا أخذنا شعر حسان بن ثابت ، مع دفاعه المجيد عن الإسلام ، نجد أن هذا الدفاع فى معظمه نابع من اعتزازه بقوة قومه ، وبأنهم رجال حرب وبأس شديد ، لا تصمد له قريش ولا غيرها ، وأيسر ما يقوله حسان من مثل هذه المعانى قوله :

---

(1) الأغانى للأصفهانى ١٩ – ٦

كنّا ملوك الناس قبل محمـــد   فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل[١]

وما من شعر له يخلو من هذه النزعة .

وكذلك كان عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، اللذان بلغ شعرهما من التعصب لقومهما ، والتحامل فى هذه العصبية على قريش أن أبدى النبى عدم رضاه عن هذا الشعر[٢]

وهكذا حين نذهب إلى شعر الشعراء المخضرمين ، أول ما يبادرنا منه ، هذه العصبية القبلية المسيطرة على نفوسهم ، حتى إن بعضهم لا يكاد الرواة يجدون فى شعره أوضح وأبرز من هذه النزعة ، أو لا يجدون من شعره ما يدعو إلى الرواية إلا هذا اللون ، لان الشاعر لم يهتم بغيره ، كما نجد فى شعر ربيعة بن مقروم الذى يسيطر عليه الفخر بنفسه وبقبيلته من بكر[٣] وشعر قيس بن عاصم المنقرى التميمى كذلك[٤] وكذلك شعر حريث بن محفض الذى لم يكد يقف بعض الرواة عند شىء منه إلا هذا الفخر والتعصب لقبيلته من بنى تميم[٥] وكذلك سحيم بن وثيل شاعر بنى رياح من تميم وسيدهم الذى تمثل الحجاج ببعض فخره بالآباء على المنبر[٦] والذى منع

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ — ٩٨٢
(٢) انظر العمدة لابن رشيق ١ — ٢١٠
(٣) انظر حماسة أبى تمام ١–١٣ومابعدها؛ ١–١١
(٤) المصدر السابق ٢–٦٢
(٥) الشعر والشعراء أبن قتيبة ٢ — ٦٤١
(٦) الشعر والشعراء لا بن قتيبة ٢–٦٤٣

على بن أبى طالب المسلمين أن يأكلوا من ذبائحه ، لانها ذبحت للفخر ، وليس لوجه الله [١] وكذلك ضمضم بن الحارث السلمى ، فى شعره الذى قاله إثر حنين ، فلم يكد يذكر فيه إلا ثأره لنفسه من ثقيف التى قتلت بعض ذويه [٢] .

بل إن بعض الشعراء لم يمنعه الدين من أن يؤثر العصبية القبلية على تدينه ولو فى بعض المواقف ، كما فعل أمية بن الاسكر البكرى ، الذى هجا من ساعد المسلمين ضد قومه [٣] ومنهم أبو خراش الهذلى الذى لا يخفى حنينه إلى الجاهلية ، وإخوان صفائها ، ولا يخفى ضيقه ببعض قيود الإسلام التى تحول بينه وبين الثار لنفسه ، والتى ساوت بين الفتى الشجاع الكمى ، والشيخ الضعيف المنهوك ، فى أحتكام كل منهما إلى هذه القيود ، وعدم اللجوء إلى أساليب الجاهلية فى الثار ، ومن ذلك قوله [٤] :

فليس كعهد الدار يا أم ثابتَ ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى الحق شيئا فاستراح العواذل

وأصبح إخوان الصفاء كانما ... أهال عليهم جانب التُّرب هائل

فلا تحسبى أنى نسيت لياليا ... بمكة إذْ لمْ نعْدُ عما نحاول

(١) انظر خزانة البغدادى ١ – ٢٥٦
(٢) سيرة ابن هشام ٤ – ٩١٤
(٣) الأغانى للأصفهانى ٢١ – ٨
(٤) سيرة ابن هشام ٤ – ٩١٥

وبعض الشعراء دفعهم التعصب لاقوامهم إلى الاقذاع فى هجاء خصومهم ، ولئن كان الهجاء بكل ما يحمل من معان ، مالوفا مستساغا فى الجاهلية وغيرها من العصور ، فإنه فى هذه الحقبة المشرقة من الاسلام كان نشازا غريبا منكرا ، لكن بعض الشعراء كانوا يجدون أن سيطرة التعصب لقبائلهم على نفوسهم أقوى من سيطرة الدين نفسه فينساقون وراءها ، متصدين لإنكار المسلمين ، وسخط القائمين على أمر الاسلام . ومن هؤلاء الذين ظلت الجاهلية مسيطرة على مشاعرهم فى حنينهم لأمجاد أنسابها تميم بن أبى مقبل ، شاعر بنى العجلان وهم رهط من بنى عامر بن صعصعة من بنى تميم ، الذى عرف لدى الرواة ببكائه على أمجاد الجاهلية وساداتها [1] .

ومن هؤلاء الشعراء شاعر بنى الحارث بن كعب ، قيس بن عمرو المشهور بالنجاشى ، وهم ينتمون إلى اليمانية ، فقد سيطر عليه التعصب لبنى الحارث بن كعب حتى إنه هجا بنى النجار ، رهط حسان بن ثابت وكان ذلك فى خلافة معاوية ، وكلا القبيلتين ، الأنصار وبنو الحارث ابن كعب ، من أصل يمنى ، ولكن منزلة الأنصار فى الاسلام تجعل هجاءهم – بوصفهم جماعة – ظلما بينا ، وجورا عن طريق الدين القويم ، ولو هجا شخصا معينا منهم مهما تكن منزلته لا ختلف الوضع ولكنه يتعرض لبنى النجار عامة ، مفضلا قومه عليهم ، ومن ذلك قوله :

---

(١) انظر خزانة الادب للبغدادى ١–٢٣١

لستم بنى النجار أكفاء مثلنـا فأَبْعدْ بكم عما هناك أبْعـــد
فإن شئتم نافرتكم عن أبيكم إلى من أردتم من تهام ومُنْجد]

فساء الأنصار أن يهجوهم أحد ، والتمسوا حسان بن ثابت يدفعُون به تعرض النجاشى لهم ، ويدفعون محاولة بنى الحارث بن كعب أن يرتفعوا على أكتاف غيرهم ، وبخاصة أكتاف الأنصار ، وكان حسان مشهورا بمقدرته فى الهجاء ، منذ نشأته فى الجاهلية ، مقدرة ترهب كل شاعر وكل حى أن يناله من لسان حسان شىء ، وكان من مفاخر بنى الحارث بن كعب طول أجسامهم وضخامتها ، فإذا حسان يحول هذه المفخرة إلى سبة تثير السخرية والازدراء ، فكان من شعره هذا :

حار بن كعب ألا أحلام تزجركم عنا ، وأنتم من الجوف الجماخير
لا عيب بالقوم من طول ولاعظم جسم البغال وأحلام العصافير
كانهم قصب جُوفٌ مكاسره مُثقَّبٌ فيه أرواح الأعاصير
ألا طعان ألا فرسان عاديــة إلا تجشؤكم حول التنانير [1]

وواضح أن هجاء حسان كان من أبلغ الهجاء الموجع ، بل المهلك لكل قيمة ومنزلة فى المجتمع ، حيث جعلهم فى أجسامهم الطويلة الفارعة مجرد قصب أجوف ، تصفر فيه الريح ، خالين من كل عقل وكل قيمة ، وجعلهم مجرد بهم سوائم ، لا هم لهم إلا التجمع حول قدور الطعام

(١) خزانة الأدب البغدادى ٤-٦٩ ومابعدها وحار ترخيم حارث

ليملأوا أجسامهم هذه الحديدة ، ثم يظلون يتجشأون من آثار التخمة ، أما الطعان ، وأما الفروسية ، فلا شأن لهم بهما . وقد بلغ الفزع ببنى الحارث بن كعب من هذا الشعر مبلغه ، وبخاصة سادتهم بنى عبد المدان ، فجاءوا بشاعرهم النجاشى موثقا ، وطرقوا باب حسان بن ثابت ، يقدمون إليه شاعرهم ، يحتكم فيه بما يشاء ، مقابل أن تطيب نفسه ، فيكف عن هجائهم ، وقد طابت نفس حسان بهذا الصنيع ، فأعلن رضاه وعفوه عنهم وعن شاعرهم ، ولكن بعض سادتهم يعاتبه قائلا : كنا نفخر على الناس بالعظم والطول ، فأفسدته علينا فيواسى حسان بنى عبد المدان بقوله [1] :

وقد كنا نقول إذا رأينا لذى جسم يُعَدُّ وذى بيان
كأنك أيها المعطى بيانا وجسما من بنى عبد المدان

وحتى فى المواقف المرتبطة بالدين ، لم يكن الدين ومواقفه مانعا لبعض الشعراء من الحنين إلى حمية الجاهلية وعصبيتها ، فهذا أبان ابن سعيد بن العاص الأموى ، يحرض عثمان بن عفان على الاعتزاز بالنسب الأموى ، وعلى الخيلاء به ، كقوله لعثمان يوم الحديبية [2]

أسبل وأقبل لا تخف أحدا بنو سعيد أعزة الحرم

وكذلك كان شاعر بنى جرم ، أسماء بن رباب بن معاوية الجرمى فى الخصومة التى كانت بين بنى جرم وبنى عقيل على أرض بينهما ،

---

(١) خزانة البغدادى ٤ – ٧٦

(٢) الأصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ١ – ١٠

فحين قضى النبي لبنى جرم ، كأن بنى عقيل أسفوا ، فيذكرهم أسماء بأنه شاعر قومه ، وأنه المدافع عنهم ، ويصوغ هذا فى ثوب دينى فيقول[1] .

وإنى أخو جرم كما قـد علمتم إذا اجتمعت عند النبى المجامع

فإن أنتم لم تقنعوا بقضائـه فإنى بما قال النبي لقـانع

على أننا نكرر معنى لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا ، وهو أن ما قد نعده مآخذ أو هنات على الشعراء المخضرمين ، لو كان فى عصر غير عصرهم ، لكان الأمر أهون وأيسر ، فإن وجودهم فى هذا العصر المشرق من الإسلام ، وفى هذا المجتمع الذى كان خير أمة أخرجت للناس ، جعل حسابهم أشد ، وميزانهم أدق ، من حيث إنهم كانوا فى فى هذا الذى ننقله عنهم من الشعر ، خارجين على العرف ، وعلى مألوف المجتمع حينئذ .

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ١ – ١٠٣

السياسة

والمراد من هذا الحديث إبراز ما يتصل بالحكم ، وبالقيادة السياسية فى المجتمع العربى من شعر المخضرمين ، فنقول إن غالبية الجزيرة العربية ، وبخاصة فى نجد والحجاز وتهامة ، لم تكن قبل الإسلام تعرف الخضوع لملك أو قيادة عامة ، وإنما كان رئيس القبيلة أو سيدها هو كل السلطة التى يعرفها أفراد القبيلة ، لا تعلوه سلطة ، ولا تزاحم زعامته على القبيلة سلطة أخرى ، فلما جاء الإسلام برزت أمام العرب السلطة العامة التى كانت جديدة عليهم ، ورغم مقاومتهم أول الأمر للدين ، فإن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، جعلت هذه السلطة رغم جدتها وغرابتها على حياة العرب ، مقبولة مستساغة ، لما انفرد به النبى من صفة البنوة ، ومن الخلق العظيم ، البالغ التكامل ، بصورة يتعذر أن تتحقق فى شخصية أخرى ، فهو يشعر كل من يتصل به أنه بالغ القوة والعزة ، وفى الوقت نفسه يشعره بأنه بالغ الرحمة واللين ، فبينما تمتلىء نفسه هيبة من هذه القوة العزيزة ، تمتلىء أيضا ميلا إلى هذه الرحمة الوادعة اللينة ، وهو يشعر كل من يتصل به أنه بالغ العظمة والسمو ، وفى الوقت نفسه يشعره أنه بالغ البساطة والتواضع ، فبينما تمتلىء نفسه إجلالا لهذه

العظمة ، تمتلىء نفسه حبا وميلا إلى هذا التواضع وهذا الدنو النفسى وهكذا فى كل جوانب خلق النبى ، الذى فطره الله عليه ، ليعده لهذه الرسالة الكبرى ، فشخصية النبى بوصفه صاحب السلطة ، فضلا عن النبوة ، لم تثر فى نفوس العرب بعد إسلامهم إلا الحب والتفانى فى الولاء له .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم بوصفه من قريش ، كان مرتبطا بهذا النسب ، وكان هذا الارتباط ماثلا فى نفوس العرب ، وقد ربطوا بينه وبين سيادة قريش ، وسلطانها المنتظر بعد النبى ، وهم إذا طابت نفوسهم بالنبى رسولا وصاحب سلطان من أى نوع ، فلن تطيب بتسلط قبيلة أخرى ولو كانت قريشا ، وهم قد لا ينازعون فى تفوق قريش ومجدها العريق ، ولكنهم ينازعون فى السيادة والتسلط من جانبها ، وسنرى كيف كانت مشاعرهم نحو قريش وسيادتها ، ثم جاءت فى حياة العرب بعد النبى ، سلطة الأفراد ، سواء أكانوا خلفاء أو ولاة ، وكان هذا جديدا غريبا عليهم فى صورته العامة ، وسنرى أيضا كيف كان موقفهم من هذه السلطة . وكذلك نشأت فى حياة العرب الحزبية السياسية ، التى بدأت بين على ومعاوية ، هذه الحزبية التى لم تقم أساسا على عصبية قبلية ، أو عصبية الأخلاق ، أو غير ذلك مما تعوده العرب ، وإنما تقوم على الصراع حول السلطة المستمدة من الدين ، وكل حزب لا يعتمد فى عناصره وأفراده على نسب أو عنصر معين ، وإنما مجرد الانتماء القائم على الاقتناع بوجهة النظر ، أو

المصلحة الشخصية ، وهذه الحزبية بهذه الصورة كانت جديدة غريبة على الحياة العربية ، وسنرى موقف الشعراء المخضرمين أيضا منها .

موقفهم من قريش :

كانت قريش فى الجاهلية تحتل مكانة مرموقة بين العرب ، وهى إن لم توصف حينئذ بالسيادة على العرب ، فهى على أيسر الفروض تنفرد بدرجة من الإجلال والإكبار من سائر العرب ، ولهذا أسباب عديدة منها قيام قريش على شئون الكعبة ، ومنها توسطها بين الجزيرة العربية ، فى مكان تكاد تلتقى فيه الطرق والقوافل ، ومنها استحواذ قريش على معظم النشاط الاقتصادى للعرب ، وهو التجارة ، وأسباب أخرى ، كلها جعل العرب لا ينكرون على قريش تفوقها وتقدمها عليهم ، وهو اعتراف ليس سهلا فى مثل البيئة العربية التى تقوم حياتها على التنافس الشديد بين القبائل ، ونتيجة لذلك كانت قريش أقل القبائل بين العرب أعداء ، ولم تكن بينها وبين غيرها إلا تلك الخصومات الفردية ، أو الناشئة من تعارض المصالح ، فيما تفرضه سنة الحياة .

فلما جاء الإسلام بدأ العرب يتوجسون من قريش خيفة التسلط عليهم ، وهم لم يتعودوا أن يتسلط عليهم أحد ، ففى بادىء الأمر كان غير المسلمين فى الجزيرة ينظرون إلى شخص النبى صلى الله عليه وسلم على أنه ملك ، فكذلك كان ينظر إليه يهود الجزيرة ، كما يروى فى قصة صفية بنت حيى بن أخطب اليهودية ، زوج النبى ، حين رأت فى منامها قبل

ذلك كأن البدر وقع فى حجرها ، فلما قصت هذه الرؤيا على بعض أهلها لطمها ، وقال لها : كأنك تحلمين بملك العرب ، يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكما قال ابو سفيان بن حرب قبيل إسلامه للعباس عم النبى ، حين رأى كتائب المسلمين وجيشهم الجرار : لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس عظيما .

ثم بدأ العرب جميعا حتى بعد إسلامهم ، ينظرون إلى قريش على أنها وارثة الملك والمجد ، وأنها ستكون فى الموضع الذي لا يحبون أن يكون فيه أحد بالقياس إليهم ، وهو موضع القوة والتسلط . ، فأخذت هذه العوامل تدور فى نفوسهم ، ثم أخذت ألسنتهم تفصح عنها ، ولم يمنع وجود النبى نفسه ، بعض الألسنة من الإفصاح عن هذه العوامل التى بدأت تتحول من التوجس والحذر ، إلى المنافسة والصراع ، ثم إلى العداء والتربص ، فهذا حسان بن ثابت ، يقول والنبى بين أظهرهم فى المدينة ، مظهرا استياءه من كثرة قريش وعزتها فى المدينة ، مهددا متوعدا ، فمن شعره هذا : [1]

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا ... وابن الفريعة أمسى بيضة البلد[2]

قد ثكلت أمه من كنت صاحبــه ... أو كان منتشبا فى برثن الأسد

ما البحر حين تهب الريح شامية ... فيْعطئل ويرمى العِبْرَ بالزَّبد [3]

---

(١) ديوان حسان ١٦٠ وفيه الخلابيس وسيرة ابن هشام ٣– ٧٧١

(٢) الجلابيت لقب كان يطلقه المنافقون على المهاجرين ويبدو أنه جمع الجمع على غير قياس بمعنى وافد

(٣) يعطئل البحر : يركب بعضه بعضا هائجا ، والعبر بكسر العين وسكون الباء الشاطئ

يوما بأغلب منى حين تبصرنى ملغيظ. أفرى كفرى العارض البرد
أما قريش فإنى لن أسالمهـــم حتى ينيبوا من الغيَّات للرشد[1]

ومهما تكن أسباب هذا الشعر ، فإنه ينبىء عن إحساس حسان بأن قوة قريش أصبحت خطرا ، وأنه مغيظ. لهذا الإحساس أشد الغيظ. ، وأنه غير مستكين فى غيظه ، وإنما يضمر التربص والانتفاض على قريش ما أمكنه ذلك .

ولم يكن حسان وحده هو الذي يضمر هذا الشعور ، ويطوى جوانحه على هذا الوعيد لقريش ، ويفصح بشعره أو بلسانه عن ذلك بل يشاركه فى الإضمار كل العرب ، وفى الإفصاح كثير من الشعراء وقد كان الأنصار أول من أعلن إنكاره لقوة قريش وتسلطها ، واستئثارها دون غيرها بكل ذلك ، وكان موقفهم المشهور فى سقيفة بنى ساعدة ، يحاولون تعيين خليفة منهم للنبى ، وهو مازال مسجى على فراش الموت لم يدفن بعد ، معلنين فى هذه المحاولة كل السخط. على قريش ، وكل التحدى لها ، وتلا ذلك مباشرة إعلان العرب عامة تحديهم أيضا لقريش ، وذلك بارتدادهم عن الإسلام ، وكان معظم حجتهم فى ذلك ، أن قريشا تفرض عليهم جزية هى الزكاة ، فهم يرفضون الاعتراف أصلا بالزكاة ، مع أنها من صلب الإسلام وأركانه وأن قريشا تستأثر دون غيرها بالتملك والسلطان ، فهم يتمردون على ذلك ، وبعضهم يساوم قريشا على الشركة فى هذا السلطان ، كما

(١) فى الديوان (أما قريش فانى غير تاركهم ...)

فعل مسيلمة الكذاب ، مدعى النبوة فى بنى تميم ، حيث جعل من قرآنه الذى ادعى أنه يوحى إليه أن لهم نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم لا يعدلون ، ومن المعروف أنه لم يثبت على الإسلام فى هذه الردة غير أهل المدينة ومكة .

وقد كان معروفا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يضيق بهذه الكراهية لقريش ، وقد أعلن هذا فى مرات عديدة ، تصريحا أو تلميحا ، فمن ذلك أنه حينما بلغه مقتل أبى عامر بن وهب ابن الأسود الثقفى يوم حنين قال : أبعده الله : فإنه كان يبغض قريشا [1] ومن المشهور أنه حينما سمع حسان بن ثابت يتوعد قريشا ، قال له أتهجو قريشا وأنا منهم ؟ قال حسان : أسلُّك منهم يا رسول الله ، كما تسل الشعرة من العجين ، وقد سمع النبى عبد الله بن رواحة يقول ، منكرا مجد قريش :

فخبِّرونى ، أثمان العَباء ، متى كنتم بطاريق ، أو دانت لكم مضر

فظهر الضيق على وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، من جعل قريش أثمان عباء [2] ومن السخرية بمجدها وكيانها بين العرب ، ومن جهة أخرى كان النبى يظهر الرضا حينما تذكر قريش بخير ، كما أظهر رضاه من مدح كعب بن زهير لقريش ، فى قصيدته المشهورة التى ألقاها بين يدى النبى ، وهى (بانت سعاد) حيث يروى أن النبى

---

(١) سيرة ابن هشام ٤ — ٨٩٩

(٢) العمدة لابن رشيق ١ — ٢١٠

كان حينئذ كأنه يومىء إلى من حوله أن يسمعوا [1] ، ومن الواضح فى كل هذا أن موقف النبى لا يمثل تعصبا لقريش ، وإنما يمثل دفاعا عن قريش والفرق بينهما كبير . ولئن كان شعراء الأنصار الثلاثة ، حسان ، وكعب وابن رواحة قد اتخذوا موقف الحرب الإعلامية الصريحة أو المباشرة ، بينهم وبين شعراء قريش المشركة ، فإنهم قد اتخذو موقفا غير مباشر أو غير صريح بينهم وبين قريش المسلمة ، المتمثلة فى المهاجرين ، ولكن المناسبات كانت تزيح الستار أحيانا عما يضمرونه لقريش عامة ، مشركيها ومسلميها ، حتى قامت بين الفريقين خصومة نفسية محتدمة ، كان وجود النبى بين ظهرانيهم يحول دون تفجرها ، فما إن انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى فجروها تفجيرا . ومن الأحداث التى برزت خلالها هذه الخصومة فى حياة النبى ، ما يرويه الرواة من أن راجزا من شعراء قريش المسلمين ، هو سلمة بن الأكوع ، قال رجزا سخر فيه من التمر ، منكرا أن يتخذه طعاما لناقته ، فأحفظ ذلك الأنصار ، لشهرة المدينة بالنخل والتمر ، فطلبوا من شاعرهم كعب بن مالك أن يرد عليه ، فقال رجزا يدافع به عن معيشة المدينة ، وما فيها من سكن واستقرار ، معرضا بمعيشة مكة واعتمادها على القفر والخلاء ، فبينما تعلف ماشية الأنصار فى الدور تعيش ماشية قريش فى المراعى والقفار ، ويروى أن النبى طلب منهما أن يكفا عن ذلك [2] .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-١٥٥

(٢) الأغانى للأصفهانى ١٦-٢٣٠ أخبار كعب بن مالك

وقد غلب على قريش لقب سخينة ، وهو طعام كانت تتخذه قريش حينما يشتد عليها الجدب ، ويقال إن أول من لقبها به هو خداش بن زهير ، أحد بنى عامر بن صعصعة من تميم حيث قال : (١)

ياشدة ما شددنا غير كاذبة   على سخينة لولا الليل والحرم

ويظل خداش الشاعر المخضرم يهجو قريشا متجاوزا خصوماته الفردية مع بعض أفرادها ، فينال من قريش نيلا موجعا ، رغم مخالفته الحقيقة فى هجائه ، فهو يصفها بالذل ، وبالبخل ، وبالسفاهة ، وبالجهل ، وبأقبح صور اللصوصية ، فمن ذلك قوله (٢) :

أبى لكمُ أن النفوس أذلـــــة   وأن القرى عن واجب الضيف عاتم (٣)

وأن الحلوم لا حلـوم ، وأنتم   من الجهل طير تحتها الماء دائم

ولولا رجال من علىٍّ أعـــزة   سرقتم ثياب البيت والبيت قائم (٤)

وحين أفصح العرب عما فى نفوسهم من موجدة على قريش ، ومن إنكار لسيادتها وتسلطها ، وذلك بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم انهالت من أفواه الشعراء قذائف السخط على قريش ، وتأليب العرب عليها ، فهذا الحطيئة الذى كان فى قمة شعراء العرب ، والذى يتردد صدى شعره فى أرجاء الجزيرة ، يعلن فور وفاة النبى إنكاره الخلافة

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٦٤٥

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٦٦٢

(٣) عاتم : متأخر

(٤) بنو على حى من تميم قبيلة الشاعر يعنى أن خوف قريش من قبيلة الشاعر هو ما يمنعها من سرقة الكعبة

أبي بكر ، مخوفا العرب من أن قريشا قد يجعلون الملك ميراثا فيهم ، محرضا لهم أشد التحريض على التصدى لقريش ولسلطان أبي بكر ، حيث يقول فى أبياته المشهورة [1] :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لهفتا ما بال دين أبي بكر

أيورثها بكرا إذا مات بعـده فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

فقوموا ولا تعطوا اللئام مقادة وقوموا ولو كان القيام على الجمر

فدى لبنى نصر طريفى وتا لدى عشية ذادوا بالرماح أبا بكر

والحطئية لا يفزع من ملك أبي بكر لشخصه ، ولا ينكر عليه شيئا لذاته ، وإنما ينكر على قريش كلها ، ويحرص ضد قريش كلها ، واصفا إياها باللؤم .

وشاعر بنى الحارث بن كعب ، الملقب بالنجاشى ، كان أوضح من الحطيئة فى سخطه على سلطة قريش من حيث هى ، أيا كان متولى السلطة منها ، فيهجو قريشا هجاء يجعل الرواة يقرنونه بالدعاء عليه باللعنة ، فمن ذلك قوله [2] :

إن قريشا والإمامـة كالـــذى وفى طرفاه بعد أن كان أجدعا

وحُق لمن كانت سخينة قومـه إذا ذكر الأقوام أن يتقنعـــا

ويقول فى شعر آخر ما هو أشد تهوينا لقريش [3] :

(١) الكامل للمبرد ٠–٢٣٢

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١–٢٣٢

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١–٣٣٣

سخينة حتى يعرف الناس لؤمَها قديما ، ولم تُعرف بمجد ولا كَرَمْ
فيا ضيعة الدنيا وضيعة أهلهـا إذا وَلى الملك التنابلة القزَمْ (١)
وعهدى بهم فى الناس ناس ،ومالهم من الحظ إلارَعْيةُ الشَّاءوالنَّعمْ

ويحدد شاعر لم تذكر الروايات اسمه ، موضع السخط على سلطة قريش ، وهى أن قريشاً تستأثر دون غيرها بلذة العيش ، وتسخر العرب لتتقى بهم المتاعب والمخاطر ، فيتعرضون للمتاعب والمَهالك ، ولو كانت قريش تشاركهم متاعبهم لقبلوا أن يخوضوا معها أشد المخاطر ، فيقول (٢) :

تولت قريش لذة العيش واتقت بنا كل فج من خراسان أغبرا
فليت قريشا أصبحت ذات ليلة تؤم بنا بحراً من الموج أكـدرا

وأيسر ما تمتلىء به نفوس العرب ، وتعبر عنه ألسنه شعرائهم ، أن قريشا مجرد قبيلة منهم ، مهما يكن شأنها ، فلن يتخلوا عن منافستها وعن عدم التسليم لها بالتعالى والتعاظم ، فضلا عن التحكم والتسلط ، ويعبر معاوية بن زهير المازنى ، أخو بنى جشم من هوازن ، عن هذه المنافسة بينهم وبين قريش ، فيقول مخاطبا بعض قريش (٣) :

أنا الجشمى كيما تعرفـونى أُبَيِّن نسبتى نقـرا بنقـر

---

(١) التنابلة جمز تنبل أو تنبال بكسر التاء الرجل القصر . والقزم بفتح القاف والذال يستوى فية الواحد والجمع بمعنى صغار الأجسام أذلة أدنياء
(٢) حماسة أبى تمام ٢ – ٢٢٨
(٣) سيرة ابن هشام ٣ – ٥٥٣

فإن تك فى الغلاصم من قريش　　فإنى من معاوية بن بكر
فأقسم بالذى قد كان ربى　　وأنصاب لدى الجمرات مُغْر
لسوف ترون ما حسبى إذا ما　　تبدلت الجلود جلود نمر

ويعبر أيضا زيد بن صحار السعدى ، من هوازن ، عن ألمه من هزيمة المسلمين لهم يوم حنين ، مبديا أسفه على عزتهم التى أرغمتها قريش ، بعد أن لم تكن تستطيع ذلك فيقول :

ألا هل أتاك أن غلبَتْ قريشٌ　　هوازن والخطوب لها شروط
وكنا يا قريشُ إذا غضبنا　　يجىء من الغضاب دَمٌ عبيط
وكنا يا قريش إذا غضبنا　　كأن أنوفنا فيها سَعوط
فأصبحنا تُسَوِّقنا قريشٌ　　سياق العير يحدوها النبيط

وكون الشاعر ينسب النصر إلى قريش وليس إلى المسلمين ، دليل واضح على ما نقول .

ويعبر الأحنف بن قيس التميمى عن ذلك فى ممازحة مع معاوية بن أبى سفيان ، حين قال معاوية للأحنف : ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ قال : السخينة يا أمير المؤمنين [1] وكان الأحنف يعنى تلقيب خداش ابن زهير قريشا بسخينة ، أما معاوية فكان يعنى ما هجيت به تميم قبيلة الأحنف ، من قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم　　فسَرَّك أن يعيش فجىء بزاد

(١) العمدة لابن رشق ١ – ٧٦ – ٧٧

بخبز أو بلحم أو بتمـــر أو الشىء الملفف فى البجاد [1]

وفهم الأحنف قصد معاوية ، فأراد أن يرد إساءة بإساءة ، فليست قريش فى رأيه خيرا من تميم ، أو ليس من حق قريش أن تسىء إلى تميم ، أو أن تتعالى عليها .

موقفهم من السلطان :

من الحق أن يقال إن المواقف فى الموضوعات السابقة للشعراء المخضرمين ، تتسم بالعموم ، أو بالكثرة الواضحة ، سواء فيما يتعلق بالدين أو الخلق ، أو التعصب القبلى ، أو المشاعر نحو قريش ، أما فيما نعرض له منذ الآن ، فإن أغلبه لا يوصف بهذا العموم ، أو هذه الكثرة الغالبة ، وإنما هى مواقف إما فردية ، وإما ذات قلة ، وهى بالإضافة إلى ذلك لم تكن ذات تأثير واضح ، ولكنها فى كل حال كانت مسموعة مدوية ، وهذا الدوى لا يخلو من تأثير ، وإن لم يكن فعالا أو خطير الشأن .

والسلطان بمعناه السياسى ، أو بالمعنى الذى تنظمه الدول ، كما كان منذ الاسلام ، لم يكن العرب يعرفونه ، وكذلك تمردوا عليه منذ ظهر إلى الوجود بينهم ، فما إن تولى أبو بكر الخلافة ، وأحس العرب أن هناك سلطانا عليهم ، أيا كان شخص متولى هذا السلطان ، حتى تمردوا عليه فى ردتهم المعروفة ، التى شملت كل العرب ، ما عدا مكة والمدينة

---

(١) الملفف فى البجاد : يريد به وطب اللبن؛ والمعنى أن بنى تميم محومون فلديهم نهم شديد إلى أى طعام حتى إن ميتهم يبعث حين يحس بوجود أى شى من الطعام

وقد رأينا كيف أن الحطيئة عبر عن ذلك فى قوله [1]

أطعنا رسول الله إذا كان حاضرا   فيا لهفتى ما بال دين أبى بكر

أيورثها بكرا إذا مات بعــده   فتلك وبيت الله قاصمة الظهــر

ولئن كان الحطيئة يعبر عن سخطه على السلطة لذاتها ، دون سبب معين يدعو إلى ذلك ، فإن بعض الشعراء كانوا يتخذون من المناسبة تعبيرا عما فى نفوسهم ، كما فعل متمم بن نويرة ، فى رثائه لأخيه مالك الذى قتله خالد بن الوليد عند رجوع جيشه منتصرا من اليمامة ، بعد حرب مسيلمة وبنى حنيفة وأحلافهم ،وكان مالك أعلن إسلامه ، ولكن خالدا ظن به المراوغة فقتله ، وقد عدها عمر بن الخطاب جريمة من خالد ، فجاء أخوه متمم بن نويرة يستثير المسلمين ضد أبى بكر وخالد ، فأنشد مرثيته الرائعة المؤثرة فى جموع المسلمين بالمسجد ، وفيها يقول مخاطبا أبا بكر :

أدعوته بالله ثم قتلتـــــه   لو هُو دعاك بذمة لم يغــدر

وأشار عندئذ إلى أبى بكر ، فقال : والله ما دعوته ، ولا قتلته [2] ثم واصل متمم محاولة إثارة المسلمين ، فبعد أن انتهى من انشاد قصيدته هذه ، اتكأ على قوسه ، وأخذ يبكى ، وكان أعور ، حتى سال الدمع من عينه العوراء .

---

(١) خزانة الأدب البغدادى ٢– ٢٠٨

(٢) الكامل للمبرد ٢ – ٢٩٩ ورواية الكامل (ثم غررته) أما رواية (ثم قتلتة) فى المصادر الأخرى وهى أوضح . انظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١–٣٣٠ والامالى للقالى ١–٢

وكذلك باقى الخلفاء الراشدين ، لم يسلم أحد منهم من ألسنة الشعراء ، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يناله شعر عمرو بن عبد العزى من بنى سليم ، وهو المشهور بأبى شجرة السلمى ، حيث كان مما قاله ابو شجرة أثناء ردته :

ورويت رمحى من كتيبة خالد وإنى لأرجو بعدها أن أعمـرا

حيث يروى أن أعمر بكسر الميم ، بمعنى أننى رويت رمحى من دماء المسلمين فى كتيبة خالد ، وأرجو أن أرويه من كتيبة عمر ، فلما جاء أبو شجرة إلى عمر ، علاه بالدرة ، فانطلق بناقته نحو قومه ، ثم قال شعرا ينال به من عمر مرة أخرى ، حيث يقول متحدثا عن ناقته ، ومعرضا ببخل عمر وضنه عليها (فى أبيات يبدؤها بقوله (قد ضنَّ عنها أبو حفص بنائله . .) [1] وكذلك فعل أمية بن حرثان شاعر بنى ليث بن بكر ، حيث يهاجم عمر ، بأسلوب دينى ، طالبا منه رد ابنه كلاب من الغزو ، فيقول [2]

سأستعدى على الفاروق ربـًّا له عَمَدَ الحجيج إلى بساق [3]

إن الفاروق لم يردد كلابـــا على شيخين ها مهما زوَاق [4]

فأسرع عمر برد ابنه إليه ، لا خوفا من شعره ، وإنما خوفا من

---

(١) الكامل للمبرد ١-٢٣٩

(٢) العمدة لابن رشيق ١-٥٨

(٣) بساق بضم الباء جبل بعرفات

(٤) زواق يعنى قربا من الموت .

استعداء الله عليه . وأما عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فكانت له مع ضابىء بن الحارث البرجمى قصة مشهورة ، حيث حاول جاهدا أن يغتال عثمان ، حين استدعاه ليؤدبه على هجاء شديد الإقذاع ، نال فيه من عرض بنى جرول ، حيث رمى أمهم بكلب ، فلما جىء بضابىء شد سكينا على رجله ، ليغتال بها عثمان ، فاكتشف أمره ، فأودعه عثمان فى السجن ، بعد أن نال جزاءه على الإقذاع ، فظل ضابىء يتحسر على أنه لم يتمكن من اغتيال عثمان ، وقال فى ذلك شعرا ، منه :

همممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله
وما الفتك ما آمرت فيه ولا الذي تخبِّر من لاقيت أنك فاعله [1]

وفى البيت الأخير يلوم ضابىء نفسه على أنه أخبر بعض الناس بقصده فى الفتك بعثمان ، سواء أكان الإخبار استشارة ، أم مجرد خبر ، مشيرا إلى أنه لو لم يفش هذا السر لنجح فى اغتيال عثمان ، ومن المشهور أن عميراً بن ضابىء هذا رفس عثمان عند مقتله فكسر له ضلعين .

وأما على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقد عانى من الشعراء أكثر وأشد مما عاناه سابقوه من الخلفاء الراشدين ، حيث انحاز عدد غير قليل من الشعراء إلى صف معاوية بن أبى سفيان فى صراعه مع على ، كما سنرى .

---

(١) الكامل للمبرد ١-٢٢٨ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٥٠

وبعض الشعراء لم يكن فى موقعه منحازا إلى أحد ، وإنما كان يهاجم إرضاء لنزعة أو غرض فى نفسه ، كما فعل النجاشى الحارثى الذى حاول أن ينال من على ثم من معاوية كليهما ، وذلك أن النجاشى بلغ من مجونه وادمانه الخمر أن كان يشربها فى نهار رمضان ، وهو حينئذ بالكوفة ، فأقام علىٌّ عليه الحد وجلده ثمانين جلدة ، ثم زاده عشرين ، فقال النجاشى : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ قال : لجرأتك على الله فى شهر رمضان ، ثم شهر به ، فهجا النجاشى أهل الكوفة ، وعرض بعلى فى صورة الدعاء عليه ، كقوله :

ضربونى ثم قالـــوا قـــدر قدَر الله لهم شر القـــدر

ثم حاول النجاشى أن ينال بشعره من معاوية بن أبى سفيان ، مذكرا الناس بقصة تفكير معاوية فى النجاة بنفسه ، والهروب على فرسه أثناء القتال مع على ، ومع أن معاوية لم ينفذ ما فكر فيه من الهرب ، إلا أن النجاشى جعل من مجرد التفكير حقيقة وحدثا واقعا ، فيقول : (١)

ونجىَّ ابن حرب سابحٌ ذوعلالة أجشُّ هزيمٌ والرماح دوانى (٢)

وهذا شاعر آخر كان أشد سفورا فى هجومه على معاوية ، وأشد صراحة فى تحدى ملكه ، وإنذاره بالوعيد ، وهو عقيبة بن هبيرة

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٣٠ومابعدها

(٢) العلالة بضم العين بقية جرى الفرس يعنى أنه يحتفظ بقوته إلى النهاية فى الجرى ، والأجش والهزيم الشديد الصوت ؛ ودوانى يعنى دانية قريبة

الأسدي ، الذى وفد على معاوية فى خلافته ، لا مادحا ولا مستجديا عطاء كما يفعل الشعراء المتكسبون ، ولا هاجيا ناقما كما يفعل الشعراء المتعصبون لأقوامهم ، أو الموتورون فى نفوسهم ، ولا مشوها أو مخذلا أو منفرا كما يفعل الشعراء المنحازون إلى فريق آخر ، إنما ذهب ليعلن سخطه على أسلوب معاوية فى الحكم ، وعلى جور أتباعه وأقاربه ، واحتكارهم لكل شيء ، واستبدادهم بكل شيء ، واصطناعهم لأسوأ الامراء وأراذلهم ، ثم هو يهدد معاوية بجنود تتبعها جنود ، من قومه بنى أسد ، قبيلة طليحة الأسدى مدعى النبوة ، وقد كتب عقيبة شعره الناقد المتوعد فى رقعة دفعها إلى معاوية ، ومن هذا الشعر قوله :

معاوىَ إننـــا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحـديد
فهبنا أمة ذهبت ضيـــاعـا يزيد أميرها وأبو يزيـــد
أكلتم أرضنـــا فجـردتموها فهل من قائم أو من حصيد ؟[1]
أتطمع فى الخلود إذا هلكنـــا وليس لنا ولا لك من خلود ؟
ذروا خوَن الخـلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيـد [2]
وأعطونا السَّويَّة لا تـــزركم جنود مردفات بالجنود [3]

فدعا معاوية عقيبة ، فقال له : ما جرأك على ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك ، قال : ما أظنك إلا صادقا ، ثم أرضاه وقضى له ما يريد [4]

---

(١) يعنى أكلهم كل ماعلى الارض فلم يبق فيها قائم ولاحصيد

(٢) خون الخلاقة يعنى اعوجاج الحكم

(٣) السوية : يعنى اعطونا الانصاف أى حقنا والا هاجمتكم جنودنا المتوالية

(٤) خزانة الادب للبغداى ٢–٢٦٠ ومابعدها وفيها أن عقيبة مخضرم على الأرجح

موقفهم من الولاة :

عرفت عن كثير من الشعراء فى هذه الحقبة نزعة إلى مصادمة الولاة ، وعدم الاستكانة إلى سلطانهم ، أو الوفاق معهم ، إما لأن السلطان كان غريبا على نفوسهم ، وإما لخيبة أمل فى العطاء ، وإما لأسباب أخرى ، ومن هؤلاء الشعراء عقيبة الأسدى السالف الذكر ، الذى أوجع أبا بردة ابن أبى موسى الأشعرى بشعره ، فذهب أبو بردة إلى معاوية يشكو عقيبة ، قال معاوية : وماذا قال لك ؟ قال : هجانى بقوله (فما أنا من حُدَّاث أُمك بالضحى) قال معاوية : ليس من حداثها ، قال ابو بردة وقال لى (ولا مَنْ يزكِّيها بظهر مغيب) قال معاوية : ولكن الله ورسوله والمهاجرين والأنصار يزكونها ، وكانت تخدم الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : وقال لى (وأنت امرؤ فى الأشعرين مقابل) قال معاوية صدق ، قال : وقد قال لى (وفى البيت والبطحاء حق غريب) قال معاوية : صدق ، ليس لك فى البيت ولا فى البطحاء حق ، قال أبو بردة : أفندعه على هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما قاله لى أشد ، وقرأ له الأبيات السابقة .

ومن هؤلاء الشعراء عتيبة بن مرداس المعروف بابن فسوة ، والذى كان الولاة يعطونه لمجرد الخوف من لسانه ، فلما أبى عبد الله بن عباس وكان واليا على البصرة لعلى بن أبى طالب أن يرضخ للخوف من لسان عتيبة ، ومنع عنه العطاء ، ثم زجره مذكرا إياه بما يصدر عنه من عصيان وبهتان ، تحفز لهجاء ابن عباس ، ورغم توسل الحسن بن

على ، وعبد الله بن جعفر إلى عتيبة ، واسترضائه عن ابن عباس ، فإن عتيبة هجا ابن عباس ، ومع محاولته أن يخفف من الهجاء ، وان يتحاشى الإقذاع ، فانه اتهم ابن عباس بالبخل ، وبالظلم ، وبتجاهل الرعية ، بل بإهمال الحكم والعدل ، فاتهمه بمحاباة أصهاره بنى زهران وبغير ذلك ، وكان بعض هذا تصريحا ، وبعضه تلميحا ، ومن ذلك قوله [1]

أتيت ابن عباس فلم يقض حاجتى ... ولم يرج معروفى ولم يخش منكرى

حُبست فلم أنطق بعذر لحاجة ... وسد خصاص البيت من كل منظر [2]

وجئت وأصوات الخصوم وراءه ... كصوت الحمام فى القليب المغور [3]

فلو كنت من زهران لم ينس حاجتى ... ولكننى مولى جميل بن معمـر

ولعتيبة هذا أخبار كثيرة مع الولاة ، فى خوفهم من لسانه ، واتقائهم شره .

والشاعر أنس بن أبى أناس الدؤلى ، يعلم أن مصعب بن الزبير أمهر لعائشة بنت طلحة ألف ألف درهم فى زواجه بها ، فينكر هذا الإسراف ، بينما هناك جنود تبيت جياعا ، فيتوجه إلى عبد الله بن الزبير ، شاكيا ومنكرا ، ومذكرا بأنه لو كان عمر بن الخطاب حيا لارتاع من مثل هذا المسلك ، فيقول [4] :

---

(١) الأغانى للأصفهانى ٢٢-٢٢٨وما بعدها

(٢) الخصاص : الثقوب والمنظر مكان النظر

(٣) القليب البئر والمغور بعيد الغور

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٧٣٨

أبلغ أمير المؤمنين رسالـــة | من ناصح لك لا يريد خـداعا
بُضع الفتاة بألف ألف كامـل | وتبيت سادات الجنود جياعـا
لو لأبى حفص أقول مقالـتى | وأقص شأن حديثكم لارتاعا

والمغيرة بن الأسود الأسدى المشهور بالأقيشر ، يشهد مطر بن ناجية اليربوعى ، يخطب على منبر الكوفة ، حين أعانه قومه بنو تميم على خلع واليها ، والاستيلاء عليها ، فينكر الأقيشر هذه الولاية ، ويهجو بنى تميم جميعا فيقول[1] :

أبنى تميم ما لمنبر ملككـــم | لا يستقر وعوده يتمرمر [2]
إن المنابر أنكرت أستاهكـم | فادعوا خزيمـة يستقر المنبر [3]
خلعوا أمير المؤمنين وبايعوا | مطـرا ، لعمـرك بيعة لاتظهـر

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن همام السلولى ، الذى ساءه أن يتولى قيادة الشرطة فى الكوفة شخص يدعى الفلافس ، ولاه الحارث ابن عبد الله بن أبى ربيعة وهو أخو عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، فيقول ابن همام[4] :

أقلِّى علىَّ اللوم يا ابنة مالك | وذمى زمانا ساد فيه الفلافس
وساع مع السلطان ليس بناصح | ومحترس من مثله وهـو حارس

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٥٦٠
(٢) يتمرمر : يضطرب
(٣) الاست : الأرداف وخزيمة يعنى قريشا
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ – ٦٥١

فهو يسخط على الزمان الذى يسود فيه مثل هذا الشخص ، ويذم الفلافس بأقبح ما يهجا به من فى مثل موضعه ، يهجوه بخيانة سلطانه والمفروض أنه حامى هذا السلطان ، ويهجوه بأنه لص ينبغى أن يحترس منه ، بينما هو الحارس .

ومن هؤلاء الشعراء عمرو بن معد يكرب ، وقد هجا أثناء ردته فروة بن مسيك المرادى ، الذى ولاه النبى صلى الله عليه وسلم على قبائل من اليمن ، فكان من هجاء عمرو بن معد يكرب إياه[1] :

وجدنا ملك فروة شر ملك حماراً سَاف منْخرهُ بِثَفْرِ
وكنت إذا رأيت أبا عمير ترى الحُوَلاء من خبَثٍ وغدْرِ

وشبيب بن عمرو بن كريب الذى كان من قطاع الطريق ، يبدى خوفه من شرطة على بن أبى طالب ، ومن سجنه الذى بناه فى ، الكوفة وسماه مخيِّسا ، ويروى شبيب أنه ما إن علم أن ابنى شميط اللذين وجههما ابن أبى طالب إليه ، يبحثان عنه ، حتى ركب فرسه العصا وانطلق بها هاربا ، ثم يقول[2] :

ولما أن رأيت ابنى شُمَيْط بسكة طيىء والباب دونى
تجللت العصا وعلمت أنى رهين مُخيِّس إن أدركونى
ولو أنى لبثت لهم قليلا لجرُّونى إلى شيخ بطين [3]

(١) سيرة ابن هشام ٤-١٠٠٥
(٢) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١-٢٥٢
(٣) بطين : كبير البطن صفة الامام على

شديد مجامع الكتفين بـــاق   على الحدثان مختلف الشئون[1]

موقفهم من الحزبية :

لأول مرة يعرف العرب حزبية لا تقوم فى كلا طرفيها على نسب أو تعصب يتعلق بالقبيلة والعنصرية فى البيئة ، وإنما تقوم على محض الاتجاه السياسى ، وذلك حينما نشب الخلاف والصراع بين على ومعاوية ، فقد كانت الحزبية قبل ذلك تنبنى على النسب ، وما يرتبط به من وسائل الحلف والجوار ، ونحو ذلك ، فيكون معلوما حينئذ أن هذا الحلف يضم هذا النسب من القبائل ، ومن يرتبط بها ، وذاك الحلف يضم هؤلاء ، وهكذا ، ولكن الصراع بين على ومعاوية ، تكون منه حزبان ، لا ينتمى أفراد كل حزب إلى نسب أو عنصر معين ، وإنما يضم أشتاتا متخلفين فى النسب ، أو البيئة ، أو العنصر ، فقد يكون بعضهم قحطانيا ، وبعضهم عدنانيا ، وقد يكون بعضهم عربيا وبعضهم فارسيا ، وبعضهم روميا ، أو غير ذلك ، ولا يجمعهم بعد الإسلام إلا شىء واحد ، هو الوجهة السياسية التى يعتنقونها ، سواء أكانت وجهة التعصب لعلى ، أم لمعاوية ، وقد يقال إن العرب عرفوا هذه الحزبية الشاملة بالإسلام نفسه ، فى صراع المسلمين مع المشركين ويمكن أن يجاب عن ذلك ، بأن هذه ليست حزبية وإنما هى عقيدة ، ولئن كان اعتناقها فى بادىء الأمر اختياريا ، فإن الفرد بعد اعتناقه هذه العقيدة يكون بالضرورة منتمياً إلى إخوانه فى هذه العقيدة ،

(١) الحدثان يعنى أحداث الدهر وأنه أقوى منها ومختلف الشئون يعنى يتصرف فى كل الأطوار

ومنحازا إليهم ، أما فى الحزبية السياسية عامة ، فإن الانتماء والانحياز إلى حزب معين اختيارى ، وليس اضطراريا ، وحديثنا هنا منصب على الحزبية السياسية ، وليس على الانحياز أو التجمع الدينى .

على أن هـذا الحديث قد يجر إلى سؤال آخر ، وهو أن يقال : ألا يعد الخلاف أو الصراع بين على ومعاوية دينيا ؟ بمعنى أن كل فريق يحاول أن يسند موقفه بالدين ، محتجا بان الحق معه ، وأن الطرف الآخر يريد أن يسلبه حقه ، أو يزاحمه فيه ، مؤيدا دعواه بما يتيسر لديه ، أو بما يستطيع أن يؤوله من نصوص القرآن الكريم أو الحديث النبوى ، وبهـذا ، ألا يعتبر هذ الصراع دينيا ؟ ويجاب عن ذلك بأن الخلاف لا يعتبر دينيا إلا إذا كان فى الدين نفسه بوصفه عقيدة أو تشريعا ، فإذا اختلف شخصان أو فريقان ، فى فهم العقيدة أو الشريعة ، يقال إن خلافهما دينى ، أما الخلاف بين على ومعاوية ، فمع كل ما سبق فيه من حجج أو اجتهادات دينية ، فإنه كان بعيدا عن العقيدة ، وعن الشريعة نفسها ، وكان محصوراً فى الخلافة وتولى السلطة ، وقد كان فى كل فريق جماعة من صفوة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممن لا يستطاع المساس بهم فى عقيدتهم ولا فى سلوكهم ، وحينئذ لا يكون من اليسير الحكم على فريق – من الناحية الدينية – بأنه على باطل ، وإن جاز ذلك من الناحية الدنيوية والناحية السياسية ، والبطلان عندئذ لا يكون مقابلا للحق إنما يكون مقابلا للصواب أو نحوه بمعنى أنه يمكن أن يقال إن أحد الطرفين محق فى اجتهاده ورأيه ، والآخر مخطىء أو غير محق فيه ، ولكننا فى

حديثنا هذا لسنا فى حاجة إلى إثارة هذا المعنى بهذه الصوره لأننا لانتحدث عن الفريقين جميعهما ، وإنما عن طائفة منهما هى طائفة الشعراء ، والشعراء المخضرمين بالذات ، من حيث إنهم موضوع الكتاب ، والشعراء كما سبق تميزوا بطابع معين ، كانوا فيه عامة مخالفين – قليلا أو كثيرا – للاتجاه العام للمجتمع الدينى الاسلامى ، وكانوا بصفة عامة أقرب إلى الجاهلية منهم إلى الإسلام .

ومن أدلة ذلك أن الأنصار كانوا فى جملتهم منحازين بقلوبهم وسيوفهم إلى على ضد معاويه ، باعتبار أن عليا هو الخليفة الشرعى ، الذى بايعه المسلمون ، وأن معاوية خارج عليه ، وكان مقتضى هذا أن يكون شعراء الأنصار كذلك ، منحازين إلى على بقلوبهم وألسنتهم ولكنهم كانوا على العكس من ذلك ، ضد على بقلوبهم وألسنتهم ،

فقد كان حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن واحة والنعمان بن بشير ، وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، يعلنون خصومتهم لعلى ، وتعصبهم لبنى أمية ، بأشد ما يستطاع الإعلان والتعصب ، وقد حاور على بن أبى طالب حسان بن ثابت ، وكعبا والنعمان ، ليقنعهم بموقفه ، ولكن إصرارهم العنيف العميق على موقفهم لم يزدهم إلا تشبثا واصرار ا على خصومتهم له ، وقد ضاق على بذلك وخشى تأثير شعرهم فى المسلمين ، من حزبه ، فطلب منهم أن يرحلوا عن المدينة ، فرحلوا إلى معاوية ، فأسبغ عليهم من عطاياه السخيه ، وولى النعمان بن بشير على حمص (١)

(١) الأغانى للأصفهانى ١٦ – ٢٣٣

ومن شعر كعب بن مالك الذى يهيج به الثأر لعثمان ، ويحمل دمه عليا وأصحابه كما يدعى معاوية ، ثم يظهر الشماتة فى وقوع الشقاق بين أتباع على بن أبى طالب بوصفه خليفة بايعه المسلمون ، وكان ينبغى ألا يختلفوا فى الولاء له ، فمن ذلك قول كعب [1] :

كف يديه ثم أغلق بابـــــه وأيقن أن الله ليس بغافـــــل
وقال لمن فى داره لا تقاتلـــوا عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل [2]
فكيف رأيت الله صب عليهم العداوة والبغضاء بعد التواصـــــل
وكيف رأيت الخير أدبر عنهم وولى كإدبار النعام الجوافل [3]

ولا شك أن مثل هذا الشعر سيكون له صدى عميق فى النفوس وإثارة عنيفة فى القلوب ، ففضلا عما للشعر من أثر فى نفوس العرب فإن صدوره من شاعر يوصف بأنه شاعر الرسول ، أو أحد ثلاثة عرفوا للمسلمين جميعا بأنهم شعراء الإسلام ، وشعراء الرسول ، حسان ، وكعب ، وابن رواحة ، صدوره من مثل كعب ، ثم كونه يتخذ من عثمان بن عفان أحد صفوة المسلمين ، وصفوة خواص النبى ، موضوعا للعطف عليه ، كل ذلك لا بد أن يملأ نفوس بعض المسلمين تأثيرا بالعطف على موقف عثمان وحزب معاوية ، وبعضهم إشفاقا وحذرا من الإثارة والتأليب

(١) الأغانى للأصفهانى ١٦ – ٢٣٣
(٢) يتحدث فى البيتين الاولين عن عثمان ورفضه قتال الثائرين به
(٣) فى البيتين الأخيرين يشمت فى على بن أبى طالب وأصحابه

وموقف الشعراء المخضرمين من هذه الحزبية كان نواة خصبة لمن تلاهم من الشعراء ، فى جيل التابعين ، ثم من وليهم ، حيث انتهى الصراع إلى تكوين حزبين ثابتين ، أحدهما يمثله العلويون ، والآخر الأمويون ، ثم حل العباسيون محل العلويين ، أو كانوا فرعا من هذا الحزب ، بعد قيام الدولة العباسية ، فبعد أن كان الولاء كله للعلويين بصفتهم رمزا للبيت الهاشمى ، أصبح بعد قيام الدولة العباسية شعراء يتحدثون باسم العباسيين ، وشعراء باسم العلويين ، لأن الخصومه السياسية نفسها بين العلويين والأمويين ، انتقلت فأصبحت بين العلويين والعباسيين حين اندثر كيان الأمويين بالمشرق فلم تصبح لهم قوة يتكون منها حزب سياسى يطالب بالحكم ، وإنما أصبح الصراع المحتدم حينئذ ، بين العلويين والعباسيين ، ولكن الذى يعنينا هنا ، هو ما يتعلق بالشعراء المخضرمين ، وارتباطهم بهذا الحديث ، أن موقفهم من الحزبية السياسية كان نواة لمن وليهم من أجيال الشعراء[1]

وتصحب الحديث عن موقف شعراء الأنصار من الحزبية بين على ومعاوية ملحوظة لا ينبغى أن تمردون الوقوف عندها ، وهى أن نتساءل : لماذا شذ شعر اء الأنصار عن قومهم فى موقفهم ؟ فلماذا كان الأنصار بقلوبهم وسيوفهم مع على ، حتى إنه لم يشهد صفين مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير [2] وهو أحد شعرائهم ، أما سائر مقاتلى الأنصار ، فكانوا مع على ، ثم ينفرد شعرا ء الأنصار بهذا

(١) انظر فى الادب الجاهلى د . طه حسين ١١٦ — ١٦٨

(٢) انظر المصدر السابق ١٢٥

الموقف الشاذ عن موقف قومهم ، فيكونون فى حماس شديد ، مؤيدين لمعاوية ، ومخذلين عن على مثيرين لمشاعر المسلمين عطفا على عثمان فى قتله ، تعريضا بأن عليا وصحبه هم الذين أسلموه إلى القتل ؟

ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن الأنصار يصدرون فى موقفهم عن نزعة دينية ، هى الولاء للخليفة الذى بايعوه ، والذى يعتقدون أنه على الحق فى موقفه من هذه الخصومة ، أما شعراء الأنصار ، فإنما يصدرون عن النزعة الجاهلية التى سيطرت على عامة الشعراء المخضرمين والتى جعلتهم مشدودين إلى ما ألفوه فى الجاهلية ، وقد ألفوا فيما ألفوا فى الجاهلية هذه العصبية العنصرية أو القبلية ، وقد تمثلت هذه النزعة فى هذا التنافر القديم بين القحطانية والعدنانية ، فشعراء الأنصار وهم قحطانيون لا ينسون أن قريشا هى عنوان العدنانيين ، وعلى بن أبى طالب عنوان قريش ، ثم إن الدين ، وما أقامه من صلة الأخوة بين المسلمين ، لم يجعل شعراء الأنصار ينسون أن قريشا زاحمتهم فى مجدهم ، فاستلبته ، وبعد أن كانوا أعزة يثرب وما حولها خيل إليهم أنهم أصبحوا مسودين ومحكومين لقريش ، وليس لسلطان الإسلام ، بالاضافة إلى عوامل أخرى كلها ينتهى إلى جذور الجاهلية ، كل ذلك جعل شعراء الأنصار يصبون نقمتهم على العدنانية ، وعلى قريش فى ثوب على بن أبى طالب ، ولم يكن لهم من متنفس حينئذ إلا أن ينحازوا إلى صف معاوية بتاييدهم وألسنتهم كما كان حسان وعبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك وعبد الرحمن بن حسان ، الذين ظلوا بموقفهم وألسنتهم ضد على ، ولم يشتركوا معه فى حرب ، تأييدا

لمعاوية باللسان والسيف ، كما فعل النعمان بن بشير ، الذى شارك مع معاوية بسيفه فى صفين ، ولم يشترك معه يومئذ أحد من الأنصار كما سبق .

أما المؤيدون لعلى كرم الله وجهه من الشعراء المخضرمين فكانوا كثرة ، وكانوا من قبائل مختلفة ، فكان منهم شعراء من مزينة ، على رأسهم كعب بن زهير ، الذى كان مشهورا بأنه علوى ، وكان بنو أمية ينهون الناس عن رواية شعره الذى يفهم منه التحيز لعلى كهذه القصيدة الطويلة الرائية التى يصدرها الرواة بأن بنى أمية كانوا يمنعون من روايتها ، ومن إضافتها إلى شعره معا ، ولذلك أسقطها الرواة من ديوانه ، وإنما أضافها الشراح المحدثون إلى ديوانه ، بعد نقلها من مصادر أخرى متفرقة [١] . وكذلك معن بن أوس المزنى ، الذى كان معروفا بانحيازه إلى بنى هاشم عامة ، وله فى ذلك أشعار تناقلها الرواة [٢] ، ومن البدهى أن الانحياز إلى بنى هاشم فى هذا الصراع بينهم وبين بنى أمية ، وبخاصة إذا كان بأسلوب إعلامى كالشعر ، يعنى أنه ضد بنى أمية .

ومنهم من بنى عامر بن صعصعة النابغة الجعدى ، الذى نال شهرة وشرفا بين الشعراء المخضرمين ، بسبب دعاء النبى له ، ورضاه عن بعض شعره ، حين أنشد بين يدى النبى قصيدته الرائية المشهورة

(١) انظر شرح ديوان كعب ٢٥١ ومابعدها والمقدمة ص (ز)
(٢) انظر معاهد التنصيص للعباسى ٤-٢٦

التى تبلغ نحو مائتى بيت ، والتى أظهر النبى رضاه عن بعض معانيها كقوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن لـه بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصـدرا

فقال النبى : لا يفضض الله فاك . وكان النابغة حين احتدم الخلاف بين على ومعاوية من أشد المتحمسين لنصرة على ، حتى إنه خرج فى جيش على إلى صفين ، والنابغة شيخ موغل فى الشيخوخة ، ففزع معاوية ، لا من سيف النابغة ، وإنما من شعره ، ومن شهرته بين المسلمين ، بعد دعاء النبى له ، فكتب معاوية إلى مروان ، فاستولى على ماله ، وحبس أهله ، فأطلق النابغة شعره على معاوية موعدا ومهددا ومنه قوله :

مَنْ راكبٌ يأتى ابن هند بحاجتى على النأى والأنباء تنمى وتجلبُ
فإن تأخذوا أهلى ومالى بظنـة فإنى لأحرار الرجال مجـرب
صبور على ما يكره المرء كله سوى الظلم ، إنى إن ظلمت سأغضب

وقد اشفق معاوية على نفسه ، وعلى حزبه من غضب النابغة الذى يهدده به ، فأمر عامله أن يرد على النابغة كل شىء أخذه وقد صرح معاوية بخوفه من شعر النابغة ، حيث استشار مروان فيما يصنع بعد تهديد النابغة ، قال مروان : أرى ألا ترد إليه شيئا ، ولكن معاوية

يقول : ما أهون عليك أن يقطع على عرضى ، ثم ترويه العرب ، أما والله إن كنت لمن يرويه [1].

ومن شعراء بنى يمم المخضرمين كان نهشل بن حرّى ، الذى كان من بيت يتسنم ذروة الشرف فى قومه ، وكان أخوه مالك ، وأبوه حرّى ، ثم جده ضمرة ، سادة قومهم على التوالى ، وكان نهشل وقومه من أخلص أنصار على ، وكانت لهم راية خاصة فى جيش على بصفين يحملها مالك أخو نهشل ، وكان نهشل ضمن هذا الجيش ، وله مراث كثيرة فى أخيه مالك الذى قتل يومئذ ، ولكن الروايات لم تورد لنا شعرا لنهشل فى تأييد على ، أو تخذيل معاوية ، اللهم إلا ما يصف به هول هذه الحرب بينهما ، وكيف كان صبر قومه فيها ، وقد شغل الرواة عن تتبع موضوعات شعر نهشل إعجابهم بشعره فى الفخر الذى يفيض حماسا ، والذي يصور معانى بالغة الإبداع والجمال فى هذا الفخر ، كقوله [2] :

إنا لمن معشر أفنى أوئلهـــــم   قيل الكماة : ألا أين المحامونا[3]
لو كان فى الالف منا واحدٌ فدعوا   من عاطفٌ ؟ خالهم إياهُ يعنونا [4]
وليس يهلك منَّـــا سَيد أبـــداً   إلا افتلينا غلاما سَيِّدا فينـــــا

ومن المعروف أنه لم يكن هناك سلاح أمضى وأنفذ وأعمق جرحا

---

(١) خزانة الادب للبغدادى ٣ - ١٧١ وما بعدها
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢-٦٣٨
(٣) المحامون المدافعون . الكماة : الأبطال
(٤) العاطف الذى يعطف أى يرجع فيكر على الاعداء

من الشعر ، فكم من قبيلة هزمت فى حرب ، أو توالت عليها هزائم ، فلم يكن ذلك سبة لها ، طالما كانت صامدة مدافعة ، ولم تكن تلك الهزائم لتطأطىء من رءوس أبناء القبيلة ، طالما كانت سيوفهم بأيديهم بل كانت من مفاخرهم أن تثخنهم الجراح ، وأن ترتوى من دمائهم السيوف ، وأن تفنيهم الأنفة وقراع الكماة ، كما رأينا فى فخر نهشل الآنف الذكر ، ولكن بيتا واحدا من الشعر ، كان يمكن أن يخفض الرءوس العزيزة ، وأن يرفع الرءوس الخفيضة ، كما رفع الحطيئة أنف بنى أنف الناقة ، بعد أن كانت رءوسهم تنحنى خجلا من هذا اللقب ، بقوله :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟

وكما خفض حسان بن ثابت رءوس بنى الحارث بن كعب بعد أن كانوا يشمخون بقاماتهم المديدة ، بقوله :

لا عيب بالقوم من طول ولا عظم جسم البغال وأحلام العصافير [1]

وكذلك كانت أهمية الشعر ، وخوفهم من تأثيره ، بالقياس إلى قريش عامة ، وإلى حزب على ، أو حزب معاوية ، أو بنى هاشم أو بنى أمية ، ونضرب لذلك مثالا ، الرمّاح بن أبرد الذبيانى ، الشاعر المشهور بابن ميادة وهى أمه ، الذى قال فيما قال من شعر :

فضلْنا قريشا غير رهط محمد وغير بنى مروان أهل الفضائل [2]

---

(١) انظر للمثال شواهد كثيرة فى هذا المعنى فى العمدة لابن رشيق ١ – ٤٠ وما بعدها

(٢) فضلنا بفتح الفاء والضاد مخففة يعنى كنا أفضل من قريش

مفضلا أهل بيته على قريش ، لا يستثنى منها غير بنى هاشم رهط النبى ، وبنى مروان أصحاب الحكم ، فتناوله ابراهيم بن هشام منكرا عليه أن يفضل قومه على قريش ، وجلده بالسوط من أجل ذلك ، ومن جهة أخرى أنكر عليه الوليد بن يزيد الأموى أن يقدم رهط محمد فى الترتيب على بنى مروان ، وأنبه من أجل ذلك تأنيبا شديدا ، ثم ظل هذا البيت من الشعر عالقا بأذهان الطرفين ، مثيرا لاهتمامهم ، حتى ولى الخلافة أبو جعفر المنصور العباسى ، فأظهر رضاه عن ابن مياده لتقديمه بنى هاشم على بنى مروان ، وسأل أبو جعفر ابن ميادة عن قصته مع الوليد[1] .

(١) الأغانى للأصفهانى ٢ – ٣٠٢ ومابعدها وابن مياده ليس مخضرما ولكن الاستشهاد بالقصه لبيان أهمية الشعر فى مجال الحزبية . وانظر خزانة لبغدادى ١ – ١٦٠ وما بعدها

الشواعر المخضرمات

لم يحظ جيل شواعر قط من المجد الأدبي ، بمثل ما حظى به جيل المخضرمات ، فقد أتيح لهذا الجيل من الشواعر عوامل لم تتح فى صورة ظاهرة لجيل آخر ، وكان من هذه العوامل ظهور شخصيات بارزة موهوبة من نساء هذا الجيل ، جمعت بين الشاعرية ومواهب أخرى كقوة الشخصية ، أو التأثير فى مجتمعها بأى صورة ومن هذه العوامل وجود الأحداث الكبرى التى أحدثها الإسلام فى المجتمع العربى ، فأتيح لبعض النساء أن يرتبطن بهذه الأحداث ، ومن هذه العوامل قرب هذا الجيل من زمن التدوين ، ومصاحبته لجيل الرواة الذين حفظوا لنا تاريخ الأدب ، فيما حفظوا من أخبار وروايات شخصيات بارزة :

١ ـ الخنساء :

فمن الشخصيات البارزة الموهوبة فى هذا الجيل ، شخصية الخنساء ، التى يتفق رواة الأدب ونقاده على أنه لم تكن قبلها ولا بعدها امرأة كانت أشعر منها ، بل لدينا روايات كثيرة غير مطعون فيها ، توحى بمزاحمة الخنساء لفحول الشعراء من الرجال ، فمن المشهور أن النابغة الذبيانى الذى كان حكما بين الشعراء فى سوق

عكاظ ، حين أنشدته الخنساء ، قال : لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر من بالسوق ، ويعنى بأبى بصير أعشى قيس ، ويروى ان جريرا كان يفضلها على نفسه ، فيقول حين يسئل من أشعر الناس : أنا لولا الخنساء ، ويروى أن عدى بن حاتم الطائى حين قدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال يا رسول الله ، إن فينا أشعر الناس ، وأسخى الناس ، وأفرس الناس [1] قال : سمهم ، قال عدى : أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حُجر ، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد – يعنى أباه – وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب قال رسول الله : ليس كما قلت يا عدى ، أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد – يعنى نفسه – وأما أفرس الناس فعلى بن أبى طالب ومن الروايات المشهورة أن النبى كان يظهر رضاه عن شعرها ، فكان يستنشدها ثم يستزيدها قائلا : هيه يا خُناس [2] والمبرد يقول : كانت الخنساء بائنة فى شعرها ، متقدمة لأكثر الفحول [3]

فقد كانت الخنساء اذن موهبة شعرية فريدة بين النساء على طول التاريخ وعرضه ، وكانت موهبة متميزة بين الشعراء عامة تزاحم قممهم ، وتنافس فحولهم ، وكانت فوق ذلك مشهورة بالاعتداد بنفسها وبرأيها ، وقد أعانها على ذلك نشأتها ومعيشتها فى بيت جمع

---

(١) لا يعنى قبيلة طيء وأنما النسب القحطاني اليمنى ؛ والذين سماهم عدى ينتمون إلى القحطانية

(٢) خزانة الادب للبغدادى ١–٤٣٤

(٣) الكامل للمبرد ٢–٢٧٩

كل مقومات العزة فى المجتمع العربى ، ومقومات العزة كانت تتمثل فى ثلاثة ، السيادة ، والفروسية ، والشعر ، وقد حظى بيتها وبيت زوجها من هؤلاء بالنصيب الأوفى ، فقد كان أبوها عمرو بن الشريد من سادة القوم وفرسانهم وكان زوجها مرداس السلمى من سادة القوم وفرسانهم ، وكان ابنها أو ابن زوجها – حسب اختلاف الروايات – العباس بن مرداس من سادة القوم وفرسانهم ، ومعظم هؤلاء كانوا من الشعراء ، وبعضهم كان من أبرز شعراء عصره كالعباس بن مرداس ومن آثار صلابتها ، وقوة إرادتها أنها أصرت على حضور معركة القادسية بنفسها ، ومعها بنوها الأربعة ، فأخذت تحرضهم على البسالة فى القتال حتى استشهدوا جميعا وهم يرتجزون شعرا حماسيا فلما سمعت بموتهم لم تظهر جزعا ولا اضطرابا ، وإنما قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته ، فكان عمر رضى الله عنه يعطيها عطاء أولادها الأربعة بعد موتهم [1] .

ومن المشهور أن موت أخيها لأبيها صخر ، الذى كان شديد البر بها ، والذى كان يتحلى بصفات كثيرة من الشجاعة والفروسية والسيادة والجود ، هو الذى أطلق شاعريتها ، وكان سببا مباشرا فى أن أحلها هذه المنزلة الشعرية الرفيعة ، ذلك لأنها وقفت حياتها على رثائه حتى ماتت ، ولم يحظ بهذه الأهمية منها أخوها الشقيق معاوية ، الذى

---

(1) خزانة الأدب للبغدادى ١–٤٣٨ الشعر والشعراء لابن قتيبة ١–٣٤٣

كان لا يقل عن صخر شجاعة وفروسية وسيادة وجودا ، ولكنه كان أقل منه برا بها وعطفا عليها ، ومع أن هذا الوضع مشهور متفق عليه فى طول العصور ، إلا أننا لو تأملنا شعرها فى رثائها لأخيها الشقيق معاوية ، لوجدناه على قلته يفيض حنانا وصدق عاطفة ، وعمق حزن ، ومع أن الحكم ينبنى على الذوق والإحساس قبل القواعد النقدية المتعارف عليها ، فإن شيئا من عمق التأمل ، لا يلتوى فى إظهار أن رثاءها لمعاوية من حيث العاطفة ومشاعر الحزن ، كان أعمق وأشد تأثيرا فى النفس ، وإن كان رثاؤها لصخر من حيث المدح وتعديد المكارم ، أقوى وأشد إبرازا لأمجاد صخر ، فضلا عن الكثرة المستفيضة فى هذا الشعر ، ونستطيع أن نأخذ مثالين لما نقول ، فأولهما هذه القصيدة وهى من أشهر مراثيها لصخر ، وفيها تقول (1)

أعينى جــودا ولا تجمــدا ... ألا تبكيــان لصخر النــدى

ألا تبكيان الجرىء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا ؟

طويل النجــاد رفيع العمــ ... ـاد ساد عشيرتــه أمــردا

إذا القــوم مــدوا بأيديهمُ ... إلى المجد مَــدَّ إليه يــدا

فنــال الذى فــوق أيديهم ... مــن المجد ثم مضى مصعــدا

يكلفــه القــوم مــا عالهم ... وان كان أصغرهم مــولدا

ترى الحمــد يهوى إلى بيتــه ... يــرى أفضل الكسب أن يحمدا

(1) الكامل للمبرد ٢-٢٨٠

وهكذا لا نجد فى القصيدة أبعد من تعداد المآثر والمكارم ، ولا تكاد الخنساء تختلف فى هذا عن شاعر لا تربطه بصخر قرابة أو صلة يريد أن يرثيه ، وأن يعدد للناس صفاته ومكارمه ، ولكننا حين نذهب إلى شعرها فى رثاء أخيها الشقيق معاوية ، على قلته ، وعلى قلة مافيه من سرد الصفات ، وتعداد المكارم ، نحس فيه مشاعر الحزن وعمق العاطفة ، كقولها :

أريقى من دموعك واستفيقى ... وصبرا إن أطقت ولن تطيقى
وقولى إن خير بنى سليم ... وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجعَنْ لنا الليالى ... وأيام لنا بلوى الشقيق
فلا والله لا تسلاك نفسى ... لفاحشة أتيت ولا عقوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً ... من النعلين والرأس الحليق (١)

فهى لم تعتمد فى رثائها هذا على تعداد المكارم ، وإنما على إبراز مشاعر الحزن العميق الدفين ، الذى لا تبالغ فى إبرازه كما تفعل فى رثاء صخر ، وإنما تبالغ فى كتمانه وإخفائه وكأن حزنها على صخر يحتاج إلى إظهاره والإعلان عنه ليعلمه الناس ولكن حزنها على معاوية بلغ من ظهوره حدا يحتاج إلى كبحه ومقاومته ولننظر إلى مدى تأثير قولها وهى تخاطب نفسها ، متأرجحة فى هذا الاضطراب النفسى بين إراقة الدمع والافاقة منه ، وبين إطاقة الصبر ، وعدم إطاقته حيث تقول :

---

(١) النعلان كانت تضرب بهما المرأة خديها فى المصاب الشديد وحلق شعرها تعبير عن فداحة المصاب فهى تقول وجدت الصبر خيرا من هذا كله

أريقى من دموعك واستفيقى   وصبراً إن أطقت وان تطيقى

ولننظر إلى هذه الإثارة النفسية العميقة فى الحزن ، حين تبرز صورة معاوية وهو قتيل مجندل على صحراء العقيق ، فليس فى هذا مدح ، ولا إشادة بمكرمة كما تفعل فى رثاء صخر ، وإنما هو إبراز لمشاعر الحزن العميق البسيط. ، لأنه تعبير صادق ، تكفى فيه البساطة ، دون حاجة إلى تكلف أو مبالغة أو تصوير ، ولننظر الى إهاجتها لذكريات الأخوة والطفولة وهذا الأنس الطويل الذى أظلته الليالى ، وأقله هذا الوادى من لوى الشقيق حيث تقول :

ألا هل ترجعَنَّ لنا الليالى   وأيام لنا بلوى الشقيــق

ويمكن أن يقال إن ما يميز نظرة الخنساء إلى صخر زيادة عن صلة القرابة ، هو الإعجاب والوفاء ، الإعجاب بصفاته العديدة ، والوفاء لبره وأنعمه العديدة عليها ، ومنها ما ترويه الروايات ، من أن زوجها كان مسرفا متلافا حتى أعدم ، فوفدت على أخيها صخر فقاسمها ماله وأعطاها خير القسمين[1] ، ثم تكرر هذا مرتين بعد ذلك ، فظل هذان النبعان ، الإعجاب والوفاء ، يفيضان على لسان الخنساء من شعرها حتى ماتت ، ويمكن أن يقال إن ما يميز نظرة الخنساء إلى معاوية ، هو غريزة الحنان الطبعى ، بين الأخت وأخيها الشقيق ، هذا الحنان الذى يملأ قلبها عطفا وحنينا فى الحياة ، ولوعة وفجيعة فى المصاب ، فحين قتل معاوية انفجر فى قلبها هذا النبع الحنون العطوف ، لذلك لم يكن غريبا أن نجد رثاءها لصخر ، يحمل طابع المدح وتعداد

المكارم ، وهذا ما يستطيعه شاعر ولو لم يكن أخا لصخر ، وأن نجد رثاءها لمعاوية يحمل هذا الحنان والحب النابع من رابطة الدم الشقيق وهذا ما لا يستطيع أن يعبر عنه بصدق إلا الأخ الشقيق ، وهذه الملحوظة وإن لم تعتمد على غير الذوق ، فإنى أظنها من الوضوح بحيث لا تلتوى على من يلتمس الإحساس بها ، ويمكن لمن يريد أن يتابع هذه الملحوظة أن يقول : إن كثرة رثائها لصخر ، ومبالغتها فى إظهار حزنها عليه ، دليل على عدم عمق هذا الحزن ، أو عدم ثباته ، وكأنها بهذه المبالغة تريد أن تثبت شيئا لا توقن من ثباته ، لأنه لو كان ثابتا لم يكن فى حاجة إلى إثبات ، أما حزنها على معاوية فهو حقيقة تملأ نفسها قوة وثباتا ، فهى ليست فى حاجة إلى إثبات أو تأكيد ، وليس غريبا أن يجد هذا القول من ينكره ويأبى عليه ، وقد لا يعدم من الأسباب ما يفنده به ، بل هذه إحدى ميزات الأدب ، أن تتفاوت فيه الأذواق ، وأن تختلف حوله المشاعر ، لأن مرجع الأدب الأول أو الأصلى ليس العقل ، أو ليس العقل وحده ، وإنما الذوق والإحساس والوجدان ، ولئن كان الناس جميعا لا يخلون عادة من من الذوق والإحساس ، فإنهم يتفاوتون فى ذوقهم وإحساسهم ، كما يتفاوتون فى كل صفاتهم ، وفى كل أرزاقهم ، ونضطر إلى ترك هذه النقطة لكونها ليست من صلب الحديث .

وأهم ما يعنينا الآن من هذا كله ، أن نعلم أن الخنساء موهبة شاعرية فريدة بين النساء ، وأنها موهبة فذة تزاحم فحول الشعراء وأعلامهم ، ولا ينكر عليها أن تتفوق على كثير منهم .

٢ ــ هند بنت عتبة :

وكذلك كانت من الشخصيات الفذة فى تاريخ النساء كله هند بنت عتبة ، ولئن تركزت قوة الخنساء فى شاعريتها ، فقد تركزت قوة هند فى شخصيتها ، ولئن كانت الخنساء فى شاعريتها قد تفوقت على كل النساء ، ونافست قمم الرجال ، فإن هنداً كانت كذلك فى موطن قوتها وهو الشخصية ، فقد انفردت بين كل النساء بهذه الشخصية القوية التى تفرض تقديرها واعتبارها على الأولياء والأعداء على السواء ، وقد احتفظت بقوة شخصيتها فى الجاهلية والإسلام أيضا على السواء . ومع أنها وقفت من المسلمين مواقف كانت شديدة الإيلام لهم ، بتمثيلها بحمزة أسد الله ، حيث شوهت جسده بعد استشهاده فى أحد ، وبقرت بطنه ، ولاكت كبده ولم يعرف الغضب فى النبى صلى الله عليه وسلم ، كما عرف يومئذ حينما رأى عمه بهذه المثلة ، حتى أقسم لئن أظهره الله على قريش ، ليمثلن بثلاثين منهم وقال : ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا ، ولكن الله الذى فطره على الخلق العظيم ، يرده إلى طبيعته من الحلم والصفح الجميل ، حيث ينزل له قرآنا يتلى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون[1]

---

(١) اخر سورة النحل وانظر سيرة ابن هشام ٣ – ٦١١ وما بعدها

ومع أن صوت هند كان من أقوى الأصوات المدوية والمؤثرة فى تأليب قريش ضد المسلمين ، ومع أن ذلك كان من الطبعى أن يجعلها موضع كراهية المسلمين ، إلا أنه لم يجعلها موضع الازدراء أو النفور وفرق كبير بين الكراهية والازدراء ، فقد كانوا ينظرون إليها على أنها خصم قوى عنيد مثير ، ومهما يبلغ العناد ، أو تبلغ الصلابة ، فإن ذلك لم يكن ليحط من قدر الخصم فى نفس خصمه ، طالما كان أسلوبه فى الخصومة عاديا مألوفا ، لا ينزل إلى الإسفاف أو الامتهان ولا شك أن أسلوب هند على تطرفه ، وعلى بشاعة بعضه ، لم يكن مسفا ولا محتقرا ، بخلاف أسلوب أم جميل حمالة الحطب ، فيما كانت تتعرض به لشخص النبى صلى الله عليه وسلم من إيذاء تمجه النفس ، سواء ما كانت تلقيه بيديها من قاذورات الأرض ، أو بلسانها من قذر الكلام ، لذلك لم تحظ أم جميل بمجرد الكراهية من المسلمين ، وإنما كان أهم من الكراهية الاحتقار والنفور ، وقد سجل القرآن صورة من هذا ، فى سخرية بالغة من أم جميل ، لم يبلغ مبلغها وصف أو هجاء لامرأة [1] .

ولكن الشيء الذى يلفت النظر فى شخصية هند ، أنها حين أذعنت للإسلام وآمنت به ، لم يهدأ عنفها ، ولم يستكن جموحها ، بل ظلت عنيدة فى إظهار قوتها ، والتشبث بعنادها ، وكانت تلك سمة غير مألوفة ، سواء فى الذين دخلوا الإسلام بإيمان عميق ، أو الذين

(1) فى سورة المسد من القرآن الكريم ؛ وانظر فى تحليل هذه السخرية كتاب أسلوب السخرية فى القرآن الكريم للمؤلف .

دخلوه إسلاما وإذعانا متمهلين ريثما تستضيء قلوبهم بالإيمان ، أو الذين دخلوه وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، فأولئك جميعاً خضعت نفوسهم للإسلام ، وأذعنوا فى استكانة واضحة ظاهرة ، كما فعل زوجها أبو سفيان بن حرب ، الذى كان من أبرز سادات قريش والعرب عامة ، فلما دخل الإسلام استكان خاضعا ، سواء أكانت استكانته عن اطمئنان قلب ، أم مجرد الأذعان ريثما يتسرب النور إلى قلبه ، حتى إن عمر بن الخطاب حينما شكا إليه المسلمون فى مكة أن بعض جدار أبي سفيان يمنع عنهم مسيل الماء ، أتى عمر بأبى سفيان ، وأخذ يأمره أن يرفع حجارة الجدار حجرا حجرا ، وأبو سفيان ممتثل مطيع ، فلما فرغ ، رفع عمر يديه إلى السماء قائلا : الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أبا سفيان فى عقر داره فيطيع ، ولم تصدر من أبى سفيان خلال إسلامه مراجعة أو مصادمة لأمر قط ،

أما هند بنت عتبة ، فإنها وان لم تعلن عصيانا أو تمردا ، فإنها كانت مصرة على إعلان عنادها وإبراز شخصيتها فى أى صورة ، وبأى أسلوب ، كما فعلت عند مبايعة النبى صلى الله عليه وسلم للنساء فما يروى (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال ، أخذ فى بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل منه يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متقنعه متنكرة خوفا من رسول الله أن يعرفها ، فقال عليه السلام : أبا يعكن على ألا تشركن بالله شيئا ، فرفعت هند رأسها ، وقالت : والله لقد عبدنا الاصنام ، وإنك لتأخذ علينا أمراما

ما رأيناك أخذته على الرجال، تبايع الرجال على الاسلام والجهاد [١] ، فقال عليه السلام) ولا يسرقن (فقالت إن أبا سفيان رجل شحيح ، وإنى أصبت من ماله هنــات ، فما أدرى أتحــل لى أم لا ؟ قال أبو ســفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى ، وفيما غَبرَ فهو لك حلال ، فضحك النبي وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك ، فقال : (ولا يزنين) قالت هند : أو تزنى الحرة ؟ قال عليه السلام (ولا يقتلن أولادهن) قالت هند : ربيناهم صغارا ، وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ، ثم قال : (ولا يأتين ببهتان) قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ، ومكارم الأخلاق ، فقال (ولا يعصينك فى معروف) قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء . . [٢] فلم تكن هند تثير فى نفوس المسلمين إلا ما يثيره الخصم القوى الكريم حين يخاصم ، والخصم القــوى الكريم حين يخضع ويذعن ، وكل ما يمكن تصوره فى نفوس المسلمين ، هو ما تشير إليه قهقهة عمر من شماتة بها ، أو نحوا من ذلك ، وكذلك لم يبد من النبي صلى الله عليه وسلم نحوها ما بدا منه نحو وحشى قاتل عمه حمزة ، فمما يروى

---

(١) تعنى هند ان النبى لا يخشى على الرجال العودة إلى الشرك فبايعهم على الاسلام والجهاد وكأنه يخشى من النساء الشرك فبايعهن على الايشركن بالله شيئا

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى ٤-٤١٦ آخر سورة الممتحنه

أن وحشيا حين جاء إلى النبي مسلما ، قبل إسلامه ، ولكنه لم يطق رؤيته ، وقال له : هل تستطيع أن تغيب وجهك عني ؟ فلم يره بعدها [1] ذلك لأن أسلوبه لم يكن أسلوب الخصم المواجه المعلن ، كما كان أسلوب هند ، ولا أسلوب المقاتل المبارز كما يفعل الخصم الشريف في قتاله ، وإنما كان أسلوب الخائن الغادر المستخفي .

وقوة الشخصية صفة لازمت هندا منذ عرفها الناس ، وظهرت هذه القوة في كل موقف مر بها ، ومن ذلك موقفها في تهمة الخيانة التي رميت بها أثناء حياتها مع زوجها الفاكه ، قبل أبي سفيان ، فقد صمدت متحدية قوية حتى ثبتت براءتها ، وكذلك في كل مواقفها ، بل كان أسلوب حياتها يتسم بهذه القوة ، وتظهر فيه خصائص شخصيتها ، وكذلك كانت في تربيتها لأولادها ، فقد رأى بعض سادة العرب ابنها معاوية بن أبي سفيان ، وهو يومئذ غلام صغير ، فرأى فيه سمات النبوغ والزعامة . فقال : ليسودن هذا الغلام قومه ولكن هندا استصغرت هذا الهدف قائلة : ثكلته إن لم يسد غير قومه .

وقد أعان هندا على تنمية القوة في شخصيتها ، وعلى مزاولة هذه القوة وإبرازها ظروف نشأتها وحياتها ، فقد نشأت في بيت من أعرق بيوت قريش والعرب ، في بيت عبد شمس أخي هاشم ، ثم كانت لأب من أكبر سادات قريش ، هو عتبة بن ربيعة ، ثم عند زوج من أكبر سادات قريش والعرب ، هو أبو سفيان بن حرب ، ثم ولدت

(١) سيرة ابن هشام ٣-٥٩١ وفي رواية (ويحك غيب عني وجهك فلا أريتك)

سيدا من أكبر سادات العرب ، حتى قبل أن يكون خليفة ، هو معاوية بن أبى سفيان .

وأما عن تحريضها ضد المسلمين فقد كان صوتها كما سبق من أقوى الأصوات دويا وتأثيرا ضد المسلمين ، وبخاصة فى نحو ثمانى سنوات ، منذ مقتل ابنها حنظلة ، وأبيها عتبه يوم بدر إلى أن أسلمت يوم فتح مكة ، وعلى وجه أخص فى وقعة أحد ، فقد كانت هند من أشد المحرضين والمدبرين للحرب فى أحد ، قبل أن تتجه قريش إلى المسلمين فى عقر دارهم قرب المدينة ، ثم كانت هند عاصفة مدوية مثيرة أثناء القتال فى أحد ، وما من رواية عن أحد ، إلا وهند فى صلبها ، ذلك أن هندا تزعمت جماعة من نساء قريش وأخذت تحرض قومها على قتال المسلمين ، بالدفوف حينا ، وبالتأنيب حينا ، وبالرجز حينا آخر ، ومعها هؤلاء النسوة ، ومن رجزها

ويهـــاً بنى عبد الـــــدار ويهـــاً حمـــاة الأدبـــار
ضربا بكل بتّـــار

ومنه أيضا تخاطب قومها بلسان من معها من النسوة :[1]

إن تقبلـــــوا نعانـــق ونفـــــــرش النمـــارق
أو تدبـــــروا نفـــارق فـــــــراق غير وامـــق

(1) تاريخ الطبرى ٢-١٩٦ وسيرة ابن هشام ٣-٥٨٨

وقد تعرضت هند يومئذ للقتل ، لولا شهامة أبى دجانة وترفعه ، وقد اجمعت روايات أحد على هذه القصة ، وهى أن أبا دجانة سماك ابن خرشة الأنصارى ، الذى كان مثار الإعجاب فى شجاعته وبسالته وكان له طابع فريد فى القتال ، وكانت له عصابة حمراء ، فإذا عزم على هذا الطابع من القتال عصبها على رأسه ، فيقولون : لقد لبس أبو دجانة عصابة الموت ، ثم يقاتل فلا يثبت أمامه أحد ، ولا يلقى أحدا إلا قتله ، وقد قدم النبى صلى الله عليه وسلم سيفه إلى المسلمين قائلا : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال من المسلمين ، منهم الزبير بن العوام ابن عمة النبى ، ومن أبرز شجعان العرب ، فأمسكه النبى عنهم ، حتى قام إليه أبو دجانة يقول : وما حقه يا رسول ؟ قال : أن تضرب به حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه ، فأعطاه إياه ، ثم يروى الزبير بن العوام أن نفسه ضاقت برفض النبى إعطاءه السيف ، ثم يعطيه لرجل لا يعرف الزبير عنه شيئا ، فيقول : إنى تبعته لأرى ما يصنع ؟ وليرى لماذا آثره النبى بسيفه ، فإذا أبو دجانة يعصب رأسه بعصابته الحمراء ، وإذا هو يختال مزهوا بين الجيشين ، فيقول النبى : هذه مشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن ، ثم يقاتل أبو دجانة ، فلا يلقى أحدا إلا قتله ، ولا يثبت أمامه شىء ، يقول الزبير : ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق هند بنت عتبة ، ثم رفعه عنها ، ويروى أبو دجانة عن هذه الحادثة

فيقول (رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا [1] فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا هى امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة [2] ولم يفل هذا من عزم هند ، ولم يطفىء أجيج لوعتها على قتلاها فى بدر ، فأخذت ومعها صواحبها يمثلن بالقتلى من المسلمين يقطعن ويجد عن الآذان والأنوف ، حتى أتخذت هند من هذه الأذان والأنوف قلائد وحليا ، ثم عمدت إلى ما عمدت إليه من التمثيل بحمزة رضوان الله عليه ، ثم علت على صخرة مرتفعة ، وأخذت تشمت فى هزيمة المسلمين بمثل قولها :

نحـن جزيناكم بيوم بـدر والحرب بعد الحرب ذات سُعْر
ما كان عن عتبة لى من صبر ولا أخى وعمه وبكـرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشىُّ غليل صدرى
فشكر وحشىٌّ علىَّ عمرى حتى ترِمَّ أعظمى فى قبـرى

وقالت أيضا [3] :

شفيت من حمزة نفسى بأُحُدِ حتى بَقَرْتُ بطنه عن الكبد
أذهب عنى ذاك ما كنت أجد من لذعة الحزن الشديد المعتمد

ومثل شماته هند هذه لابد أن تكون مؤلمة للمسلمين ، فى هذا الوقت العصيب الذى منوا فيه بهزيمة مرة ، وفقدوا فيه أبطالا ممن

---

(١) الخمش هو الضرب فى الوجه
(٢) سيرة ابن هشام ٣-٥٨٨
(٣) سيرة ابن هشام ٣ - ٦٠٧ وما بعدها

اعتز بهم الإسلام ، كحمزة ، ولذلك يروى أن عمر بن الخطاب طلب من حسان أن يرد على شماته هند ، قائلا : لو سمعت ما تقول هند ، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة ؟ قال حسان : أسمعنى بعض قولها أكفكموها ، فأنشده عمر بعض شعرها يومئذ ، فرد عليها حسان بقصيدة رائية ، منها :

أشرت لكاع وكان عادتها لؤما إذا أشرت مع الكفر

وبلغ غيظ حسان من هند ، أن لجأ إلى الفحش والإقذاع فى هجائه إياها ، حتى إن ابن هشام يتعفف عن روايته بل إن غيظ المسلمين من هند حينئذ ، دفع إحدى الشواعر وهى هند بنت أثاثه ، أن تتجاوز الحياء فى ردها على شعر هند بنت عتبة ، فتقذع فى شعرها إقذاعا جعل الرواة يستحيون من روايته[1] .

٣ ـ شواعر المناسبات المختلفة :

وقد حفظت لنا الروايات أسماء كثير من الشاعرات ، وشعرا غير قليل من شعرهن وبعض هذا الشعر كان على درجة كبيرة من الجودة ، وقوة الشاعرية ، ولكن هذا النوع من الشواعر كان يغلب عليه أن يكون وليد المناسبات ، لا أعنى فى انشاء الشعر ، وإنما أعنى وصوله إلينا ، بمعنى أنهن مهما بلغن من شاعرية ، فإنه لو المناسبة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ – ٦٠٨

لم يكن معظمهن قد بلغنا شيء من أخباره ، وهن لا يختلفن فى هذا عن كثير من الشعراء الذين حفظتهم الروايات لمجرد ارتباطهم بمناسبة معينة ، ولكننا نريد التفريق بين هذا النوع ، والنوع السابق ، فمثل الخنساء وهند بنت عتبة ، تفرض نفسها على الرواية والتاريخ ولكن هذا النوع الذى نتحدث عنه ، مدين فى بقاء الحديث عنه إلى المناسبات .

ومن هؤلاء الشواعر قتيلة بنت الحارث القرشية ، التى قتل أخوها النضر بن الحارث يوم بدر ، حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم عليا بقتله ، فامتلأت نفس أخته لوعة وحزنا ، فأخذت تقول شعرا واضح الصدق فى الحزن ، والتأثير فى النفس ، ومنه قولها تعاتب النبى صلى الله عليه وسلم :

هل يسمعنّى النضر إن ناديتــه ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضنءِ كريمــة ... فى قومها والفحل فحل مُعْرق
ما كان ضرك لو مننت ؟ وربمـا ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن ... بأعــز ما يغلــو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتقٌ يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحــام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية مُتْعَبــاً ... رَسْف المقيَّــد وهو عان موثق

وحديثها عن القرابة ، لأن الحارث من بنى عبد مناف ، أقرب

قريش إلى بنى هاشم ، ويروى أن النبى حينما بلغه هذا الشعر ، قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه[1] .

ومن هؤلاء الشواعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، التى رثت أباها بشعر مؤثر ، بادى الصدق وعمق الإحساس ، وكان أبوها من سادات العرب فى الجاهلية ، أما هى فقد أسلمت ، وهى معدودة فى الصحابة ، وقد ارتبط رثاؤها لأبيها بمناسبة فى الإسلام ، ذلك أن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عائشة زوجه فى رواية أخرى تمثلت به عند وفاة النبى ، ومن هذا الشعر[2] :

قد كنت لى جَبَلاً ألُوذُ بظله ... فتركْتنى أضْحى بأجردَ[3] ضاحَ
قد كنتُ ذات حميَّةٍ[4] ماعشْت لى ... أمشى البَرَاز وكنت أنت جناحى
فاليوم أخْضع للذليل وأتقـى ... منه وأدفع ظالمى بالراح[5]
وأغض من بصرى وأعلم أنـه ... قد بان حـد فوارسى ورماحى[6]

وكونه يقال فى رثاء النبى صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة من بنته أو زوجه ، يجعل له ولمنشدته شأنا أو ذكرا فى تاريخ الإسلام .

ومن الشاعرات اللاتى ارتبط ذكرهن بالمناسبات والملابسات ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ – ٥٥٨ و ٥٢٧
(٢) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١ – ٣٧٦
(٣) الأجرد الأملس والضاحى المكشوف لا ظل فيه
(٤) الحميه العزة والبراز بفتح الباء الفضاء تعنى كنت طليقة حرة فموتك قص جناحى
(٥) بالراح تعنى لم يعد لى سلاح إلا كفى
(٦) بان انفصل والحد تعنى به القوس

عاتكة بنت زيد بن عمر القرشية ، التى كان أبوها أحد الأربعة المتحنفين ، دعاة الدين فى مكة قبل الإسلام ، وكانت عاتكة مشهورة بالجمال والعقل وحسن رأى الرجال فيها ، وتنافسهم على الاقتران بها ، ولكنها كانت سيئة الحظ فى حياتها مع الرجال ، فما من زوج تزوجته إلا ومات شهيدا ، تزوجت من عبد الله بن أبى بكر الصديق ، فلما كان فى جيش المسلمين فى موقعة هوازن يوم حنين أصابه أبو محجن الثقفى بسهم ، فمات منه بعد مدة ، ثم تزوجها عمر بن الخطاب فاستشهد اغتيالا ، ثم تزوجها الزبير بن العوام ، فاستشهد فى وادى السباع ، ثم تزوجها الحسين بن على ، فاستشهد فى كربلاء ، وكانت أول من رفع خده عن التراب ، ثم تأيمت فلم تتزوج بعده ، فكان عبد الله بن عمر يقول : من أراد الشهادة فليتزوج عاتكة بنت زيد ، وكانت عاتكة شاعرة ، وقد حفظت لنا الروايات بعض شعرها ، ومنه رثاؤها لزوجها الأول ، عبد الله بن أبى بكر [1] .

ومن شاعرات المناسبات سلمى بنت عتاب التميمية ، التى كانت ضمن السبايا اللاتى سباهن عيينة بن حصن ، فى سريته التى أمره النبى صلى الله عليه وسلم عليها ، ثم بعثه بها إلى بنى العنبر من تميم ، وقد حفظت لنا الروايات شعرا قالته سلمى هذه عند أسرها [2] .

ومنهم كبشة بنت معد يكرب ، أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد كانت لها قصة ملأت نفسها حزنا ، فأنتج هذا الحزن شعرا

---

(١) شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١-٤٦٠

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٤ - ١٠٣٩

إن لم يكن فى معانيه وتصويره ، فهو طريف متميز فى إثارته الحزن على أخيها القتيل ، ذلك أنها كان لها أخ شقيق يدعى عبد الله ، وكان عمرو أخا غير شقيق لها ، فحدث خلاف بين عبد الله وبين بعض بنى مازن ، فقتلوه ، ثم ذهبوا إلى أخيه عمرو يسترضونه طالبين منه أن يقبل اعتذارهم ، وأن يقبل دية أخيه ، فرضى عمرو ، وهم أن يأخذ الدية ، فإذا كبشة تثير الدنيا حزنا وصخبا على عبد الله ، ولوما وإنكارا على عمرو أن يرضى بالدية ، ولا يثأر لأخيه عبد الله وصاغت هذا كله فى شعر يجمع بين الحزن والسخط. والثورة على قومها فى اتجاههم إلى السلم والموادعة [1] .

ومن شاعرات المناسبات حُرقة بنت النعمان بن المنذر اللخمى ، الذى كان قبيل الإسلام ملكا مشهورا على الحيرة ، وقصته مع النابغة الذبيانى الشاعر مشهورة ، وقد أسلمت حرقة ابنته ، ثم وفدت على سعد بن أبى وقاص إبان إمارته للجيوش الإسلامية فى القادسية ، فلما علم بقدومها عليه ، أبدى اهتماما بها ، وكرر السؤال عنها ، فاستشعرت حرقة شيئا من خجل لما صار إليه ملكهم ، وكأنها ظنت سعدا يشمت بها ، فآلمها هذا الإحساس ، فعبرت عنه بخطبة قصيرة تتعزى فيها عن مجدهم الزائل ، وتسب الدهر الذى لا يثبت على حال ، وتذكر سعدا بألا يغتر بالدهر وما فيه من عرض زائل ، ثم تقول فيما قالت[2]

---

(١) انظر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ١ – ٧١
(٢) مختصر شرح التبريزى لحماسة أبى تمام ٢ – ٥٣

بينا نسوس الناس والأمر أمرنا　　إذا نحن فيهم سوقة نتنصّف[1]

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها　　تقلّب تارات بنا وتصّرفُ

شواعر المغازى :

من طبيعة المرأة ضعف اهتمامها عادة بالأمور العامة ، واقتصار عنايتها واهتمامها على ما يرتبط بذاتها وشخصيتها ، بسبب مباشر أو غير مباشر ، هذه حقيقة لا يلتوى التاريخ الطويل فى إعلانها وتأكيدها ، ومن آثار ذلك أن المرأة قلما تعنى بالسياسة أو حديثها ، ولا يشدها حديث يتعلق بأمر من الأمور العامة قط ، إلا إذا كان هذا الأمر مرتبطا بها ارتباطا يجعل لها فيه مصلحة شخصية ، من طريق قريب أو بعيد ، ومن آثار ذلك أيضا أننا قلما نجد شاعرة فى التاريخ الطويل عنيت فى شعرها بأمور الحرب ، إلا إذا مستها هذه الحرب فى عزيز عليها ، أو أصابتها بضر يلمس حياتها ، حينئذ يمكن أن تتدفق شاعريتها بالتعبير عما أصابها من هذه الحرب ، كما تدفقت شاعرية جليلة بنت مرة فى حرب البسوس حين وجدت نفسها فى صراع بين مشاعر الولاء لأهلها ، والولاء لأهل زوجها ، وكلاهما ألد عدوين لبعضهما فى هذه الحرب .

ولكن الأمر فى ظل الإسلام كان مختلفا إلى حد ما ، فقد ظهرت فى شعر النساء نزعة الاهتمام بهذه الحرب الدائرة بين المسلمين

---

(١) بينا : لفظ يفيد المفاجأة ، والسوقة : العامة ، ونتنصف : تعنى نصبح خدما للناس

والمشركين ، وبدا أن النساء أخذن يعنين بما تسفر عنه هـذه الحروب ، ويعبرن عن مشاعرهن إزاءها ، وقد يقال إن المتتبع لشعر النساء المتعلق بالحروب الدينية هذه ، يجد أيضا أن شعرهن أو أكثره نابع من مشاعر شخصية ، وليس من اهتمام بأمور عامة ، فأكثرهن إنما يقلن الشعر حينما يقتل لهن عزيز عليهن ، أو حينما ترد إحداهن على شاعرة أخرى تحس منها شماتة أو تشفيا أو نحو ذلك ، وهذا القول غير مبعد عن الحقيقة ، ولكنه لا ينفى أن نزعة جديدة ظهرت فى شعر النساء لم تكن ظاهرة قبل ذلك ، وهى الاهتمام بأمر عام ، هو الصراع بين قوتين ، وقد يكون السبب المباشر لدى الشاعرة رثاء أب أو أخ ، ولكن معالجتها للموضوع تحمل نزعة الاهتمام بهذه الحرب لذاتها ، وترقب نتيجتها ، أو نتيجة أخرى تحض عليها ، كالمطالبة بالثأر فى حالة هزيمة فريقها .

وإذا التمسنا تعليلا لهذه النزعة التى ظهرت فى شعر المخضرمات ، من حيث الاهتمام بالحروب التى دارت بين الإسلام والشرك ، نجد من الواضح أن النزعة الدينية هى العامل الأصلى فى هذا المجال ، ثم تدعمها العوامل الأخرى ، من العصبية والمشاعر الشخصية النابعة من الضر الذى ألحقته بها هذه الحرب ، وحتى إذا كانت هذه العوامل معكوسة الترتيب لدى بعض الشاعرات ، فإنها لا تنفى أن النزعة الدينية عامل ظاهر وأصلى بين هذه العوامل .

كما أن الشعور الدينى ، وإن كان شعورا شخصيا ، ويمس

المصلحة الذاتية ، فإنه لا ينفى أيضا أنه أمر عام ، لا يختص به واحد دون غيره .

وأشهر الشاعرات اللائى لمع اسمهن خلال غزوات المسلمين وصراعهم هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، زوج أبى سفيان ، التى كانت كما سبق القول قوة يحسب المسلمون حسابها ، سواء بقوة شخصيتها أو بتأثير شعرها ، وقد رأينا كيف أن عمر بن الخطاب ضاق بشماتتها وبشعرها يوم أحد ، وأفضى بهذا الضيق إلى حسان بن ثابت محرضا إياه على أن يرد على شعرها ، وقد فعل حسان بن ثابت ما أشار به عمر .

وكل أشعار هند بن عتبة كانت فى جاهليتها ضد الإسلام ، وكأنها شعرت أن الحرب وضعت أوزارها بالقياس إليها هى حين أسلمت ، فلم تعد بها حاجة إلى الشعر ، لأنه لم تعد أمامها قوة تصارعها وإنما أصبحت حروب المسلمين بعد إسلامها أمورا عامة لا تعنيها كثيرا ، ولا تنفعل بها ، لعدم مساسها بكيانها وذاتها ، وقد حفظت كتب التاريخ الإسلامى ، وبخاصة سيرة ابن هشام أشعارا كثيرة لهند ، وعلى الأخص ، فى يوم بدر الذى قتل فيه ابنها وأبوها وعمها ثم يوم أحد الذى شفت فيه نفسها من المسلمين شماتة وتشوبها لشهدائهم ، كما فعلت بحمزة أسد الله [1] ومن شاعرات الشرك

---

(١) انظر للمثال سيرة ابن هشام ٥٥٥ وما بعدها ٦٠٧ و ٦٦٦ وما بعدهما وخزانة البغدادى ٣-٢٦٤ وتاريخ الطبرى ٢-١٩٦

حينئذ صفية بنت مسافر الأموية القرشية ، التي اسهمت بشعرها ضد المسلمين ، ومنه رثاؤها لقتلى قريش يوم بدر [1] وشعرها وإن لم يكن جيد الشاعرية ، إلا أنه ينم عن شعور بالحزن على عدد كبير من السادة ، كانت قريش تعتز بهم ، وتباهى بهم أيضا

ومن شاعرات قريش قتيلة بنت الحارث ، التي سبق القول بأن رثاءها لأخيها النضر بلغ من تأثيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لو بلغني هذا قبل قتله ما قتلته[2] .

ومن شاعرات المشركين عمرة بنت دريد بن الصمة ، التي قالت شعرا كثيرا في رثاء أبيها حين قتل في موقعة هوازن يوم حنين ، وكان دريد من أشهر هوازن بالفروسية والسيادة وسداد الرأى ، وكان يومئذ شيخا كبيرا لا يقوى على القتال ، فوصل إليه غلام ناشئ من المسلمين من بني سليم ، فضربه بسيفه فلم يقتله ، ولم يكن الغلام يعرفه ، فقال دريد : بئسما سلحتك أمك يا غلام ، خذ سيفي من مؤخرة رحلي ، ثم اضرب به فوق العظم ، وتحت الدماغ ، فكذلك كنت أضرب الرجال ، فإذا أتيت أمك ، فقل : إني قتلت دريد بن الصمة ، وقد أظهرت عمرة ابنته حزنا على مقتله ، وغضبا شديدا لعدم مقدرة قومها على الثأر ثم تعلن في شعرها استكانتها لسلطان الإسلام وأنه (قهر الأقوام كلهم) حيث تقول : [3]

---

(١) سيرة ابن هشام ٣-٥٥٧

(٢) المصدر السابق ٢-٥٥٧

(٣) المصدر السابق ٤-٩٠٢

قالوا قتلنا دريدا قلت قد صدقوا　　فظل دمعى على السر بال ينحدر
لولا الذى قهر الأقوام كلهم　　رأت سليم وكعب كيف نأتمر

ويمكن أن يكون قصدها بالذى قهر الأقوام كلهم شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان شعرها وشعر أخيها سلمة بن دريد ، من أبرز أشعار هوازن يومئذ ، وأشدها إثارة ضد المسلمين .

وكان من الطبعى أن يقابل هذا السلاح الشعرى فى محيط المشركات ، سلاح شعرى فى محيط المسلمات ، وكما كان فى قريش شاعرات يهاجمن المسلمين ، ويحرضن ضد الإسلام ، فكذلك كان فى قريش أيضا شاعرات مسلمات ، يصددن هذا الشعر المصوب نحو ذويهن ، ونحو دينهن ، فمنهن هند بنت أثاثة بن باد بن المطلب التى أثارتها شماتة هند بنت عتبة فى المسلمين ، وفى حمزة يوم أحد ، حيث قالت بعد أن بقرت بطن حمزة ولاكت كبده تحت أسنانها ، ثم لفظتها بعد أن لم تسغها ، قالت تخاطب المسلمين ، وتخاطب نفسها أيضا :

نحن جزيناكم بيوم بدر　　والحرب بعد الحرب ذات سُعْرِ
شفيت نفسى وقضيت نذرى　　شفيت وحشىٌّ غليل صدرى
فشكر وحشى علىَّ عمرى　　حتى ترمَّ أعظمى فى قبرى

فإذا هند بنت أثاثة تثيرها هذه الشماتة فى ذويها من بنى هاشم (١) فتقول شعرا ترد به على هند بنت عتبة ، منه :

خزيت فى بدر وبعد بـدر يا بنت وقّاع عظيم الكفـر
صبحك الله غداة الفجـر ملها شميين الطوال الزهـر
بكل قطّاع حسام يَفْـرى حمزة ليثى وعلىٌّ صقـرى

وتنسب إلى هند بنت أثاثه أشعار فى رثاء بعض أقاربها يوم بدر .

ومن شاعرات قريش المسلمات ، صفية بنت عبد المطلب ، عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، شقيقة حمزة ، وقد كانت أشد صبرا على حمزة مما كان متوقعا ، حتى إن النبى حين رأى بشاعة ما أصاب حمزة من التمثيل والتشويه ، أشفق على صفية أن ترى هذا المشهد البالغ البشاعة ، فطلب من ابنها الزبير بن العوام أن يصرفها حتى لا ترى حمزة فى هذه الصورة ، فإذا صفية تقول : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك فى الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن ، إن شاء الله ، فأذن لها النبى فى رؤيته ، فمازادت حين رأته على أن استرجعت ، واستغفرت له ، وصلت عليه (٢) ، وحتى فى رثائها إياه ، كانت صبورا ثابتة ، وكان حديثها عن الدين أوضح من حديثها عن الحزن ، كقولها (٣) :

---

(١) هى هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب والمطلب هذا أخو هاشم ونوفل وعبد شمس أبناء عبد مناف بن قصى

(٢) سيرة ابن هشام ٣-٦١٢

(٣) المصدر السابق ٣-٦٦٥

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نُرَجّى ونرتجى لحمزة يوم الحشر خيرُ مصير

ومن الشاعرات المسلمات نعم بنت سعيد ، امرأة شماس بن عثمان ، وهو من بنى مخزوم ، وقد أظهرت نُعْم على زوجها جزعا عبرت عنه بشعر واضح الحزن والألم ، منه[1] :

يا عين جودى بفيض غير إبساس على كريم من الفتيان أبّاس[2]
أقول لما أتى الناعى له جَزِعا أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى

فأخذ أخوها أبو الحكم بن سعيد بن يربوع يواسيها ويعزيها بمثل قوله :

اقْنِىْ حياءك فى ستر وفى كرم فإنما كان شماس من الناس
لا تقتلى النفس إذ حانت منيته فى طاعة الله يوم الروع والبَاس
قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى فذاق يومئذ من كأس شماس

ومن شاعرات المسلمين أمامة المزيرية التى غاظها نفاق أبى عفك أحد بنى عمرو بن عوف من الخزرج وكان يحرض الأنصار واليهود ضد النبى بشعره ، ويثير أحقادهم وخلافاتهم الجاهلية ، فأمر النبى بقتله ، فقتله أحد أقاربه ، وهو سالم بن عمير ، فعبرت أُمَامَة المزيرية عن غيظها من أبى عفك ، وعن سرورها بمقتله ، بمثل قولها تخاطب أبا عفك بعد مقتله .

تكذب دين الله والمرء أحمـدا لعمر الذى أمناك أن بئس مايُمْنى
حباك حنيف آخرَ الليل طعنةً أبا عفك خذها على كبر السِّن

(١) سيرة ابن هشام ٣-٦٦٦
(٢) الأباس : القهار للأعداء

الشعراء اليهود

وفى حديثنا عن الشعراء المخضرمين من اليهود ، أو المعاصرين ، للمخضرمين ، أو الموالين لليهود من الشعراء العرب ، نقول أولا إن المستشرقين كما سبق يسرفون فى إبراز كيان النصرانية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وفى سبيل عاطفتهم الدينية يلجئون أحيانا إلى المبالغة أو تجاوز الحقيقة ، فيصورون أن اليهودية والنصرانية كأنهما كانتا مسيطرتين دينا وفكرا على العرب ، مع اعترافهم بأن اليهود كانوا محتقرين من العرب [1] وأن النصارى كانوا محصورين فى بقع محددة من شمال الجزيرة وجنوبها (١) وليس من المعقول أن تكون القلة المحتقرة ، أو القلة المنزوية ذات سيطرة أو انتشار ، فى دينها أو فكرها أو غير ذلك ، ولكن أغلب المستشرقين يهدفون من وراء ذلك إلى إثبات أن اليهودية والنصرانية لهما تأثير فى الحضارة العربية ، بل وفى الدين الإسلامى ، ومن ذلك أنهم ينسبون كل حديث عن الدين فى شعر الجاهلية إلى النصرانية أو اليهودية ، حسب ما يدين به المستشرقين من دين ، حتى إن بعضهم لم يخجل من ادعاء

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١-١٢١ والأغانى للأصفهانى ٢٢-١١٥

أن كل شعراء الجاهلية كانوا نصارى[1] ، ومن آثار محاولتهم إثبات تأثير هذين الدينين فى الثقافة والحضارة العربية ، ادعاء الكثرة والتأثير للشعراء اليهود والنصارى ، كما فعل كارل بروكلمان ، مع أنه حين استشهد لم يستشهد إلا بالسموءل الشاعر اليهودى ، وبعدى بن زيد ، الشاعر النصرانى ، ولم ينكر الشك القوى فى السموءل ، هل هو يهودى النسب ، أم عربى ؟ [2] .

أما الحقيقة التى يعرفها التاريخ بوضوح ، فهى أن أصحاب الديانتين كانوا قلة قليلة ، فلا يكاد اليهود يتجاوزون مناطق صغيرة محددة ، أهمها فى أطراف اليمن ، وجوانب يثرب ، ولا يكاد النصارى يتجاوزون أيضا مناطق صغيرة فى شمال الجزيرة وبخاصة فى الحيرة ، وفى نجران من جنوب الحجاز ، ومن المؤكد أن كلا الديانتين لم يكن لها تأثير أوسع من النطاق الفردى المحدود كما كان المتحنفون الأربعة فى مكة ، ورقة بن نوفل وصحبه ، على أن هؤلاء كانوا مع تأثرهم بالنصرانية يعلنون ولاءهم لملة إبراهيم ، وليس للنصرانية بالذات .

والذى يعنينا من هذا أن كلا الجماعتين : اليهود والنصارى لم تخل من شعراء ، ولكن كانوا قلة ، وكانوا غير ذوى تأثير واضح ومن الملحوظ أن شعراء النصارى لم يكونوا ظاهرين ، لا فى عددهم ولا فى إعلان دينهم ، بل كانوا من القلة إلى حد الندرة ، وحتى عدى

---

(١) المصدر السابق الجزء الأول نقلا عن مستشرقين اخرين وانظر شعراءالنصرانية لويس شيخو

(٢) المصدر السابق ١-١٢٥ والأغانى للأصفهانى ٢٢-١١٦

ابن زيد الذى يجعلونه عنوانا للنصارى فى الجزيرة العربية ، حين نذهب إلى شعره لا نجد فيه الدين النصرانى واضحا ، فهو نصرانى ، ولكن النصرانية غير واضحة فى شعره ، بوصفها دينا يتعصب له أو يدعو إليه ، أما اليهود فكان لهم عدد من الشعراء فى كل العصور ولعل هذا الفارق مرتبط بالسماحة النصرانية ، وعدم شهرة أبنائها بسيطرة التعصب الذى يدفعهم إلى تكلف شعر يعلنون به هذا التعصب أما اليهود فمن المعروف عنهم فى كل عصر ، وفى كل بيئة أن حياتهم مصوغة من التعصب لأنفسهم ، والعداء لغيرهم ، فكان من الطبعى أن يكون لهم شعراء يعلنون هذا التعصب ، ويدافعون عنه .

ومن الشعراء اليهود المعاصرين لبدء الإسلام ، والذين ظهرت فيهم هذه النزعة أوس بن ذبّى من شعراء بنى قريظة . ومن أخباره أن امرأته اليهودية وكانت من بنى قريظة أيضا أسلمت وفارقته ، ثم خيل إليها أن تدعوه إلى الإسلام ، وأن يعودا إلى سابق حياتهما مسلمين ، فتذهب إليه تعرض عليه الإسلام ، وترغبه فيه ، ولكنه أبى ، وأصر على التمسك بيهوديته وأخذ يدعوها إلى اليهودية وقال فى ذلك شعرا ، كان منه [1] :

دعتنى إلى الإسلام يوم لقيتها	فقلت لها : لا بل تعالى تهودى
فنحن على توراة موسى ودينه	ونعم لعمرى الدين دين محمد
كلانا يرى أن الرسالة دينهُ	ومن يُهْدَ أبواب المراشد يَرْشد

(١) الأغانى ، للأصفهانى ٢٢–١١٥

وإذا كان مثل هذا الشعر يصور تصويرا صريحا نزعة التشبث بالكيان من جهة ، ونظرة العداء للغير من جهة أخرى ، فإن هناك شعرا يصور هذه النزعة تصويرا رمزيا وليس صريحا ، كهذا الذى ترويه الروايات على أنه مما شاع من شعر اليهود وحتى أمسى يغنى ، ومنه [1] :

أعاذلتى أَلالا تعْذلـــــينى ... فكم من أمر عاذلة عصـــيت
دعينى وارشدى إن كنتُ أَغْوَى ... ولا تغْوَىْ زعمتِ كما غوَيْتُ
أعاذل قـد أَطلت اللومَ حـتى ... لو أنى مُنْته لقـــد انتهيتُ
وحتى لو يكون فتى أُنــاسٍ ... بكى من عذل عاذلة بكيتُ

فهو يصور الناس عاذلين لائمين ، ويصورهم ظالمين ظلما يدفع إلى البكاء ، ويصور الشاعر نفسه عنيدا متشبثا بموقفه وأسلوبه ، وإن اتهمه الناس جميعا بالضلال والغواية ، وهذه نزعة اليهود ، وتصورهم لموقف الناس منهم .

وهذا شاعر ، يهودى آخر يخرج من حصن بنى النضير ، عند حصار النبى صلى الله عليه وسلم إياهم يوم خيبر ، فيرتجز شعرا ، ويطلب من يبارزه ، ولم يعرف الرواة من اسمه إلا أنه مرحب ، وأغلب الظن أنهم إنما عرفوه من شعره ، حيث ساق اسمه فى هذا الرجز ، على عادة المبارزين ، فيقول :

---

(١) الأغانى للأصفهانى ٢٢-١١٦

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينا أضرب إذا الليوث أقبلت تحَرَّبُ
إن حمايَ للحمى لا يُقْرَبُ يُحْجِم عن صَوْلتي المجَرِّبُ

ولذلك يسوقون اسمه على أنه مرحب اليهودى .

وأشهر شعراء اليهود المعاصرين لبدء الإسلام كعب بن الأشرف الذى يختلف الرواة فى نسبه ، هل هو من بنى النضير ، أم هو من طيء وأمه من بنى النضير ، ولكنهم يتفقون على أمرين ، أحدهما أن أمه يهودية ، وهذا كان فى ظهور يهوديته ، فمن المعروف أن اليهود ما زالوا حتى اليوم مختلفين على تعريف اليهودى ، ولكن آخر ما رجحت فيه كفة الآراء لديهم ، أن اليهودى من كانت أمه يهودية ، مهما كانت صفة أبيه ، والأمر الآخر الذى يتفق عليه الرواة يثبت يهودية كعب أنه كان يعيش فى بنى النضير ، وكان من سادتهم ، ومن أشهر فرسانهم وشعرائهم ، وكان أيضا من أشد اليهود عداء للنبى وللإسلام ، ومن أكثر الشعراء إثارة للناس ضد الإسلام ، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله ، فذهب خمسة من المسلمين ، على رأسهم محمد بن مسلمة ، فاحتالوا ذات ليلة حتى استدرجوه إلى الخروج إليهم ، ثم قتلوه ولكعب أشعار كثيرة ضد المسلمين ، وفى إثارة الفتنة بين الأنصار وتأليبهم على النبى والمهاجرين ، وله شعر كثير فى رثاء المشركين من قريش يوم بدر ، وهو يتمنى فى هذا الشعر أن لو كانت الأرض ساخت بأهلها وتصدعت قبل أن يسمع بمصرع هؤلاء السادة من مشركى

قريش ، وأخذ فى شعره هذا يثير نفوس قريش على قتلاهم ، منوِّهاً بنفر من أعلام هؤلاء القتلى كأبى جهل الحكم بن هشام وعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، ومن ذلك قوله :

نبئت أن بنى المغيرة كلهم   خشعوا لقتل أبى الحكيم وجُدِّعوا

ولم يكتف بأن ينشر هذا الشعر من مقره فى يثرب ، وإنما طوف به حتى بلغ مكة ، ثم عاد ، وأخذ يتفنن فى إثارة المسلمين حتى نال من أعراضهم ، وقد رد عليه عدد غير قليل من شعراء المسلمين ، وشواعرهم ، ومنهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك [1] ومن شعر كعب الذى نال فيه من أعراض المسلمين ، بعد عودته من رحلته إلى مكة ليؤلب القبائل على المسلمين ، وكأنه حينئذ ينصب كل ألوان الحرب على المسلمين ، بما فيها حرب الشعر ، وما تثيره من نواح نفسية ، فيقول فى غزله بأم الفضل بنت الحارث : [2]

أراحل أنت لم تحلل بمَنقبةٍ   وتــاركٌ أمَّ الفضل بالحرم
صفراءُ رادعة لو تعْصَر انعصرت   من ذى القوارير والحنَّاء والكتم

ومن شعراء اليهود فى هذه الآونة جبل بن جوال الثعلبى ، الذى تصفه الروايات بأنه كان يهوديا فأسلم ، وتعده بعض الروايات من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [3] ، وكان من الذين عبروا

---

(١) انظر الأغانى للأصفهانى ٢٢-١٣٢١ - وسيرة ابن هشام ٥٦٥ ومابعدها
(٢) انظر تاريخ الطبرى ٢-١٧٨
(٣) انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٣١٧

بشعرهم عن الحزن العميق على ما أصاب بنى قريظة وبنى النضير على يد المسلمين ، فهو يبدى حزنه ، معددا بعض سادة اليهود الذين قتلوا حينئذ ، معرضا بالأنصار وبخاصة الأوس ، ويبدو أن هذا الشعر كان قبل إسلامه ، ومنه : (1)

ألا يا سعد سعدَ بنى معاذ لما لقيتْ قريظة والنَّضير
وأَقْفرت البوَيْرَة من سَلام وسعية وابن أخطبَ فهى بور
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا كما ثقلتْ بميطان الصُّخور
وجدنا المجد قد ثبتوا عليه بمجد لا تغيبه البدور
أقيموا يا سراة الأوس فيها كأنكم من المَخْزاة عور

ومن شعراء اليهود الذين عاصروا تلك الحقبة ، والذين امتلأت نفوسهم بمرارة الهوان والخزى حينئذ «سمَيرْ بن أدكن ، الذى آلمه حزم عمر بن الخطاب فى تصفية ركائز اليهود وإجلائهم عن جزيرة العرب ، وكان من شعراء يهود خيبر ، فيقول هذا الشاعر شعرا يعد من أدل الأشعار على نفسية اليهود وأخلاقهم وخصائص طبيعتهم ونظراتهم إلى أنفسهم وإلى غيرهم ، فمن المعروف عن اليهود ضعف نزعتهم الدينية من حيث العقيدة إلى حد الانعدام ، فهم فيما بينهم وبين أنفسهم لا يعتنقون عقيدة ، ولا يثبتون على تدين ، وكل ما يبدونه من التفاف حول الدين وتشبث به ، فإنما هو تعصب جماعى

(1) سيرة ابن هشام ٣-٧٢٥ وانظر تاريخ الطبرى ٢-٢٥٠

نفعى ، لا يهدفون من ورائه إلى رفع لواء دين ، وإنما لتحقيق كسب مادى ، فى أى صورة من صور المادية الدنيوية ، ولا بأس لديهم حينئذ أن يتخذوا من الدين وسيلة للوصول إلى هذه الغاية ، وهذا الشاعر يكشف عن هذه النزعة حين يشك فى صدق نبيهم موسى ، ويكشف هذا الشاعر عن نظرة اليهود إلى غيرهم ، وما تحمله نفوسهم من عداء للناس ومن تعال على الناس ، فى الوقت الذى يحملون فيه الازدراء لأنفسهم وهو تناقص وان بدا غريبا فى ظاهره ، إلا أننا حين نرده إلى تحليل نفسياتهم وخصائصهم فى ضوء ما كشفه الباحثون من هـذا التحليل لطبيعتهم ، لا نجد حينئذ غرابة ولا عجبا [1] ، يقول الشاعر اليهودى سمير بن أدكن : [2]

يصول أبو حفص علينا بِدِرَّةٍ رويدك إن المرء يطفو ويرْسب

كأَنك لم تتبَع حَمولَة مَا قط لتشبعَ ، إنَّ الزَّاد شَىْ ٌمحَبَّب [3]

فلو كان موسى صادقا ما ظهرتم علينا ولكن دَوْلةٌ ثم تَذْهَب

ونحن سبقنا كم إلى المَيْنِ فاعرفوا لنا رتْبَة البادى الذى هو أكذب [4]

مشيتم على آثارنا فى طريقنا وبغْيتكمْ فى أن تَسودوا وترْهَبُوا

(١) انظر تاريخ بنى اسرائيل من أسفارهم محمد عزة دروزة – وانظر أسلوب السخرية فى القرآن الكريم للمؤلف فصل السخرية واليهود

(٢) رسالة الغفران للمعرى ٢٢١

(٣) الماقط الأجير والخادم يتهم عمر بأنه محروم وأنه لا يزيد عن مستوى الأجراء والخدم يشير إلى فقر المسلمين حينئذ

(٤) المين الكذب يتهم المسلمين بالكذب مدعيا أن اليهود هم السابقون بالكذب في الدين والمسلمون على أثرهم

ونزعة عدم الاعتقاد الدينى ، وعدم ا طمئنان الى كل ما تقرره الأديان قديمة معروفة فى كل العصور وكل المجتمعات التى احتكت باليهود وعاشرتهم ، ومن أمثلة ذلك هذه القصة التى يتضمنها هذا الحديث النبوى ، من أن أبا طلحة كانت له حديقة نخل ، وكان ينازعه أحد اليهود فى نخلة واحدة منها ، فاختصما إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى لليهودى ، أتسمح له بالنخله وأضمن لك نخلة فى الجنة ؟ ونعتها له النبى بنعوت أشجار الجنة ، فقال اليهودى : لا أبيع عاجلا بآجل ، فقال أبو طلحة : أتضمن لى يا رسول الله كما ضمنت له ، فأعطيه الحديقة ؟ قال : نعم ، فرضى أبو طلحة بذلك ، وأخذ اليهودى وذهب به إلى حديقته ، فوجد فيها امرأته وأبناءه وهم يأكلون من جنى النخلة ، فجعل أبو طلحة يدخل أصبعه فى أفواههم فيخرج ما فيها من التمر ، فقالت امرأته : لم تفعل هذا ببنيك ؟ قال إنى قد بعت الحديقة ، فقالت : إن كنت بعتها بعاجل فبئس ما فعلت ، فقص عليها الخبر ، ففرحت بذلك[1] .

وقد استطاع اليهود أن يجتذبوا إليهم بعض شعراء العرب الذين كانوا لم يسلموا بعد ، وذلك بعد أن أخذ زعماء اليهود من أمثال كعب بن الأشرف يبذلون كل ما تطيقه نفوسهم من جهد لتأليب القبائل ، ويخصون قريشا ضد المسلمين ، وكانت من ثمرة ذلك جموع الأحزاب التى تدفقت نحو المدينة بعد تدبير وإعداد حشد له اليهود كل جهدهم

(١) رسالة الغفران للمعرى ٢٧٥

واهتمامهم ، ولولا أن الله أفشل هذا الحشد الهائل لكان له دوى لم يكن يعلم مداه وآثاره إلا الله ، وذلك فى الموقعة المعروفة بالأحزاب .

ومن الشعراء الذين اجتذبهم اليهود ليتعاطفوا معهم باعتبارهم صفا واحدا ضد المسلمين ، عبد الله بن الزبعرى السهمى القرشى ، الذى روى له شعر فى الأسى على ما أصاب بنى قريظة من يهود ، ومنه[1]

حَى الديارَ مَحَا معارفَ رسمهـا طولُ البلى وتراوحُ الأَحقـاب

فكأنمـا كتبَ اليهودُ رسومَها إلا الكنيفَ ومَعْقدَ الأَطْنَاب[2]

ومن الشعراء الذين اجتذب اليهود عواطفهم عباس بن مرداس السلمى ، الذى أظهر عاطفة جياشة نحو اليهود توشك أن تكون تعصبا لهم ، وانحيازا إليهم ، فيمدح فى شعره اليهود ، ويأسى على ظباء يهوديات يصببين الحليم المجرب كما يقول ، ويخص بحزنه من سادة بنى النضير سلام بن مشكم ، وحيى بن أخطب[3] ولكن شعراء الأنصار يتصدون له منكرين تعصبه لليهود ، لائمين إياه فى عتاب مر على أن يؤثر اليهود على من ينبغى أن يكونوا أحب وأقرب إليه من اليهود ، وهم العرب ، فيرد خوات بن جبير الأنصارى على العباس بشعر يقول منه مخاطبا العباس :

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ – ٧٣٥

(٢) معنى البيتين أن ديار اليهود خربت فمحت رسومها و لم يبق منها إلا آثار كأنها سطور كتبها اليهود و يستثنى مكانين بقيا ليدلا على سالف العهد

(٣) انظر بسيرة ابن هشام ٣ – ٦٩٠

ولكن العباس بدل أن يستجيب لخوات ، إذا هو يدعو خواتا إلى أن يبكى معه على بنى هارون من يهود ، وهو يعرف أن لليهود مساوىء مكروهة ، ولكنه يدعو خواتا إلى التجاوز عنها ، فيقول من هذا الشعر : (١)

فبَكِّ بنى هارون واذكر فعَالهم وقتلهمُ للجوع إذ كنت مجْدبا
أخوَّاتُ أذْرِ الدَّمعَ بالدمع وابكهم وأعرضْ عن المكروه منهم ونَكِّبا

وكذلك ينبرى شعراء الأنصار للرد على كل الشعراء الذين تعاطفوا مع اليهود ، كما رد حسان بن ثابت على شعر ابن الزبعرى القرشى السابق ، وكذلك رد عليه كعب بن مالك فى أشعار كثيرة(٢)

وكل هذا يدل على أن صوت الشعر اليهودى كان فى هذه الحقبة واضحا ومسموعا ، سواء أكان صوتا يهوديا مباشرا ، أم صوتا عربيا متعاطفا مع اليهود .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ – ٦٩١
(٢) المصدر السابق ٣ – ٧٣٥ – ٧٣٧

الشعر

وفى هذا الجانب من الحديث نلقى نظرة على شعر المخضرمين من بعض زواياه التى تظهرنا على أهم ما يعنينا أن نلم به ، وقبل أن نخوض فى حديث الشعر ، هناك ملحوظات ينبغى أن تكون واضحة حتى لا يحدث شىء من لبس فى تعميم الأحكام، أو فى تطبيق هذه الأحكام على الشعراء ، بمعنى أنه حينما يبدو من خلال الحديث أنه قد تحدد حكم معين على شعر المخضرمين ، كأن يقال مثلا إنه وفى بالغرض ، أو قصر فى الوفاء ، أو أنه كان أقل جودة من شعر الجاهلية ، أو كان أعلى رتبة منه أو نحو ذلك ، فقد يثور فى النفس تساؤل من أكثر من جهة ، ومما يثور فى النفس حينئذ هل هذا الحكم ينطبق على كل الشعراء ؟ وهل شعراء كل القبائل فى هذا الحكم سواء؟ بل هناك جوانب أبعد أو أسبق من هذا الجانب ، كأن يقال مثلا : وهل كل شعر قيل من الذين أدركوا الجاهلية والإسلام يدخل فى موضوع هذا الحديث ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف ننظر إلى شعر الشعراء الجاهليين الذين أدركوا الإسلام فلم يسلموا ، ومع ذلك لهم شعر يتفق مع روح الإسلام كبعض شعر أمية بن أبى الصلت وأعشى قيس ؟ وكيف ننظر إلى شعر الذين عاشوا فى العصرين ، ولكنهم لم يقولوا

شعرا إلا فى عصر واحد منهما ، كلبيد بن ربيعه العامرى الذى كان شاعرا مدوى الشعر فى الجاهلية ، فلما أسلم كف عن الشعر ، فلم يقل فى الإسلام شعرا ، وكالنعمان بن بشير الأنصارى ، الذى قال شعرا كثيرا فى الإسلام ، ولكنه لم يقل شعرا فى الجاهلية ، أو لم يرو له شعر فيها ، لأنه كان حينئذ حدثا صغير السن ، كيف نفعل بشعراء هذين النوعين ؟

ثم كيف ننظر إلى شعر الذين ظلوا على جاهليتهم بعد الإسلام مدة قالوا فيها شعرا ضد الإسلام ، ولكنهم أسلموا بعد ذلك ، وهم كثرة كيف ننظر إلى شعرهم الذى قالوه معاديا للإسلام قبل أن يسلموا ؟ وكيف ننظر أيضا إلى شعر الشعراء الذين ظلوا على جاهليتهم بعد الإسلام فلم يسلموا وماتوا مشركين ، مع أن فى شعرهم الذى عادوا به الإسلام ارتباطا بالشعر الإسلامى ، من حيث إن كليهما رد على الآخر ، ولا يستقيم فهم أحدهما فهما كاملا ، أو تقويمه دون معرفة الآخر ، كيف ننظر إلى مثل هذا الشعر ؟

وحين يثور هذا التشعيب فى التساؤل ، فلن يعدم المتسائل أبوابا أخرى تنفتح له ، فمن حق هذا المتسائل أن يقول : وإذا كان هذا حديثنا عن الشعراء ، فكيف بالحديث عن الشعر نفسه ، من حيث الصحة فى الانتساب من عدمها ؟ وهذا التساؤل يطرق قضية كثر الحديث حولها ، وهى قضية نحل الشعر فنقول

نحل الشعر :

ومن الحق أن قضية نحل الشعر ليست جديدة ، بل إنها قديمة قدم النقد الأدبي ، قبل أن تتحدد معالم عصر التدوين ، فقد صاحب النقد الفطرى الذى كان يتردد خلال لمحات النقد الذوقى الذى يعبر به النقاد عن آرائهم وأذواقهم أن يتحدثوا أحيانا عن آرائهم فى مدى صحة انتساب الشعر أو بعضه إلى صاحبه ، مما نراه مبثوثا خلال روايات الكتب القديمة ، ولكن ذلك لم يأخذ طابع البحث العلمى أو الرأى المحدد حتى جاء محمد بن سلام الجمحى صاحب الذوق الأدبى الدقيق ، والمنهج العلمى الذى لا يزال يبهر علماء النقد حتى اليوم ، فهو صاحب رأى وذوق وعلم غير مذبذب ولا مضطرب ولا منساق فى تيار غيره ، بل يعتمد دائما على استقلال النظرة ، وعدم اضطرابها مهما خولف فى الرأى ، ومن أمثلة ذلك حديثه فى سياق الحديث عن الشاعر الأسود بن يعفر ، حيث يرفض رأى المفضل وهو من كبار أئمة النقد والأدب فى عصره ، ويرفض رأى علماء الكوفة جميعا بانيا هذا الرفض على منهج موضوعى فيقول (وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريبا منه ، وقد علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما يروى ، ويتجوزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا) ثم يقول أيضا (وأسمعنى بعض أهل الكوفة شعرا زعم أنه أخذه عن خالد بن كلثوم يرثى به حاجب بن زرارة ، فقلت له : كيف يروى خالد مثل هذا وهو

من أهل العلم ، وهذا شعر متداع خبيث ، فقال أخذناه من الثقات ، ونحن لا نعرف هذا ولا نقبله)[1] فهولا يتأثر برأى المفضل ، ولا بعلماء الكوفة ولا بمن يوصفون بالثقات ، ولا يجعل رفضه مجرد تشبث برأى ، وإنما هو منهج موضوعى يعبر عنه بقوله : (وهذا شعر متداع خبيث) فحيث يجد شعرا لا يتفق مع أسلوب الشاعر وطابعه فهو إذن شعر دخيل على هذا الشاعر ومنحول عليه .

وقد جعل ابن سلام هذا المنهج مقياسا موضوعيا يزن به الشعر يحدد من خلاله مدى ثقته فى نسبة الشعرإلى من ينسب إليه ، ولا يبالى أمام هذا المنهج أن يشك فى أى رواية مهما علت منزلة صاحبها حتى إنه هاجم بهذا المنهج رجلا من أئمة الثقات وأجلائهم ، هو محمد ابن اسحاق ، صاحب أشهر كتاب فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الكتاب المشهور بسيرة ابن هشام ، ولم يشك ابن سلام فى علم ابن اسحاق ، ولا فى ثقته فيه بوصفه عالما أمينا فى التاريخ والسيرة وإنما يشك فى معرفة ابن اسحاق بالشعر وذوقه فيه ، بل يجزم بجهل ابن اسحاق فى الشعر ونقده فيقول) وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن اسحق وكان من علماء الناس بالسير .. فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لى بالشعر ، إنما أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط . . . [٢]

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-١٤٨

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-٧-٨

ثم يتحدث عنه أيضا بمثل هذا الأسلوب العلمى الذى لا يهدف إلى تجريح أو طعن فى ذات الشخص ، وإنما فى منهجه ، مراعيا أن يعلل كل نقد بالأسلوب العلمى المقنع ، مستشهدا أحيانا بالقرآن الكريم كاستشهاده على خطأ ابن اسحاق فى نسبة بعض الشعر إلى عاد وثمود فيقول ابن سلام (أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى لا بقية لهم ، وقال أيضا : (وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى) . . . [1]

وهكذا يستمر ابن سلام فى منهجه الذى كان متميزا ومتفوقا عن عصره وعن عصور كثيرة تالية فى النقد ، فيجعل النظرة الموضوعية أساسا وعمادا فى النقد ، وهو لا يسوق ذلك فى لمحات خاطفة ، أو نظرات عابرة كما كان يفعل معظم النقاد القدماء ، حيث يعتمدون على اللمحة الخاطفة ، والكلمة الموجزة التى تشبه الإشارة ، وهى وإن كانت عندهم معبرة عما يريدون ، ومبرزة لما يقصدون إليه من نقد ، أنها بالقياس إلينا أو إلى من يريد أن يرى بحثا علميا موضوعيا فإنها لا توفى بالغرض منها ، أما ابن سلام فإن حديثه فى منهجه ، وفى نقده الموضوعى لم يكن مجرد إشارات أو كلمات موجزة خاطفة ، وانما كان بحثا علميا واضحا محددا ، ومثال ذلك حديثه عن شعر أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فإن ابن اسحاق روى له فى

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ – ٨

سيرته شعرا كثيرا ، ولكن ابن سلام يتحدث ، فلا ينفى أن أبا سفيان هذا كان شاعرا ، بل يؤكد أنه كان شاعرا ، وأن له فى الجاهلية شعراً معروفا ، ولكنه سقط من الرواة ، كما سقط شعر شعراء كثيرين ، فأثبت الرواة لهم شعرا مصطنعا منحولا ، فينظر ابن سلام نظرته الموضوعية ، فلا يخفى عليه أن هذا شعر متكلف مصنوع ومنحول على أصحابه الذين نسب إليهم ، وأن ابن اسحاق لجهله بالشعر نقله عن الرواة كما سمعه وهو حسن النية فيما فعل ولكن ابن سلام فى أكثر من موضع لا يغفر له حسن نيته ، بل يلومه لوما شديدا على أنه كان كحاطب ليل ، يجمع كل ما يقع فى يديه دون أن يتبين نوعه أو طبيعته ، والحق فى جانب ابن سلام ، فإن العلم لا يؤخذ بالظن والشك فضلا عن الجهل ، ولا ينبغى لعالم أو كاتب أن يقول إلا ما تطمئن إليه نفسه ، وليس هذا موضع مقاضاة بين ابن اسحاق وابن سلام ، وليست مناقشة هذه النقطة هدف الحديث ، وإنما الهدف من سياق الموضوع أن نضرب مثالا لموضوعية ابن سلام فى النقد ، فيقول (ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية ، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل. ولسنا نعد ما يروى ابن اسحاق له ولا لغيره شعرا ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم) [1] فابن سلام يثبت أن أبا سفيان شاعره ، وأن له شعرا كان معروفا فى الجاهلية ، ولكنه لا يصدر حكما على هذا الشعر من حيث الجودة أو الرداءة ، لأن هذا الشعر لم يصل معظمه

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ – ٢٤٧

إلينا ، فالحكم عليه أو على شاعرية صاحبه إذن حكم على شيء غير موجود ، ثم إن ما نسبه ابن اسحاق لهم من شعر ينظر إليه ابن سلام بالنظرة الموضوعية ، فإذا هذا الشعر لا يناسب شعرهم ، ولا يسير على منواله قط. ، فإذن هو ليس شعرهم ، بل ليس شعرا إذا قيس بمقياس الأدب والفن الشعرى ، فيرى ابن سلام أن هذا الشعر يسيء إلى من ينسب إليه ، لا أن يرفعه ، فيصدر هذا النقد البالغ التعبير والإيحاء (ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم) فهو بمقياس الموضوعيه ليس هنا فى حاجة إلى تمحيص الرواية أو مناقشة الإسناد أو أى شيء آخر ما دام الموضوع كافيا للحكم ، والموضوع هنا واضح لديه ، وهو أن طبيعة هذا الشعر تختلف عن طبيعة شعر الشعراء الذين ينسب إليهم هذا الشعر ، وهذا كاف فى الحكم بأنه ليس شعرهم ، بصرف النظر عن الرواية والإسناد .

وتبلغ دقة منهج ابن سلام وأمانته أنه لا يدعى أن ذوقه الأدبى، أو نظرته الموضوعية يكفيان للاعتماد عليهما فى الحكم دائمًا ، بل إنهما فى بعض الأحيان يعجزان ويصبحان فى حاجة إلى أدوات أخرى من أدوات النقد ، ومثال ذلك حديثه عن أشعار قريش ، حيث يقول (وأشعار قريش أشعار فيها لين ، فتشكل بعض الإشكال) [1] وكأن ابن سلام يقول إن شعر القبائل العربية عدا قريش شعر فيه طابع البداوة والبيئة المحلية ، فشعراء كل قبيلة بحكم معيشتهم فى

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-٢٤٥

بيئة محددة محصورة الصلات ينتجون شعرا فيه طابع البيئة المحددة المحصورة ، فيمكن للناقد البصير الطبع والذوق أن يلمس هذا الطابع المميز لهذا الشعر ، فيستطيع إذن أن يميزه من غيره ، بل وأن ينسبه أحيانا إلى بيئته ، أما شعراء قريش فهم بحكم معيشتهم فى بيئه غير محصورة ، بل فى عاصمة تأوى إليها كل البيئات على اختلافها ، وتتصل بحكم حياتها وتجارتها وموقع الكعبة منها بكل القبائل وكثير من الشعوب الأخرى ، ولابد لهذه الصلات أن يكون لها أثر فى نفوس أصحابها وطبيعتهم وشاعريتهم ، فيخرج شعرهم متأثرا بكل هذه الصلات ، وبكل ما تثمره هذه الحياة الاجتماعية المتعددة الجوانب ، فلا يكون لشعرهم طابع محدد متميز كما هو لكل القبائل ، وهذا ما يمكن أن يوحى به تعبيرابن سلام عن شعر قريش بأن فيه لينا يشكل بعض الإشكال .

وبهذا المنهج ينظر ابن سلام فى الشعر الجاهلى ، وشعر صدر الإسلام فلا تطمئن نفسه إلى نسبة بعض هذا الشعر إلى من نسب إليهم ، حيث يرى فى بعضه اختلافا فى الطابع وفى مستواه وقيمته ، وقد يرى فى القصيدة الواحدة هذا الاختلاف ، بعضها يناسب شعر من نسبت إليه ، وبعضها يختلف عنه ، فيدعوه هذا إلى البحث والاستعانة بأهل الخبرة والعلم حتى ينتهى إلى حكم يحكم به على الموضوع ، ومن أمثلة هذا حديثه عن شعر أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول : وكان أبو طالب شاعرا جيد الكلام ، أبرع ما قال قصيدته التى مدح فيها النبى صلى الله عليه وسلم .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامـل

وقد زيد فيها وطولت ، ورأيت فى كتاب يوسف بن سعد . . . وقد علمت أن قد زاد الناس فيها . . .) [1]

وقد أعان ابن سلام فى هذا تعدد الأسباب والدوافع التى تحفز الشعراء إلى الشعر وخصوصا فيما يتعلق بالعصبيات والأحزاب ، فكل عصبة ، وكل حزب يريد أن يحشد أقصى ما يستطيع من أسلحة ضد الحزب الآخر ، ومن الواضح أن الشعر كان من أقوى أسلحتهم ، وحين ينشأ فى قبيلة أو عصبة أوحزب موقف يرتبط بكيانهم ومصالحهم فإنهم يحاولون أن يحشدوا لأنفسهم أقصى ما يستطيعون من شعر ، فإذا لم يجدوا نحلوا بعضا من شعر الآخرين ونسبوه إلى أنفسهم أو إلى شاعر معين منهم يهمهم أن ينافسوا به شعراء الخصوم ، وهكذا فى أسباب عديدة وجد ابن سلام أنها من عوامل انتحال الشعر ، فضمن هذه الإشارات والآراء كتابه المشهور (طبقات فحول الشعراء)

ولو أن النقاد والعلماء المعاصرين لابن سلام ، أو الذين جاءوا فى عصور تالية اهتموا بهذا الجانب بمثل اهتمام ابن سلام لوصلنا فى موضوع الانتحال إلى نتيجة أشد وضوحا وأوضح تحديدا .

ولكن الذى حدث أن هذه القضية لم تنل بعد ابن سلام من العلماء اهتماما كبيرا ، حتى أوشكت على الانزواء والإهمال ، ولم تعد موضع بحث أو جدال ، حتى جاء العصر الحديث فبدأ المستشرقون ينفضون

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ — ٢٤٤

عن هذه القضية غبار النسيان ، وأخذوا يثيرونها إثارة واضحة ، ومما يؤسف له أن إثارتهم إياها لم تكن فى معظمها نابعة من رغبة فى البحث العلمى والوصول إلى الحقيقة بقدر ما كانت تنبع من تحامل على التراث العربى ، وتلمس لكل ما فيه هدم للتاريخ العربى الإسلامى ، فإن أغلب المستشرقين غلبت عليهم أهواؤهم العنصرية ، وعصبياتهم الدينية التى نبع الاستشراق أساسا ليكون خدمة لها ، فلم يستطيعوا أن يلتزموا الحياد والأمانة العلمية ، بل جنح معظمهم جنوحا واضحا إلى التحامل والتحيز ضد كل ما هو إسلامى ، وكان العرب وتاريخهم وأدبهم فى نظرهم هم رمز الإسلام ، فأخذوا يتلمسون كل ما يمكن أن يخلقوا منه شيئا يسىء إلى التاريخ العربى أو يحط من قدره ، أو يخفض من مزاياه ، فكان موضوع نحل الشعر أحد هذه الخيوط التى صنع منها بعض المستشرقين وعلى رأسهم مرجليوث الانجليزى مطعنا فى الشعر العربى القديم [1]

ومع أن فيما سلكه هؤلاء المستشرقون مجافاة لأمانة العلم ، ونزاهة الحكم ، ومع أنه مسلك لا شك معيب بكل المقاييس العلمية والإنسانية إلا أن عيبه أيسر بكثير من مسلك بعض الباحثين العرب والمسلمين ، فقد انبهر الدارسون العرب فى مطلع هذا القرن بالمعلومات الواسعة التى تفيض بها بحوث المستشرقين ، وبالآراء الجديدة ، والمناهج المبتكرة التى لم يألفها الدارسون العرب ، فكان التنافس بينهم على أشده فى

---

(١) انظر نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى د. عبد الحميد المسلوت ص ٧٣ وما بعدها

تقليد هذا الابتكار ، على أن هذا الابتكار كان يثير نفور طائفة من الدارسين المحافظين على التراث القديم وطابعه ، وفى مقدمة هؤلاء علماء الأزهر والمتأثرون بهم ، حيث كانوا يجدون فى معظم هذا الابتكار ليس إضافة إلى التراث القديم الذى افرغوا حياتهم للقيام عليه والمحافظة على كيانه ، وإنما يجدون فيه نقضا وهدما لهذا التراث ، أو تشكيكا فيه على أيسر الفروض ، فيهبون فى وجه كثير من هذا الابتكار مدافعين عن كيان التراث ، ولكن هذا الدفاع نفسه كان يغرى بعض هواة الشهرة والظهور بأن يتلمسوا أى رأى أو فكرة تثير دفاع هؤلاء المحافظين وحملاتهم ليجنوا من وراء ذلك شهرة وبعدا فى الصيت ، ولو كان ذلك على حساب الأمانة العلمية أو الخلقية ، وأذكر أننى سمعت المرحوم الدكتور طه حسين من خلال المذياع وهو يجيب على أسئلة لفيف من الكتاب والأدباء ، فحين سئل عن سبب حملته وهجومه فى مطلع حياته على المرحوم المنفلوطى أجاب بأنها كانت نزعة شاب يريد الظهور على حساب شخصية عظيمة ، ومعنى ذلك أن المنفلوطى كان شخصية أدبية عظيمة تحظى بتقدير القراء وإعجابهم ، ومهاجمته ستثير دفاع كثير من المدافعين ، وستلفت نظر كل المثقفين إلى مصدر هذا الهجوم .

ومن هذا القبيل ونحوه شاعت فى مطلع هذا القرن ، وحتى منتصفه آراء كثيرة من الدارسين والمثقفين العرب والمسلمين فيها مساس بالتراث العربى والإسلامى ، كان بعضها تأثرا وإعجابا باتجاه المستشرقين

مصحوبا بحسن النية من هؤلاء الدارسين ، ولكن بعضا آخر لم يكن في أغلب الظن مصحوبا بهذه النية الحسنة ، وإنما كان يهدف إلى نحو من أنحاء أخرى .

وكان من هذه الأنحاء التى لم تكن فى أغلب الظن مصحوبة بحسن النية ما ذهب إليه الدكتور طه حسين فى كتابه الذى كان يسمى (فى الشعر الجاهلى) ثم غيره إلى (فى الأدب الجاهلى) حين اشتدت الحملة عليه حتى ضاق عليه الخناق ، وذلك أن الكتاب كله يكاد يدور حول فكرة واحدة ، هى هدم الشعر الجاهلى هدما كاملا ، حيث ينفى صحة كل ما ورد إلينا من الشعر الجاهلى ، مدعيا أنه شعر منحول قيل فى الإسلام ثم نسب إلى الجاهليين لأسباب يدور معظمها حول العصبية القبلية ، والحزبية السياسية ، وفى هذا المنحى يتجاوز الدكتور طه حسين موقف المستشرق مرجليوث الذى لم يقطع خيوط الشك فى مجمل ما ذهب إليه ، بمعنى أنه كان يتأرجح بين الشك واليقين فى آرائه ، ولكن الدكتور طه حسين يتجاوز هذا فيجزم جزما بأن الشعر الجاهلى كله منحول على الجاهليين ، وليس هنا مجال الرد فيه عليه ، ولكنه من الواضح أنها مجرد حملة قد أريد بها أى وجه غير وجه الحق والعلم ، وكما تصدى بعض المستشرقين المنصفين للرد على مرجليوث [فقد تصدى كثير من الكتاب للرد عليه [1]

(١) منهم محمد فريد وجدى فى كتاب (نقد الشعر الجاهلى) ومحمد الخضر حسين فى كتاب (نقض كتاب الشعر الجاهلى) والغمراوى فى كتاب (النقد التحليلى لكتاب الادب الجاهلى) وشوقى ضيف فى كتاب (العصر الجاهلى ومحمد الخضرى فى كتاب محاضراته فى هذا الموضوع .

ونخلص من هذا كله إلى موضوع الحديث ، وهو شعر المخضرمين فلو جارينا الدكتورطه حسين وأستاذه المستشرق مرجليوث لكان هذا الحديث غير ذى موضوع ، بل لوصلنا إلى نتيجة لا تخلو من إثارة التفكه والسخرية ، وهى أن يكون للشعراء المخضرمين شعر إسلامى فحسب ، أما الشعر الذى قالوه فى الجاهلية فكأن الأرض انشقت فجأة وابتلعته ، أو كأنهم لم يهبط عليهم الشعر إلا فى الإسلام أما حياتهم التى عاشوها فى الجاهلية طالت أو قصرت فلا ينبغى أن يكون لهم فيها شعر ، أو كأننا نقول : إن الحياة التى عاشوها فى الإسلام لا بأس بأن يكون لهم فيها شعر ، أما حياتهم الجاهلية فلا ينبغى أن يكون لهم فيها شعر ، أو نحو ذلك مما تلفظه العقول ، وتأباه كل سبل المنطق القويم .

ثم إن بعض الشعراء المخضرمين عاش دهرا غير قصير فى الإسلام فأدرك الأوقات التى زعم دعاة الانتحال أن الشعر الجاهلى نحل فيها أى اخترع حينئذ ونسب إلى شعراء جاهليين ، فهل كان هؤلاء المخضرمون من الذين اخترعوا شعرا ونسبوه إلى شعراء من الجاهلية ، أم كانوا من الذين نسب إلى جاهليتهم شعر من هذا الشعر المنحول ؟ بمعنى أننا هل نتصور أن يكون قد اخترع شعر ونسب إليهم على أنهم قالوه فى جاهليتهم لأن شعر الجاهلية هو الذى وجه إليه اتهام الاختراع والنحل إلى غير أصحابه ؟ وهكذا فى افتراضات كثيرة كلها بعيد من العقل والإقناع العلمى .

ولكننا حين نترك هذه الافتراضات غير الجادة إلى شيء من الجد نقول :إننا حتى لو جارينا دعاة الانتحال فيما جمحوا إليه من غلو فى التحامل على الشعر الجاهلى ، فإننا لا نستطيع تطبيق هذا الغلو على شعر المخضرمين ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نطبق دعوى الانتحال على شعر المخضرمين الذى قالوه فى الجاهلية ، ومن باب أولى الذى قالوه فى الإسلام ، ذلك لأن الشعراء المخضرمين لابد وأنهم عاشوا فى الإسلام ، وإلا لما انطبق عليهم وصف الخضرمة ، ومعنى هذا أنهم أدركوا العصر الذى بدأت فيه الرواية ، فحياتهم فى الإسلام لا تلحقها دعوى الانتحال ، فلا يقال إن شعرهم فى الإسلام منحول ، كما أن حياتهم فى الجاهلية قريبة من عصر الإسلام ، بل ملاصقة له ، فلا يتصور الانتحال بالقياس إليها لسببين : أحدهما أنهم ما داموا قد أدركوا عصر الرواية فسيروى عادة شعرهم كله ، جاهليه وإسلامية ، لأن شعر الشاعر وحدة متكاملة ، ولم يكن المسلمون ينفرون من تناقل الشعر وروايته ، بل كان كبار أعلام المسلمين يتدارسون الشعر ويتمثلون به ، بما فى ذلك شعر الجاهلية ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، فحين يروى شعر إسلامى لشاعر ، فسيروى شعره الجاهلى أيضا ، والسبب الثانى أن وجودهم أحياء فى مدة الانتحال أو قريبا منها يبعد احتمال أن ينسب إليهم شعر لم يقولوه ، لأن وجودهم أحياء أو وجود القريبين منهم ذوى الصلة المباشرة بهم كأبنائهم والمعاشرين لهم يبعد احتمال أن ينسب إليهم ما لم يقولوه ، على أن دعاة الانتحال أنفسهم لم يركزوا دعوى

الانتحال على شعر المخضرمين ، لذلك فإن دعوى الانتحال سواء صدقت أو لم تصدق ، فإنها لا تنال شعر المخضرمين .

على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذا الحديث أننا نضع شعر المخضرمين فى إطار متميز يجعل له حكما خاصا به لا يسرى على شعر السابقين لهم أو اللاحقين من حيث الاضطراب أحيانا فى الرواية ، أو فقدان شعر كثير منه لم يصل إلينا لا عتبارات كثيرة تناولها النقاد ومؤرخو الأدب ، أو نحو ذلك من القضايا والنواحى التى تدور حولها البحوث فى الشعر القديم ، فكل ذلك لا نريد أن نجعل لشعر المخضرمين وضعا خاصا فيه ،وإنما ينصب هذا الحديث فى هذا الفصل على دعوى الانتحال وما يرتبط بها ، أما ماعدا ذلك فإن شعر المخضرمين يخضع بطبيعة الحال لما يخضع له الشعر القديم من نواحى البحث والتحقيق .

جوانب الموضوع :

والحديث عن قضية الانتحال وموقف شعر المخضرمين منها يجرنا إلى قضايا أخرى عديدة تتصل بشعر المخضرمين ، وأهم هذه القضايا اللهجات العربية التى كانت تتحدث بها القبائل العربية التى ينتمى إليها الشعراء المخضرمون ، والتى تتباين وأحيانا تختلف عن بعضها اختلافا واضحا مما هو معروف فى بحوث علماء اللغة وما نقلوه من معالم هذه اللهجات ، ومما كان واضحا فى الأوجه التى قرىء بها القرآن الكريم وعرف بالقراءات ، وفيما يتعلق بشعر المخضرمين من هذا] نقول إن الشعراء المخضرمين بالضرورة ليسوا من قبيلة واحدة ،

وإنما هم من كل القبائل العربية ، لأن كل القبائل العربية دخلت الإسلام ، سواء قبل الردة أو بعدها ، فكل الشعراء حينئذ عاصر الجاهلية والإسلام ، وقالوا بطبيعة الحال شعرا فى العصرين ، وهم من قبائل مختلفة ، ولهجات مختلفة متعددة ، ولكن هذه اللهجات لاتظهر فيما وصل إلينا من شعرهم ، وإنما وصل إلينا شعرهم وشعرغيرهم من كل العصور بلهجة واحدة ، هى لهجة قريش ، فلماذا ؟ وكيف تركوا لهجاتهم وقالوا الشعر بلهجة قريش ؟ وكيف لا يقولون شعرا بلهجاتهم الأصلية ؟ وإذا كان لهم شعر بهذه اللهجات فأين ذهب ؟

ثم قضايا أخرى تتصل بالرواية ومدى صلاحيتها من حيث الصحة وعدم التداخل أو عكس ذلك ، وقضايا تتصل بالأغراض ومدى استيفاء الشعراء أو بعضهم إياها ، ومدى مطابقة الأغراض التى طرقوها للبيئة والحياة من جوانبها المختلفة .

وكل هذه القضايا فى حاجة إلى بحث إذا أريد للموضوع أن يكون كاملا ، ولكن خطة هذا البحث تنحصر فى عنصرين أساسيين يدوران أساسا حول موقف الشعراء المخضرمين من الإسلام بوصفهم شعراء :

فأحد العنصرين يتعلق بشعر المخضرمين ، وقد اقتضى هذا الحديث عن جانبين

ا – مفهوم الشاعر المخضرم ، وقد ألممنا به فى صدر الكتاب وواضح من حديثه أنه ينبغى أن نفرق بين قولنا : شخص مخضرم ،

وشاعر مخضرم ، فالشخص تتحقق فيه الخضرمة لمجرد معاصرته العهدين ، أما حين نقول : هذا شاعر مخضرم ، فينبغى أن تنصب الخضرمة حينئذ على الشعر ، بمعنى أن هذا الشخص كان شاعرا فى الجاهلية ، وكان شاعرا فى الإسلام ، أى أنه قال شعرا فى كلا العصرين ، ويترتب على ذلك أنه لو كان قد قال شعرا فى عصر واحد منهما فحسب فلن يعد شاعرا مخضرما بالمعنى الدقيق لخضرمة الشاعر رغم أنه عاش فى كلا العصرين

ولكننا من الناحية الواقعية حين نطبق هذا فى مجال البحث العلمى نجد أنه إنما ينطبق على الأفراد ، وليس على المجموع ، بمعنى أننا حين نتحدث عن شاعر ما لنجعله مجالا للحديث أو البحث نجد أن الدقة تقتضى أن نطبق عليه هذا المقياس ، ولكننا حين نتحدث عن المجموع أعنى حين نتحدث عن شعراء الجاهلية عامة ، أو عن شعراء بدء الإسلام عامة نجد أن الوضع يختلف ، فلبيد بن ربيعة مثلا لا شك أنه رجل مخضرم ، من حيث إنه أدرك الجاهلية والإسلام ، ولكنه بوصفه شاعرا لا يعد بالمعنى الدقيق شاعرا مخضرما ، لأنه قال الشعر فى جاهليته فحسب ، ولم يقل شعرا بعد إسلامه باستثناء البيت المفرد الذى ينسب إليه ، ومع كوننا لا نعده بهذا المقياس شاعرا مخضرما فإننا حين نتحدث عن شعر الجاهلية لا نستطيع أن نخرج منه شعر لبيد . والنعمان بن بشير كذلك ، هو شخص مخضرم ، ولكنه لم يكن شاعرا إلا فى الإسلام ، لأنه كان فى الجاهلية صغيرا لم تبلغ به

السن مبلغ الشعراء ، فلا يوصف بالمقياس الذى أشرنا إليه بأنه شاعر مخضرم ، ومع ذلك فإننا حين نتحدث عن شعر الإسلام لنوازن بينه وبين شعر الجاهلية ، أو لنبين مدى تأثير الإسلام فيه ، فسنضطر إلى الحديث عن شعر الجاهلية ، فلا نستطيع أن نخرج منه شعر لبيد وسنضطر إلى الحديث عن شعر الإسلام ، فلا نستطيع أن نخرج منه شعر النعمان بن بشير ، ونكون قد اضطررنا إلى وضع شعر لبيد مع شعر المخضرمين ، وكذلك شعر النعمان .

وإذن فمع اعترافنا بأن الشاعر المخضرم ينبغى قصر مدلوله على من قال شعرا فى الجاهلية ، وقال شعرا فى الإسلام ، إلا أننا فى مقام البحث فى الشعر الجماعى لا نستطيع التزام هذا القيد ، لذلك اقتضى البحث الاستشهاد بشعر شعراء لا تتحقق فيهم الخضرمة أصلا ، كالشعراء الذين ظلوا على شركهم ، أو على يهوديتهم حتى ماتوا ، إما من الناحية الجماعية ، وإما لأنه يمثل الجبهة المضادة للموضوع كالشعر الإسلامى الذى يقال ردًّا على شعر المشركين ، فلن يتضح هذا الشعر إلا بالشعر المضاد له .

ب – والجانب الثانى من هذا العنصر هو شعر المخضرمين ، وينصب الحديث فيه أساسا على علاقته بالدين ، وبيان موقف الشاعر من الإسلام ، ومدى مطابقة شعره لموقفه من الإسلام .

والعنصر الثانى :

ويتعلق بموقف الشعراء المخضرمين من الدين فى سلوكهم بصرف

النظر عن الشعر ، ولا تعنى بالدين هنا العقيدة ، فالمفروض أن الشعراء الذين يتناولهم الحديث أساسا هم الذين دخلوا الإسلام ، وإنما نعنى السلوك ، بمعنى أن نرى هل كان الذين اعتنقوا الإسلام من الشعراء ، يلتزمون السلوك الذى يتلاءم مع الإسلام أم يجافونه ؟ وهل كان شعرهم موافقا لما يقتضيه اعتناقهم الإسلام أم لا ؟

وقد يقال : إننا حين نضع هذا الجيل من الشعراء أمام هذا المقياس ، مقياسى التزام السلوك الدينى ، والشعر الدينى ، نكون قد قسونا عليه ، أو لم نرفق به ، أو على أيسر الفروض لم نحاسبه بالمقياس الذى نحاسب به سائر الأجيال ، فقد نغتفر لشعراء الأجيال الأخرى ما لا نغتفره للمخضرمين ، وقد نحاسب المخضرمين على أشياء لانحاسب عليها غيرهم من شعراء العصور الأخرى .

والجواب أن هذه الملحوظة تفقد معظم ما تنطوى عليه ، إذا علمنا أن الوجهة العامة فى هذا الكتاب عدم إخضاع الشعراء لمقياس خاص بهم ، وإنما كان مقياسهم هو المقياس الذى يحاسب به عامة المسلمين الذين يعاصرونهم ويعايشونهم ، فلن يطلب منهم فوق ما يطلب من عامة الذين اعتنقوا الإسلام حينئذ ، ولا دون ذلك ، وليس من الحيف على الشعراء ، ولا من الجور عن العدالة ، أن يحاسبوا كما يحاسب عامة الناس ، وليس خاصتهم ، مع أنه كان يمكن أن يقال إن للشعراء من الوعى والإدراك ، ومن الشعور بالكرامة والمنزلة بين الناس ، وما يجعلهم بالضرورة فوق العامة ، ويسلكهم فى عداد الخاصة ، وحينئذ يكون

ن العدل أن يحاسبوا كما يحاسب خاصة المسلمين ، وعندئذ تكون مسئولية الشعراء المخضرمين أكبر ، وحسابهم أشد ؛ ومع أن هذا القول لا يبعد كثيرا عن الصواب ، إلا أننا مبالغة فى تحاشى ما قد يفهم منه التحامل على الشعراء ، وأيضا مراعاة لأن السلوك ، وبخاصة الاجتماعى منه إنما يحدده ، ويحدد الحكم عليه العرف السائد فى المجتمع ، وليس الوعى والمعرفة ، بمعنى أن لكل مجتمع أعرافا وتقاليد تسود فيه ، وأحكاما يحكم بها ولو أدبيا على من يشذ على هذه الأعراف والتقاليد ، ولاعتبارات أخرى منها طبيعة الشعراء وتكوينهم النفسى الخاص ، كل ذلك جعلنا نكتفى بأن نجعل العرف السائد فى مجتمع الشعراء المخضرمين ، هو الحكم على سلوك الشعراء وموقفهم من تطبيق الإسلام على سلوكهم ، وأن نحاسبهم كما يحاسب عامة الناس وليس كخاصتهم .

وقد كان معظم ما سبق من حديث هذا الكتاب منصبا على هذا الجانب الذى رأينا فيه كيف أن الشعراء المخضرمين كانوا أضعف مجتمعهم المسلم تشبثا بالسلوك الدينى ، وكانوا أشد المسلمين جرأة على مخالفة العرف ، وعلى التعرض لما يصبه عليهم الإسلام والمسلمون من عقوبة مادية محددة أحيانا ، ومن إنكار وسخط أحيانا أخرى ، وأن سلوكهم كان تطبيقا عمليا لما ذكره القرآن الكريم من شذوذ الشعراء عن سائر الناس ، فى بعض جوانب الخلق والسلوك .

المخضرمون والشعر

الشعراء الذين وصل إلينا شيء ذو قيمة أدبية من شعرهم لايكادون يتجاوزون خمسة وتسعين شاعرا من الشعراء المخضرمين ، مع التجاوز قليلا فى تطبيق معنى الخضرمة عليهم ، من حيث إن بعضا قليلا منهم له شعر فى الجاهلية دون الإسلام ، كلبيد بن ربيعة ، أوله شعر فى الإسلام دون الجاهلية كالنعمان بن بشير ، أو أنه عاصر الجاهلية والإسلام فلم يسلم ومات مشركا ، ولكنه كان بشعره طرفا فى الصراع بين شعراء الإسلام وشعراء الشرك مثل أبي عزة الجمحى القرشى الذى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم أحد (١) .

وليس هذا العدد من الشعراء هو كل شعراء هذه الحقبة ، فالمعقول أن هناك شعراء كثير ين كانوا منبثين فى القبائل والعشائر ، ولكنهم كانوا شعراء محليين ، لم تتح لهم الظروف أن يصلوا إلى المستوى الاجتماعى العام الذى يجعلهم يوصفون بأنهم من شعراء العرب عامة ، فظلوا شعراء لقبائلهم وأحيائهم .

ولا شك أن فى التاريخ الأدبى العربى قبل التدوين أشياء من قصور تجعل فى هذا التاريخ شيئا من الفجوات أحيانا ، والغموض أحيانا

(١) سيرة ابن هشام ٣-٦١٨

أخرى ، مما أتاح لبعض المشككين أن يضخموا هذه الأشياء ، بل أن يجعلوا منها مطعنا فى الأدب العربى الجاهلى كله ، كما فعل طه حسين متخذا من هذه الفجوات أداة لهدم الشعر الجاهلى قاطبة ، فمما يستشهد به من هذه الفجوات موضوع اللهجات ، حيث يمثل بالمعلقات السبع ، التى ينتمى شعراؤها إلى قبائل ولهجات مختلفة ، ولكنها وصلت إلينا بلهجة واحدة [1] ..

ثم إن هذا العدد من الشعراء المخضرمين لا يجمعهم اتجاه واحد ولا بيئة واحدة ، ولا مستوى واحد ، بل كانت لهم اتجاهات شتى ، دينية وعصبية وسياسية وغير ذلك ، وكانت لهم بيئات مختلفة ، بعضها فى الحواضر والقرى ، وبعضها فى البادية ممن يعيشون فى خيامهم يتنقلون بها وراء العشب والماء ، وكانت لهم أيضا مستويات مختلفة فى جودة الشعر ورداءته ، وهكذا لا يكاد يجمعهم نمط واحد أو أنماط محدودة .

ولذلك نقصر الحديث على بعض الجوانب التى يربطها بموضوع الكتاب سبب من الأسباب .

---

(١) فى الأدب الجاهلى د. طه حسين ٩٣

شعراء الاسلام

انفرد ثلاثة من بين الشعراء المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم بوصفهم بأنهم شعراء الإسلام أو شعراء الرسول ، هم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك .

حسان بن ثابت

هو حسان بن ثابت بن المنذر من بنى النجار وهم فرع من الخزرج الأنصار ، وبنو النجار أخوال عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم وحسان أشهر شاعر فى الإسلام بسبب أن النبى نصبه ليكون سلاح المسلمين فى الشعر ضد شعراء المشركين بدعائه المشهور له .

ومع ذلك فإن تاريخى مولده ووفاته غير محددين ، بل فيهما أقوال عديدة ، واختلاف غير يسير ، ولكن المرجح أنه ولد فيما بين سنتى ٥٦٥ و ٥٩٠ الميلاديتين وتوفى أيضا فيما بين سنتى ٤٠ و ٥٤ الهجريتين الموافقتين لسنتى ٦٦١ و ٦٧٥ الميلاديتين ، وسواء صحت الروايات التى تذكر أنه عاش فى الجاهلية نحو ستين سنة أم لم تصح فلا شك أنه عاش فى الجاهلية حقبة طويلة كان فيها مكتمل الشخصية والشاعرية ، حيث تتفق الروايات على أنه كان يتردد على الحيرة ودمشق يمدح الأمراء اللخميين والغسانيين لينال عطاءهم ، وقد اجتمع

مع النابغة الذبيانى عند بعض هؤلاء الملوك والأمراء ، وشعره فى هذه الحقبة أجود شعره على الإطلاق ، فرغم أن له شعرا كثيرا فى الإسلام إلا أنه كما لحظ الأصمعى كان أضعف بكثير من شعره الجاهلى ولعل سر ذلك أنه كان فى الجاهلية يقول الشعر بدافع ذاتى ومصلحة شخصية يرجوها من ورائه بالعطاء والشهرة ، أما فى الإسلام فلم يكن الشعر يدر عليه منفعة مباشرة ، بل كان نوعا من الكفاح الدينى وبوصفه أحدالمسلمين فهو يدافع عن الإسلام ضد أعدائه الذين يهاجمونه .

ومع أنه لم ينافسه شاعر آخر فى درجة منزلته فىالإسلام بوصفه شاعر الرسول أو شاعر الإسلام الأول حين احتاج النبى صلى الله عليه وسلم إلى شاعر يرد على شعراء المشركين فتقدم أكثر من شاعر من المسلمين فلم يرض النبى لهذه المهمة إلا حسانا ودعا له حينئذ بقوله :(قل وروح القدس معك) مع ذلك ، ومع أن الوضع كان ينتظر أن يسمو به إلى درجة كبيرة بين المسلمين إلا أن حسانا لم يبلغ بين المسلمين منزلة ذات قيمة ، بل ظلت منزلته تتلاشى حتى كاد ينسى وكأنه غير موجود بينهم ، وكان من آثار ذلك الشك الكبير فى تحديد وفاته ومن أسباب هذا أن حسانا سقط سقطة خلقية كبيرة حين تورط فى حديث الإفك ضد عائشة رضى الله عنها ، وقد أقيم عليه حد القذف حينئذ ، ويروى أن عائشة ظلت تظن أنه المقصود بقوله تعالى: (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ، ومن أسباب

هبوط منزلته أنه بينما كان المسلمون يشتعلون حماسا وحمية فى الجهاد وحب الاستشهاد فى سبيل الله كان معروفا عن حسان جبنه الشديد كما مرت بعض أمثلة من ذلك ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى تبسم حين سمع بعض شعر حسان الذى يفخر فيه بشجاعته ، وهذا ينفى ما ذهب إليه بعض المحدثين الذين حققوا ديوانه من زعمهم أن يده كانت قد أصيبت بعاهة تمنعه من استخدامها فى القتال ، فلو كانت به عاهة لكان موضع الإشفاق لا السخرية والإنكار .

وكان حسان يتحامل على قريش فى شعره ، ولم يكن تحامله نزعة دينية فحسب ، وإنما كان فية ما يوحى بتحامل العنصرية والعصبية ، ولذلك نبهه النبى صلى الله عليه وسلم ذات مرة بقوله :(أتهجو قريشا وأنا منهم ؟) فأجاب حسان بقوله : أسلك منهم يا رسول الله كما تسل الشعرة من العجين ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان معروفا عنه أنه يبغض الإساءة إلى قريش فى غير الناحية الدينية ،وكان يسره مدح قريش لذاتها كما ظهر على وجهه من السرور حين استمع إلى كعب ابن زهير عندما وصل فى قصيدته إلى مدح قريش ، وكان من آثار ميل حسان إلى التحامل على قريش أشعار مشهورة مثل (أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا) ومن آثار ذلك أيضا انحيازه ضد على ابن أبى طالب وآله الذين كانوا ذروة قريش وعنوانها مواليا لمعاوية وحزبه ، مستغلا مقتل عثمان رضى الله عنه فى أشعار كثيرة تطالب بثأره تحريضا ضد بنى هاشم .

وأما عن شاعرية حسان فإن النقاد سواء فى القديم والحديث يتفقون على الجانب الجاهلى منها ، وهو أن حسانا كان فى الجاهلية من فحول شعراء العرب ، وشعره الجاهلى من أجزل وأقوى أشعارهم ومعظم هذه الأشعار الجاهلية الجيدة له تدور حول غرضين : أحدهما الفخر وشعر العصبية لقومه الخزرج ، حيث كان الصراع فى الجاهلية على أشده بين الأوس وكان شاعرهم قيس بن الخطيم ، والخزرج وكان شاعرهم حسان بن ثابت .

والآخر مدائحه للملوك لخم وغسان فى الحيرة والشام ، وكما أشرنا آنفا يمكن أن نعلل قوة شعر حسان فى الجاهلية بأنه شعر نابع من مشاعره وانفعاله بمواقف وأغراض له فيها هوى ومصلحة شخصية ، يضعف فى الإسلام لأنه لم تكن له فى هذا الشعر مصلحة شخصية ولا منفعة يرجوها من ورائه ، ولا انفعال ينبع من نفسه كما كان يفعل فى صراعه مع الأوس ، من الفخر بقومه وهجاء أعدائهم ، ومعنى ذلك أن شاعرية حسان لم تضعف فى الإسلام ، وإنما ضعفت الدوافع الشخصية لديه ، حيث كان يقول شعره الإسلامى وكأنه يؤدى عبادة أو شيئا مطلوبا منه وليس له فيه انفعال حقيقى ، والدليل على ذلك أنه حينما كان يوجد لديه هذا الدافع الشخصى كان يجود بشعر جزل لا يقل جزالة عن شعره الجاهلى ، ومثال ذلك هذه القصة المشهورة التى يروى الرواة أنها حدثت فى خلافة معاوية أى فى أخريات حياة حسان ، والتى مؤداها أن قوم حسان من الأنصار آلمهم هجاء النجاشى شاعر

بنى الحارث بن كعب فأثاروا سبية حسان حتى هجا بنى عبد المدان رهط النجاشى بهذه القصيدة التى ذهب بعض أبياتها من الشهرة مذهب الأمثال ، والتى كان منها :

لا عيب بالقوم من طول ولا عظم   جسم البغال وأحلام العصافير [1]

كأنهم قصب جوف مكاسره   مثقب فيه أرواحُ الأعاصير [2]

وقد بلغ من تأثير هذا الشعر فى المهجوين أن جاءوا بشاعرهم النجاشى موثقا إلى حسان ليحكم فيه حكمه ، وواضح أن هذا الشعر أعلى فى جودته بكثير من شعر حسان الإسلامى ، مع أنه قاله فى الإسلام ، بل فى أواخر عمره ، بل إن الدارس لشعرحسان الإسلامى يلحظ بوضوح أن الشعر الذى قاله فى واقف دينية عامة ليس له فيها انفعال خاص أو مصلحة شخصية يميل إلى الهبوط والسطحية سواء فى ألفاظه ومعانيه وأخيلته ، ولكنه يلحظ أيضا أحيانا بيتا أو معنى جيدا خلال هذا الشعر الهابط ، وهذا تطبيق لما أشرنا إليه من أن حسانا كان يؤدى شعره الإسلامى كما يؤدى المرء العادى واجبا عاما ليست له مصلحة شخصية فيه ، ولكنه قد يعرض له خلال ذلك معنى يهمه هو ، وينفعل به لمصلحة أو رغبة شخصية كالفخر بشىء معين ، أو هجاء فى شىء

---

(1) سخرية بالمهجوين حيث يجعل الشطر الأول فى صورة مدحهم بالطول وعظم الأجسام كما كان العرب يفخرون بذلك ولكنه يعود فى السطر الثانى إلى هذا التناقض الشديد بين ضخامة الجسم وصغر العقل .

(2) الجوف بضم الجيم جمع أجوف يصفهم بأنهم كالقصب الأجوف المثقب الذى ينفخ فية كالمزمار ولكن صوته ليس موسيقى وإنما صوت أعاصير يشبه كلا منهم بالقصبة الجوفاء حتى إن مكان الكسر منها وهو ما بين الكعبين أيضا أجوف .

معين ، فيأتى هذا المعنى فى صورة جيدة تلائم مستوى شاعرية حسان ويبدو حينئذ كالنشاز الجيد بين شعر هابط أو متجه إلى الهبوط ، ومثال ذلك قول حسان مما قاله فى مفاخرة بينه وبين أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فى غزوة بدر الثانية ، فقال حسان عندما انفعل بموقف قومه العزيز المنتصر يصف الموقع الذى نزلوا به ، ويصف خيلهم وإبلهم :

أقمنا على الرس النزوع ثمانيا بأَرعَن جَرَّارٍ عرِيض المَبارك

بكل كميت جَوْزُهُ نصْفُ خلْقه وقُبٌّ طوَال مشرفات الحوارك

ترى الَعرْفج العَامِّى تُذْرِى أُصولَه مناسمُ أخفاف المَطى الرَّواتك

فهو فى البيت الأول يصف جيشهم الجرار الذى يشبه الجبل الأرعن الشامخ الضخم الشاسع لمبارك الإبل والدواب ، وفى البيت الثانى يصف خيلهم الذى تبلغ خطوة الواحد منها نصف طوله بقوائم طوال مفتولة ، وفى البيت الثالث يصف إبلهم التى تبلغ من قوتها أثناء السير أن تقتلع مناسم أخفافها جذور شجر العرفج . وهكذا فى ثلاثة أبيات تعرض لنا شاعرية حسان صورة متكاملة للجيش بجنده وخيله وإبله ، بينما لا نجد هذه الجودة فى بقية القصيدة ، ولا فى قصائد إسلامية كثيرة ، لأن هذا المعنى الذى أجاد فيه يمس نزعة فخر تهز مشاعر حسان فتوقظ شاعريته التى أصابها شىء من إغفاء فى الاسلام ومن أمثلة ذلك شعره الذى هجا به بنى مرة فاستجار منه الحارث بن

عوف بالنبي [1] ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نتخذ من هذه الأبيات المفردة أو المعانى المتناثرة حكما على شعر حسان ، فالحكم لا يصلح إلا على المجموع ، ومجموع شعر حسان الإسلامى يميل إلى الضعف ، وكل ما تنبيء عنه هذه المعانى المتناثرة من دلالة فهو أن شاعرية حسان لم تتغير ، ولم تضعف فى الإسلام ، وإنما ضعفت الدوافع والحوافز التى تحفزه إلى الإجادة ، والدوافع العديدة التى كانت لدى الشعراء فى الجاهلية والتى لا داعى الآن للإفاضة فيها ضعفت فى هذه الحقبة التى عاشها حسان فى الإسلام ، ثم بدأت تستيقظ ولو فى أثواب أخرى بعد حياة حسان ، ولو تصورنا أن حسانا قد امتد به العمر ، وبقيت فيه بقية من قوة وعاصر الصراعات العصبية والسياسية والحزبية وعوامل إغراء الشعراء بعضهم ببعض وغير ذلك ثم انفعل بهذا أو ببعضه لأعاد إلى الناس شعره الجزل الفخم الذى عرفوه عنه فى الجاهلية

ولكن الحكم العام على شعر حسان أنه كان قويا واضح القوة فى الجاهلية ، ثم مال ميلا واضحا إلى الضعف فى الإسلام ، وهذا الحكم يمثل الاتجاه العام لدى العلماء والنقاد القدماء ، ولم يعد موضع خلاف بين النقاد المحدثين ، ولا يخل بهذا الحكم ما نجد من آراء فردية لبعض القدماء كوصفهم حسان بأنه كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى فى النبوة ، وشاعر اليمن فى الإسلام ، فالوصفان الأولان

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-٢١٩

لا خلاف حولهما ، ولكن الوصف الأخير قد لا يراد به النقد لشعر حسان ، وإنما يراد به تكريم حسان والإشادة بشخصه .

وإذا أردنا مثالا لاختلاف مستوى شعر حسان بين الجاهلية والإسلام فلنأخذ هذا النموذج الذى يرويه الرواة على أنه قصيدة واحدة ثم يرجحون أنه قال شطرها فى الجاهلية ، ثم أنشأ الباقى فى الإسلام لأن الجزء الأول منها لا تتفق معانيه مع الإسلام ، أما الجزء الثانى فهو إسلامى واضح مشهور . فهو يقول :

عَفتْ ذات الأَصابع فالجِوَاءُ   إلى عَذْرَاء مَنْزِلها خــلاءُ (١)

ديارٌ من بنى الحَسْحاس قفْــرٌ   تُعَفّيها الروَامس والسماءُ (٢)

وكانت لا يَزال بها أَنيــسٌ   خلال مروجها نعَمٌ وشاءُ (٣)

فدَعْ هذا ولكن ما لطيْــفٍ   يؤرقنى إذا ذهَب العشاءُ ؟ (٤)

لشعثاءِ التى قـــد تيمتْــه   فليس لقلبه منها شفاءُ (٥)

---

(١) الجواء : موضع بالشام كان يقيم فيه الحارث بن أبى شمر الملك الغسانى ، وكذلك ذات الأصابع ، وعذراء : موضع قرب دمشق وهى من أماكن الغساسنة الذين كان يفد عليهم حسان ويمدحهم وعفت : بمعنى درس وانمحت آثارها .

(٢) بنو الحسحاس: فرع من بنى النجار من الخزرج الأنصار وقفر : خالية والرواسى: الرياح التى تطمس الآثار وتغطيها ، والسماء : المطر يعنى هذه الديار طمستها الرياح والأمطار

(٣) يعنى هذه الديار كانت عامرة بالناس ، وكانت حافلة بالمروج والشجر الذى تتخلله الإبل والغنم .

(٤) يعنى دع التفكير فيما سبق ثم تحدث عن سبب الأرق الذى ينتابنى حتى آخر الليل .

(٥) يجيب فى هذا البيت عن تساؤله فى البيت السابق عن سبب أرقه ، مبينا أن سبب أرقه هو الحب العميق الذى لا شفاء منه لهذه المرأة المسماة شعثاء .

كأن خبيئةً من بيت رأسٍ يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ [١]

على أنيابِها أو طَعْم غضٍّ من التُفاح هَصَّرَهُ الجُنـــاة

إذا ما الأشربات ذكرن يَوْماً فهُنَّ لطيِّب الرَّاح الفداءُ [٢]

نوَليها الملامَة إنْ ألمْنـــا إذا ما كان مَغْثٌ أو لحَاءُ [٣]

ونشْربُها فتتركنـــا ملوكـــاً وأُسْدا ما ينهْنهُنا اللِّقاءُ [٤]

يقول رواة ديوان حسان : قال العدوى : قال حسان القصيدة إلى هذا الموضع فى الجاهلية ، ثم وصلها بعد بهذا القول فى الإسلام .

عَدمْنا خيلنا إن لم ترْوهـــا تثيُر النَّقْعَ مَوْعدها كَدَاءُ [٥]

يُبَارين الأَسنَّةَ مُصْغيــــات على أَكْتافها الأَسَل الظِّمَاءُ [٦]

---

(١) الخبيئة : الخمر المصونة الثمينة القيمة . و بيت رأس : بلد بالأردن يصف هذه الخمر بالجودة ومما يزيد جودتها مصاحبتها للعسل والماء وعسل اسم كان مؤخر وهو نكرة للضرورة

(٢) الراح : الخمر وسميت الراح لشعور مدمنها بالراحة عند شربها ، وطيب الراح يعنى به خمره التى يصفها والمعنى أن كل الخمور دون هذه الخمر وفداء لها .

(٣) نوليها من ولى وجهه إلى كذا يعنى نوجه إليها الملامة . وألمنا من ألام يليم إذا صدر منه مايلام عليه والمغث بسكون الغين القتال واللحاء العيب يعنى إن صدر منا تقصير أو عيب أثناء الخصومة والقتال فإن اللوم على هذه الخمر التى لم تحدث أثرها المعتاد كما يلى .

(٤) النهنهة الكف والمراد لا تضعفنا اللقاء فى الحرب .

(٥) النقع : الغبار وكداء : موضع بظاهر مكة يتوعد أهل الشرك فى مكة بأن خيل المسلمين ستدخل مكة

(٦) يبارين يعنى الخيل والأسنة جمع سنان الرمح يريد أن الفارس يضع الرمح على عاتق الفرس وسنانه إلى أمام والفرس يعدو كأنه يسابق ويبارى سنان الرمح ومصغيات أى أن الخيل متحفزة للطعن كأنها مصغية بآذانها والأسل هى الرماح والظماء جمع ظامىء يعنى أن الرماح عطاش إلى الدماء.

تظـــل جيادُنا مُتَمَطِّـرات ... تلطمُهُــن بالخُمر النساءُ [1]

فإمـا تُعْرِضـوا عَنَّـا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاءُ [2]

وإلا فاصبروا لجلاد يَــوْمٍ ... يعين الله فيه من يشـــاء

وقال الله قد يَسَّرْت جنـــداً ... هم الأنصار عرْضتها اللقاء [3]

لنا في كل يوم من مَعَـــدٍّ ... قتالٌ أو سبَابٌ أو هجَاءُ [4]

فنحْكم بالقوافي مَنْ هَجَانـــا ... ونضْرب حيث تختلط الدماءُ [5]

وقال الله قد أرسلت عبــدا ... يقول الحق إن نقع البَــلاءُ [6]

شهدت به فقوموا صَــدقوه ... فقلتم لا نجيب ولا نشاءُ [7]

وجبريلٌ أمين الله فينـــا ... وَروح القــدس ليس له كفاءُ

---

(١) متمطرات سابقات للخيل من السرعة وتمطر الفرس خرج من الخيل وسبقها والخمر جمع خمار من أغطية رأس المرأة يعنى أن خيلهم ستدخل مكة فلا تجد من يدافعها إلا النساء يلطمن وجوه الخيل بخمرهن وقد تحققت هذه الصورة حتى أن النبى حين رأى النساء يفعان ذلك قال لأبى بكر ماذا قال حسان فذكر أبو بكر البيت

(٢) تعرضوا عنا تتركونا ندخل مكة للعمرة

(٣) يسرت هيأت وعرضة الشئ القدرة عليه والضمير فى عرضتها للحرب يعنى أن الأنصار أهل الحرب

(٤) ومعد جد أعلى لقريش يشير إلى العصبية بين العدنانيين الحجازيين ومنهم قريش وبين القحطانيين اليمنيين ومنهم الأنصار لأنهم من الأزد والأزد نزحت أصلا من اليمن ثم تفرقت

(٥) نحكم نكف ونمنع

(٦) نقع البلاء اشتد والنقع فى الحرب الغبار يعنى أن النبى يقول الحق مهما اشتدت حوله الأهوال

(٧) الشطر الأول على أنه كلام الله ، والشطر الثانى بيان لتكذيب قريش إياه ولانشاء يعنى لا نريد تصديقه أى ليس هناك أمل فى تصديقنا إياه .

ألا أَبْلِغْ أبا سفيان عَــنى ... فأنت مجَوَّفٌ نخبٌ هَوَاءُ (١)

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويَمْدَحه وينصره سَوَاءُ (٢)

هجوت محمداً فأجبت عنــه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ (٣)

أتهجــوه ولست له بِكُفْــؤٍ ... فشرُّكما لخيْركمــا الفدَاءُ (٤)

فإنَّ أبى ووالدَه وعرْضــى ... لعرْض محمد منكم وقــاءُ

فإمــا تثْقفنَّ بنـــو لؤىٍّ ... جذيمة إنَّ قَتْلهم شفَــاءُ (٥)

أولئك مَعْشر نصروا علينــا ... ففى أظفارنا منهم دماءُ (٦)

وحلْف الحارث بن أبى ضرارٍ ... وحلف قريظةٍ منَّا بَرَاءُ (٧)

لسانى صارمٌ لا عيب فيــه ... وبحرى ما تكَدره الدلاءُ (٨)

---

(١) أبوسفيان هو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبى وكان شاعرا ضد النبى قبل أن يسلم ومجوف أى فارغ أجوف والنخب كالنهم الجبان وهواء يعنى لا وزن ولا قيمة له يعنى أبا سفيان

(٢) تهوين من شأن قريش يعنى لا ضرر من عداوتكم ولا نفع فى صداقتكم فى كلا الحالين لا قيمة لكم

(٣) يخاطب أبا سفيان الشاعر قائلا إنك هجوت النبى وفى ذلك عند الله الخزى لك ولكنى تصديت فأجبتك نيابة عنه .

(٤) استخدم أسلوب الإنصاف كقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) يعنى تعال لندع أن يكون شركما أنت والنبى فداء لخيركما

(٥) ثقفه أدركه ولؤى حفيد فهر الملقب بقريش وجذيمة فرع من الأزد ويعنى به فرع الأنصار والمراد أن قريشاً إذا قابلتنا فى الحرب فإن قتل قريش يشفى نفوسنا

(٦) نصروا علينا أى أعانوا أعداءنا علينا والشطر الثانى يشبه الشاعر قومه باسود ذوى أظفار افترسوا أعداهم وبقيت أثار الدماء فى الأظفار

(٧) الحارث من بنى المصطلق من فزاعة وكانوا ضد المسلمين دون قومهم خزاعة وبنوقريظة من اليهود ومنا براء يعنى هم ضد لنا والأصل نحن براء منهم

(٨) يشبه لسانه بسيف صارم جيــد وفى الشطر الثانى يــريد أن الهجاء لا ينال منه كالبحــر الدلاء لا تؤثر مهما اغترفت منه .

ولسنا نريد الإفاضة فى التعقيب على الأبيات السابقة لأننا لسنا بصدد دراسة شعر حسان ، ولذلك نوجز حديث التعقيب عليها فنقول : إن هذه الأبيات تكاد تكون صورة متكاملة لشعر حسان كله ، سواء من حيث المستوى والتفاوت فيه بين الجاهلية والإسلام ، ومن حيث انفعال حسان ببعض المعانى ، ومن حيث الرواية ، ومن حيث نزعة العصبية ، ويمكن أن نلم بهذه الجوانب فى الإيجاز التالى .

١ - من حيث اختلاف المستوى بين الجاهلية والإسلام نقول : إن الرواة يروون هذه الأبيات على أنها قصيدة واحدة قالها حسان دفعة واحدة وفى وقت واحد ، ولكن العدوى يلحظ عدم تلاؤم جزءيها فيرى أو يروى أنها قصيدة واحدة ولكنها قيلت فى زمنين متباعدين ، الجزء الأول منها قيل فى الجاهلية ، والجزء الثانى فى الإسلام ، ولكننا إذا ألقينا نظرة على هذه الأبيات نستبعد أن تكون قصيدة واحدة لأكثر من سبب ، فمن هذه الأسباب اختلاف الموضوع ، حيث إن الجزء الأول يتكون من مطلع لقصيدة مدح للغسانيين ، ثم وصف للخمر ، أما الجزء الثانى فيدور حول تهديد قريش ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلا الجزءين لا اتفاق ولا تقارب بينهما فى الموضوع ، ومنها أنه من غير المألوف أن يقول شاعر أبياتا أو قصيدة ثم يكملها بعد سنوات عديدة ، فلا ضرورة لذلك ، وماذا يمنعه أن ينشىء قصيدة جديدة فيما يريد أن يقوله ؟ وما الضرورة التى تحتم عليه أن يضيف إلى القصيدة أو قصيدة سابقة أبياتا أخرى ؟ ثم ماذا يمنع أن تكونا قصيدتين ؟

بل إن الناظر إلى هذه الأبيات لا يحتاج إلى جهد كبير ليتبين أنهما قصيدتان ، أولاهما جاهلية واضحة ، والأخرى إسلامية أشد وضوحا ، ولعل الذى دعا جامعى ديوان حسان إلى عدهما قصيدة واحدة صغر أبيات الجزء الأول ، فرأوا عددها قليلا لا يناسب القصائد ، وخصوصا قصائد الفحول مثل حسان ، ولكن الأحرى بهم أن ينظروا إليها نظرة نافدة ليتبينوا ولو على سبيل الترجيح والتغليب الواضح أن الجزء الأول لا يعقل أن يتلاءم مع الجزء الثانى لتتكون منهما قصيدة واحدة ، كما أنه بصورته هذه لا يعقل أن يكون قصيدة مستقلة ، وإنما يعقل أن يكون مطلعا ومدخلا فى قصيدة جاهلية ، بدأها بما تبدأ به قصائد الجاهلية من بكاء الأطلال ، ثم استرسل فى معان جاهلية حول النشوة بالغزل والخمر ، ثم استرسل فى موضوع القصيدة وهو المدح الذى يتضح من المطلع أنه كان لبعض الملوك الغسانيين الذين كثيرا ما مدحهم حسان ، ولكن لأسباب معينة فقد من الرواة موضوع القصيدة ، ولم تصل إليهم الأبيات التى تحمل هذا الموضوع ، كما فقد شعر كثير جدا من أشعار الجاهلية لأسباب متقاربة ، ثم وجد الرواة فى شعر حسان الإسلامى قصيدة لعلها فقدت مطلعها فى طريق الرواية التى لم تكن تهتم فى هذه الحقبة اهتماما كبيرا بالشعر ، ووجدوا الجزء الجاهلى والجزء الإسلامى كلاهما من بحر وقافية واحدة ، فحسبوهما قصيدة واحدة ، أو تغاضوا عما سبق من حيث الموضوع وادعوا أنهما قصيدة واحدة ، وما كان لهم أن يتغاضوا عن جوهر واضح وهو أن الجزء الأول تبدو فيه حرارة الشباب وعواطفه وشهواته ،

بينما الجزء الثانى ليس فيه إلا صراع الأعداء وتحدياتهم ، كما أن الجزء الأول وان كان لا يعد من أجود شعر حسان الجاهلى إلا أنه من الواضح أن مستواه الفنى سواء فى التصوير وفى الأسلوب والتعبير أعلى من مستوى الجزء الثانى الإسلامى الذى لا يحمل فى مجموعه سوى صدق العاطفة .

٢ ـ وأما من حيث استعادة حسان حيوية شاعريته فى بعض شعره الإسلامى ، فإننا نستطيع أن نرى الجزء الإسلامى كله من القصيدة سطحيا ساذج المعانى ليس فيه جهد أدبى ولا شاعرية واضحة كقوله :

وقال الله قد أرسلت عبـــدا ... يقول الحـق إن نفـع البلاء

شهدت به فقومـوا صدقـوه ... فقلتم لا نجيب ولا نشـاء

ولكن حسانا حينما يعرض لمعنى يثير مشاعره وشاعريته وهو الفخر على أعداء يهمه أن يشفى غليل عصبيته القبلية منهم قبل غليله الدينى إذا هو يستعيد حيويه شاعريته ، وكأنه عاد إلى شبابه فى مطلع حياته الجاهلية يرسم صورة حرب شديدة الصخب ، يعلوها غبار كثيف ، وتشعلها خيل يبلغ حسان فى وصفها ووصف عدوها ووصف إذلالها للأعداء قمة الشاعرية حيث يقول :

عدمنا خيلنا إن لم تروهـــا ... تثير النقـــع موعدهـا كداء

يبارين الأســنة مصغيـــات ... عـلى أكتافها الأسل الظماء (١)

(١) مباراة الخيل مع الأسنة أى أن أسنة رماح الفرسان متجهة إلى أمام استعدادا للطعن بها والخيل فى شدة عدوها كأنها تسابق الأسنة .

تظــل جيادنــا متمطــرات تلطمهن بالخمــــر النساء

فهذه الأبيات تختلف اختلافا واضحا فى مستواها الأدبى الرفيع عن بقية الأبيات الإسلامية التى تميل ميلا واضحا إلى السطحية والهبوط.

٣ – وأما من حيث نزعة حسان العصبية القبلية التى نتج عنها – كما أشرنا – تحامله على قريش تحاملا يتجاوز الناحية الدينية إلى ما يوحى ببعض قريش لذاتها مع صرف النظر عن دينها وكفرها ، مما كان يبدو من حسان كثيرا حتى بالقياس إلى المهاجرين المسلمين القرشيين كقوله المشهور (أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا . . .) يعنى كثرة المهاجرين القرشيين فى المدينة وعزتهم عزة تفوق عزة الأنصار أصحاب المدينة ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم ألمح إلى حسان بلومه على تحامله على قريش كما سلف ، وفى هذه القصيدة التى معنا تبدو عنصرية حسان وعصبيته القبلية ضد قريش سافرة واضحة حيث يقول :

وقــال الله قد يسرت جنــــدا هم الأنصار عرضتهــا اللقــاء

لنا فى كــل يــوم من معـــد قتــال أو سباب أو هجــــاء

ففى البيت الأول منهما يتحدث عن أن الذين يتوعدون قريشا هم الأنصار ، وليس هذا بحق ، فالمتوعدون هم المسلمون عامة وليسوا الأنصار خاصة ، وأين المهاجرون إذن ؟ ولكن حسانا يفكر من زاوية العصبية قبل زاوية الدين ، وفى البيت الثانى يصرح حسان بأن مصدر العداء لقريش هو كونها من معد بن عدنان ، وهو قحطانى يمنى الأصيل .

بينما كان ينبغي أن يكون مصدر العداوة كون قريش على الكفر ، وهو فى الإسلام ، وإلا فإن المهاجرين القرشيين الذين يقاتلون مع الأنصار هم أيضا من معد بن عدنان ، هل هم أيضا أعداوه ؟ إننا لو تتبعنا شعره لوجدنا كثيرا منه ينبىء عن أن نفسه لا تخلو من شعور بالعداوة لهم ، أو النفور منهم ، أو عدم الاطمئنان إليهم .

٤ – وأما من حيث اضطراب الرواية أو عدم وضوحها فى بعض شعر حسان كما هو فى كثير من الشعر الجاهلى والشعر القريب منه فإن هذه القصيدة تصلح أيضا مثالا لذلك .

والواقع أن معظم أو أهم ما يثار حول هذه القضية يكاد ينحصر فى أمرين ، أحدهما سقوط كثير من الشعر الجاهلى أو القريب منه ، وعدم وصوله إلينا ، والآخر هو الخلط فى نسبة بعض الشعر إلى غير أصحابه فيما عرف بقضية انتحال الشعر ، وهذان الأمران نجدهما واضحين فى هذه القصيدة ، فأما عن سقوط بعض الشعر فإننا نلحظه بوضوح فى الجزء الأول من القصيدة كما سبق ، حيث يبدو بوضوح أن هذا الجزء ليس جزءا من هذه القصيدة ، وإنما هو جزء من قصيدة أخرى كانت فى أغلب الظن مدحا لآل غسان أو حزنا على أمجادهم الغابرة ، كما يبدو فى أغلب الظن أن اسم بنى الحسحاس دخيل منحول على القصيدة ، وأن الأصل كان حديثا عن بنى غسان فاستبدل بهم بنو الحسحاس الذين هم من أقرب البيوت نسبا إلى بيت حسان لأنهم جميعا من بنى النجار ، ومهما يكن من شىء فإن أبيات هذا الجزء من

القصيدة شديدة الوضوح فى أنها غير متلائمة لا فيما بينها ، ولا فيما بينها وبين الجزء الثانى الإسلامى من القصيدة ، فما العلاقة بين ديار بنى الحسحاس بالمدينة وديار مواضع بالشام ؟ وما العلاقة بين هذا كله وبين كداء فى ظاهر مكة ؟ وما العلاقة بين صور جاهلية بحتة كحديث الخمر وبين صور إسلامية بحتة كمدح النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فلابد إذن أن يكون هناك سقط لأبيات كثيرة ليعود الوضع إلى تصوره الصحيح ، وهو ما رجحناه من أن الجزء الأول ليس إلا مطلعا أو جزء غير مرتب من مطلع لقصيدة مستقلة ، أما باقيها فقد سقط خلال تنقلها بين الرواة فى حقبة شغل الناس فيها بما هو أهم من الشعر ، وهو الدين الجديد وما اقتضاه من صراع وكفاح . كما يقول ابن سلام عن (حسان وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، وضعوا عليه أشعار كثيرة) .

وأما عن الخلط فى نسبة بعض الشعر إلى غير أصحابه فيما عرف بالانتحال كما يقول ابن سلام عن حسان وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، وضعوا عليه أشعارا كثيرة ، فإننا نجد له فى القصيدة أيضا مثالا واضحا ، وهو الحديث عن التفاح الذى لم تنبته الجزيرة العربية ، ولم تعرفه حياتها المعيشية للعرب إلا بعد أن رحلوا فى الفتوح الإسلامية إلى الشام ثم إلى بلاد أخرى تعرف التفاح ، كان ذلك بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، أما هذه القصيدة فكانت فى حياة النبى قبل فتح مكة بزمن غير يسير ، لكن هذا البيت لا يتحدث عن طعم التفاح فحسب ، إنما يتحدث عن اجتنائه حيث يقول :

على أنيابهـا أو طعم غـــضٍّ من التفاح قَصَّره الجنـــاء [1]

وكأنه فى بيئة تعرف زراعة التفاح وتعرف كيفية اجتنائه لا مجرد طعمه ، وقد أدرك بعض النقاد كالسهيلى أن هذا البيت دخيل على القصيدة ، ومنحول على شعر حسان ، كما أشار إلى ذلك بعض محققى ديوان حسان ، وإذن ففى هذه القصيدة مثال على ما شاب شعر حسان من انتحال ووضع زيادة على كونها مثالا لاضطراب الرواية فى شعر حسان وغيره فى هذه الحقبة ، وكونها مثالا لاختلاف مستوى شعره فى الإسلام عنه فى الجاهلية ، وكونها مثالا على أن شاعرية حسان لم تخب فى الإسلام وإنما خبت دوافعه إلى الشعر الذى ينبع من شاعريته لا من دينه ، وكونها مثالا على أن حسانا كان يحمل عصبية ضد قريش وضد العدنانيين [2]

ولكن الإنصاف لحسان يقتضى ألا يمر الحديث عن شعره الإسلامى دون تعقيب ، فقد قلنا إن الاتجاه السائد لدى القدماء والمحدثين ، والذى لا تكاد توجد معارضة له أن شعر حسان الإسلامى فى مجموعه يميل إلى الضعف والهبوط ، وهذا من شأنه أن يترك فى النفس انطباعا

---

(١) الضمير فى أنيابها ينبغى أن يكون للمرأة ولكنه جاء فى سياق الحديث عن الخمر وهذا من اضطراب الترتيب فى القصيدة ولقصر بتشديد الصداد أماله والجناء الجنى ويروى اجتناء

(٢) انظر فيما سبق عن حسان بن ثابت الأغانى للأصفهانى ٤ - ١٣٤ و خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٢٢٧ ، ٤ / ٧٤ - ٤ / ٣٨٤ والعمدة لابن رشيد ١ - ٨٩ وشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ٢ - ٥٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ - ٢٥٣ - ٣ - ٣١٩ وسيرة ابن هشام فى الغزوات ومواضع أخرى كثيرة تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ١٤٢ وديوان حسان تحقيق سيد حنفى والاصابه فى تميز الصحابة لابن حجر وتاريخ ادب العربى كارل بروكلمان ١ - ١٥٢ وتاريخ الأدب العربي حنا الفاخورى ٢٣١ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ - ٢١٥ و مواضع أخرى .

برداءة شعره الإسلامى ، وليس هذا بصحيح على إطلاقه للأسباب الآتية :

أولا : توجد فى شعر حسان الإسلامى كما سبق نماذج وإن كانت قليلة محدودة من طراز شعره الجاهلى الجزل ، وذلك حينما تنفعل شاعريته فتستعيد جزالتها وقوتها الجاهلية

ثانيا : ينبغى أن نراعى أن الحكم بميل شعر حسان الإسلامى إلى الضعف ليس تقويما له أو حكما عليه لذاته ، وإنما هو حكم نسبى قياسى بمعنى أن النقاد سواء قديمهم وحديثهم إنما يقولون باهتزاز شعر حسان الإسلامى وجنوحه إلى الضعف إذا قيس بشعره الجاهلى ، فهذا القيد النسبى له أهمية فى إنصاف شعر حسان الإسلامى ، ومعنى ذلك أننا إذا نظرنا إلى هذا الشعر لذاته دون موازنة بينه وبين شطره الجاهلى فإن الحكم يختلف ، لأن شعر حسان الإسلامى لذاته ليس ضعيفا ولا هو دون غيره من شعراء عصره ، بدليل أنه لم يرد أن أحدا من النقاد أو الشعراء المعاصرين له أو القريبين من عهده عاب هذا الشعر ، أو وجد فيه ما يحط منه أو يرفع منافسيه عليه ، أو يعترض على تزكية له ، وهذا محمد بن سلام الجمحى وهو من أقدم علماء الشعر ونقاده ولا يزال قمة لم تعلها قمة أخرى يصف حسان بن ثابت بأنه أشعر شعراء المدينة ، وبأنه كثير الشعر جيده ، دون أن يعيب أو يقلل من قدر شىء من شعره فى أى مرحلة من مراحل حياته وينكر أن يفضل قيس بن الخطيم عليه ، وإنما يضع ملحوظتين ، إحداهما يصرح بها

تصريحا ، وهى أنه نسب إلى حسان شعر كثير من شعر غيره وقد يكون هذا مما أساء إلى شعره الإسلامى ، والأخرى يلم إليها إلماحا وهى أن أجود شعره كان فى الجاهلية ، حيث يقول (ومن شعره الرائع ما مدح به ذبى جفنة من غسان ملوك الشام ثم يسوق أمثلة) فهو يصف هذا الشعر ليس بالجودة فقط ، وإنما بالروعة .

وإذن فشعر حسان الإسلامى لا غضاضة فيه ، وليس هناك شعر آخر معاصر له أخمله أو تفوق عليه ، وإنما جاءته الغضاضة من أن لحسان فى الجاهلية شعر أجزل من هذا الشعر ، لأن الدوافع فى الجاهلية كانت شخصية تخصه هو ، أما دوافع الإسلام فكانت عامة له ولغيره .

ثالثا : من الإنصاف لشعر حسان الإسلامى إبراز ميزة واضحة فيه ، وهى صدق العاطفة ، فمن الواضح فى شعره الإسلامى بصرف النظر عن جودته أو مستواه أيا كان أنه صادق المشاعر ، وأنه يصدر فيما يقول عن حب واضح عميق لشخص النبى صلى الله عليه وسلم وللإسلام نفسه ، وأوضح ما يكون هذا فى رثائه النبى والخلفاء .

كعب بن مالك

وهو من فحول شعراء المدينة عامة ، وشعراء الإسلام خاصة ، فإن فحول شعراء المدينة كما عدهم ابن سلام خمسة ، ثلاثة منهم من الخزرج ، هم شعراء الإسلام ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، واثنان منهم من الأوس وقد ماتا على الشرك فى المشهور من أخبارهما ، وهما قيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت ولكنهما مع شركهما لم يرد أنهما وقفا من المسلمين موقف عداء ، أو استخدما شعرهما ضد الإسلام كما فعل الشعراء المشركون فى مكة بل كان فى بعض شعر ابن الأسلت رغم شركه ما يدعو قريشا إلى الوحدة وعدم الشقاق وإراقة الدماء .

وإذن فقد كان كعب ثانى ثلاثة من شعراء الإسلام ، ولكنه من الشعراء المحترفين للشعر والمجيدين فيه منذ الجاهلية ، كما يصفه البغدادى بقوله : (كان مجودا مطبوعا قد غلب عليه فى الجاهلية أمر الشعر وعرف به) ويصفه ابن سلام بأنه شاعر مجيد ، وكان صادق الدفاع عن الإسلام بشعره ، ومن المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم أظهر رضا الله ورضاه هو عن قول كعب :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها   وليُغلبنّ مغالب الغلاب [1]

حيث قال لكعب (ما نسى ربك هذا وما كان ربك نسيا) .

وكان كعب يحمل نزعة العصبية القبلية ضد قريش كحسان بن ثابت ، وكثيرا ما كان يصرح فى شعره بالتحامل على نسب معد كله بل له شعر ضد بنى هاشم ، ومن المشهور أنه كان أحد الثلاثة الذين خلفوا والذين نزل فى قبول توبتهم قرآن يتلى ، وصاحباه الآخران هلال ابن أمية ومرارة بن الربيع ، وقد توفى بعد أن كف بصره سنة خمسين أو ثلاث وخمسين من الهجرة عن سبعة وسبعين عاما [2]

---

(١) السخينة طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء وكانت تعرف قريش فعيرت به واصبح للقبا عليها

(٢) انظر الاصابة فى تميز الصحابة لابن حجر وخزانة الأدب للبغدادى ١ – ١٤٧ والأغانى للأصفهانى ١٦–٢٢٦ وسيرة ابن هشام ٩٥٨ وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ١٤٥ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ – ٢٢٠

عبد الله بن رواحة

هو ثالث شعراء الإسلام ، ومع أنه معدود من فحول شعراء المدينة إلا أن شهرته بالسيادة فى قومه فوق شهرته بالشعر ، فيصفه ابن سلام بأنه (عظيم القدر فى قومه ، سيد فى الجاهلية ، ليس فى طبقته التى ذكرنا أسود منه . . . كان فى الإسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول الله) .

وكان أيضا يحمل نزعة العصبية القبلية ولكن دون نزعة حسان وكعب ، وكان يذكر نسب معد كثيرا ولكن دون جور فى التحامل ، وقد قدمه النبى صلى الله عليه وسلم فى عدة مواطن وله أشعار كثيرة فى صراعهم مع قريش .

وقد شارك فى غزوة مؤتة ، وأظهر شجاعة فى بدايتها ، فلما استشهد القائدان زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب وأسندت إليه القيادة تردد فى القتال وكأنه ضعف عن تحمل هول القتال حينئذ ، ثم قاتل واستشهد يومئذ ومما يروى عن عبد الله بن رواحة أنه حين أنشد أمام النبى قصيدة يهجو فيها قريشا بلغ إلى قوله

نخبرونى أثمان العباء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مضر ؟

قال : فكأنى عرفت فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكراهة إذ جعلت

قومه (أثمان العباء (ولكنه كان ينبغى أن يدرك أنه مما يثير سخط النبي إنكار ابن رواحة أن قريشا دانت لها مضر ، فالحقيقة ان مضر لم تدن إلا لقريش ، كما قال أبو بكر فى خطبة السقيفة إن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش [1] .

---

(١) انظر خزانة الادب للبغدادى ٢-٣٠٤ والعمدة لابن رشيق ١-٢١٠ وسيرة ابن هشام ٣-٨٢٨-٨٣١ وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ١٣٢ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-٢٢٣

شعراء الشرك

وكما تحدثنا عن شعراء الإسلام الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عنه فينبغى الحديث عن الجانب الآخر ، أو الجهة المضادة للإسلام ، وهم الشعراء الذين نصبوا من أنفسهم أعداء للإسلام ، وجعلوا الشعر سلاحهم فى هذا العداء ،ولذلك يقتصر الحديث هنا على الشعراء الذين استخدموا شعرهم فى هذه الحرب ، وهم عدد قليل من شعراء مكة ، فهذا العدد القليل الذى يكاد ينحصر فى عبد الله بن الزبعرى السهمى ، وأبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب الفهرى ، وأبو عزة الجمحى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى هم الذين يعنيهم الحديث بوصفهم لسانا للشرك ضد الإسلام ، أما الذين لم يستخدموا شعرهم ضدالإسلام فلا يعنيهم الحديث ، لأن الحديث هنا لا يعنيه دينهم لذاته ، وإنما يعنيه شعرهم من حيث موقفه من من الإسلام ، ولذلك أشرنا خلال الحديث عن كعب بن مالك إلى شاعرين كانا من أكبر شعراء المدينة ، وقد ظلا على الشرك حتى ماتا ولكنهما لم يستخدما شعرهما ضد الإسلام ، وهما قيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت ، فلا يعنينا إذن شعرهما ، لأنه لم يرتبط بالإسلام ، لا تأييداً ولا عداء .

ولكن الحديث عن شعراء مكة يتطلب الإلماح إلى جوانب تحوط موقفهم ، فمن ذلك أن معظمهم أسلم وقال فى الإسلام شعرا أراد أن يمحو به ما أسلف من شعر ضد الإسلام ، وجوانب أخرى نلم بها فى إيجاز لمجرد لفت النظر إليها كما يلى :

عدم شهرة قريش بالشعر :

ينقـل الأصفهانى فى خـلال حـديثه عن عمر بن أبى ربيعة [1] أن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم فى كل شىء عليها إلا فى الشعر . ومع أن قريشا قبيلة من قبائل العرب ، وفيها ما فى العرب من استعداد للشعر ، بل فيها مثل ما فى قبائل العرب من شعراء إلا أنها لم تبلغ فى الاهتمام بالشعر ما بلغته القبائل الأخرى ، ولم يبلغ شعراؤها ما بلغه شعراء القبائل الأخرى من جودة الشعر ، مع أن كل الملابسات فى ظاهر الأمر تستدعى عكس ذلك ، فقد أتيح لمكة طوال عصور عديدة أن تكون مركز العرب الدينى والاجتماعى ، وهذا يتيح لها بسطة من ثقافة ومن تفوق فى المعرفة ونحو ذلك مما كان ينبغى أن يستفيد به شعراؤها فى السمو بشعرهم على شعر الآخرين ، ولكن أحاطت بحياة قريش منذ الجاهلية الأولى عوامل لم تتح للشعر فيها أن يبلغ مبلغ قبائل أخرى كثيرة فى العرب ، ومن هذه العوامل .

١ ـ أن قريشا بحكم زعامتها الدينية والاجتماعية منذ القديم لم تدخل في صراع أوتنافس حقيقى مع قبيلة أخرى مما يدفع شعراءها إلى استخدام شعرهم سلاحا فى هذا الصراع ، ومن الواضح أن أقوى

(١) الأغاني ١ - ٧٨

عوامل الشعر بين القبائل كان نتيجة للصراع فى التنافس وفى الحروب فيحاول كل شاعر من الطرفين أن يرفع من شأن قبيلته بالفخر أو بالتهديد أو غير ذلك ، كما يحاول أن يحط من شأن الخصوم بالهجاء أو الوعيد أو ما يشبه ذلك ، كما يقول ابن سلام (وإنما يكثر الشعر بالحروب بين الأحياء ، والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا) [1]

ولكن قريشا لم تنافسها فى مكانها قبيلة أخرى منافسة جادة تبلغ درجة الصراع ، وكأن العرب كانوا يسلمون لها بالزعامة ، أو بأنها فى منزلة تعلو القبائل الأخرى ، وحتى الصراع بين قريش والمسلمين لم يكن صراع أو تنافس عنصرين ، وإنما كان صراع دينين ومذهبين وإذن فلم يكن شعراء قريش فى حاجة إلى استخدام شعرهم فى صراع ليثبتوا لقبيلتهم التفوق على غيرها ، فإن هذا التفوق موجود فعلا ولذلك لم يكن هناك صراع حقيقى ، أما الخلافات أو الحروب العارضة التى كانت تعرض فى صلات قريش ببعض القبائل فلم تكن خلافات تنافس ، وإنما كانت نتيجة أحداث عارضة أو مواقف وقتية .

٢ – على أن هذه العوامل التى كانت من أقوى حوافز القبائل إلى الاهتمام بالشعر كانت مفقودة داخل قريش ذاتها ، فقريش بيوت وأحياء عديدة ، وبين هذه الأحياء خلافات وتنافس وصراع ، وقد كان ينبغى أن يكون ذلك من عوامل قوة الشعر فى قريش ، ولكن

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١–٢٦٠ فصل (شعراء الطائف)

قريشا كان لها تقاليد تميزت بها عن غيرها من القبائل ، ومن هذه التقاليد أنها تواضعت فيما تواضعت عليه أن تحرم على شعرائها استخدام شعرهم في هذه الخلافات ، كما يقول ابن سلام الجمحى (وكان مما تنكر قريش وتعاقب عليه أن يهجو بعضها بعضا) [1] بل مما يروى أن قريشا اتهمت عبد الله بن الزبعرى السهمى الشاعر – وهو من قريش – ببيتين من الشعر وجدوهما مكتوبين على دار الندوة :

ألهى قُصَيًّا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير [2]

وأكلها اللحم بحتا لا خليط له وقولها : رحلت عير مضت عير

وقد بلغ استنكار قريش للخروج على تقاليدها أن طلبوا قطع لسانه ، وكاد هذا ينفذ لولا خشيتهم من انتشار قطع ألسنة الشعراء[3]

وإذن فهذا العامل الذى كان من أقوى دوافع الشعراء إلى الشعر ، وإلى الإجادة فيه كان مفقودا فى داخل قريش نفسها .

٣ – لم يلجأ شعراء قريش إلى التكسب بالشعر كما كان يفعل بعض شعراء القبائل الأخرى ، حيث كان من أقوى دوافع الشعراء إلى تجويد الشعر هو تكسبهم به ولذلك كان أقوى شعر النابغة الذبيانى مدائحه لآل المنذر ، وأقوى شعر بن ثابت مدائحه آل غسان ، وأقوى شعر زهير بن أبي سلمى مدائحه لهرم بن سنان .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١–٢٣٦

(٢) السفاسير جمع سفير وهو السمسار الوسيط بين البائع والمشترى وقصى بن كلاب جد هاشم بن عبد مناف بن قصى

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١–٢٣٥

ولكن شعراء قريش كأنهم ترفعوا عن أن يتملقوا غيرهم ، وأن يريقوا مياه وجوههم أمام شخص ليطلبوا منه أو يلمحوا إليه بعطاء أو كأنهم خافوا أن تنكر قريش أو غيرها عليهم ذلك ، فلم يحترفوا التكسب بالشعر ولم يلجأوا إليه ، وبهذا فقدوا عاملا من أقوى عوامل جودة الشعر لدى الشعراء .

وكانت النتيجة أن قريشا لم تأخذ مكانها بين القبائل فى التنافس بالشعر ، ولم يزد شعراؤها مع كثرتهم على مزاولة استعدادهم الفطرى للشعر ، ولذلك لم يعرف الرواة بيتا من بيوت قريش نبغ فى الشعر أو عرف به ، كما عرفت بيوت كثيره توارثت الشعر وعرفت به فى العرب ، كبيت أبى سلمى المزنى ، وبيت حسان بن ثابت ، وبيت النعمان بن بشير الأنصاريين ، وبيت نهشل بن حرى ، وبيت جرير ابن عطية التميميين ،وبيوت أخرى كثيرة ليس منها بيت من قريش [1]

شعر قريش الإسلامى :

وحين نترك هذا العنوان (شعراء الشرك) على إطلاقه فى حديثنا عن شعراء قريش لا نكون قد أنصفناهم ، فليس شعرهم كله شعر شرك وليس شعرهم كله ضد الإسلام ، فإن الذين حاربوا الإسلام بشعرهم معظمهم أسلم ، وقال شعرا كثيرا أو قليلا يعتذر به عما أسلف فى شركه فعبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار

(١) انظر العمدة لابن رشيق ٢-٣٠٦

بن الخطاب الفهرى وهم من الخمسة الذين تزعموا حملة الشعر ضد المسلمين ، هؤلاء كلهم أسلم وقال شعرا فى الإسلام يحاول به أن يمحوا إثمه فى الشرك ، والشاعران الآخران ماتا على الشرك وهما أبو عزة الجمحى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى .

على أن من شعراء الشرك فى قريش من مات على الشرك ولكنه قال شعرا يخدم الإسلام ، وهذا أبوطالب عم النبى صلى الله عليه وسلم مع أنه مات مشركا إلا أن له قصيدة مشهورة يمدح بها النبى ، والتى يقول فيها :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيـــع اليتامى عصمة للأرامل

رغم اختلاف الرواة فى عدد أبياتها ، وترجيحهم أن أبياتا كثيرة وضعها شعراء متأخرون وأضافوها إليها وكذلك أبو عزة الجمحى الذى مات مشركا له شعر فى مدح النبى [1]

وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض أشعار التائبين المعتذرين بشعرهم فى الإسلام [2]

شعر قريش والرواية :

أحاطت بهذه الحقبة من بدء الإسلام وعهد حكم بنى أمية وحياة خلف الأحمر [3] عوامل من الصراعات الدينية والسياسية والقبلية

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-٢٤٤؛ ٢٥٣وسيرة ابن هشام ٤-٢٧٦
(٢) فصل الشعراء التائبون
(٣) توفى نحو سنة ثمانين ومائة انظر هامش نزهة الألباء لابن الأنبارى ٥٨

وغير ذلك أثمرت ثمارا سيئة كثيرة ، كان من أسوئها فى الأدب انتشار ظاهرة وضع الشعر ونسبته إلى غير أصحابه فيما عرف بالانتحال .

وقد كان نصيب شعراء قريش من هذا الانتحال كبيرا ، وذلك من جانبين :

١ – زيدت فى شعر شعرائهم زيادات كبيرة نسبت إليهم ، ووضع شعر كثير نسب إلى الشعراء المعروفين من قريش ، وكان معظم الشعر الموضوع فى مواقف اسلامية أو أغراض تخدم الإسلام ، ومحمد ابن سلام يشير إلى كثير من ذلك ، كما أشار إلى ما زيد فى قصيدة أبى طالب بن عبد المطلب التى يمدح فيها النبى [١] وكذلك يشير إلى عدم صحة معظم ما نسب إلى الزبير بن عبد المطلب وكذلك ما نسب إلى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب [٢] وابن هشام فى تعقيبه على ما رواه ابن إسحاق فى سيرته من شعر هؤلاء وغيرهم يشير فى معظم هذا الشعر إلى عدم صحة نسبته إلى أصحابه ، وأنه منحول عليهم وغالبا ما تكون عبارته (وأهل العلم بالشعر ينكرها له) [٣] .

٢ – لم يقتصر نحل الشعر على الشعر نفسه فى إضافته إلى شعراء لم يقولوه ، وإنما تعدى ذلك إلى نسبة الشعر إلى أشخاص ليسوا

---

(١) طبقات فحول الشعراء –١–٢٤٤

(٢) المصدر السابق ١–٢٥٤ ; ٢٤

(٣) انظر أشعار المغازى فى سيرة ابن هشام

شعراء أصلا ، فنجدهم ينسبون شعرا إلى معظم أعلام الإسلام وأسمائه اللامعة من القرشيين ، فينسبون شعرا إلى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، وكذلك ينسبون شعرا إلى معاوية وإلى الحسن والحسين رضى الله عنهم ، وينسبون شعرا إلى حمزة بن عبد المطلب والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن عباس ، وجعفر بن أبى طالب وفاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، وغير أولئك كثيرون [1] ، وقد يكون بعض هؤلاء قد قال شعرا ، ولكن مما لا ترتاب فيه النفس أن معظمهم لاعلاقة له بالشعر والشعر المروى نفسه يكاد ينطق بأنه موضوع ، بل يكاد ينطق بأنه من التفاهة بحيث لا يسمى شعرا بالمعنى الصحيح والأشخاص الذين نسب إليهم هذا الشعر معظمهم كانوا قمما فى بلاغة القول ، وسمو البيان ، فلا يعقل أن يصدر عنهم هذا الشىء التافه الذى سموه شعرا ، وقد كان ابن سلام بالغ الدقة والذوق الأدبى حينما صاغ نقده لهذا المعنى فى هذا التعبير الرائع فى سياق حديثه عن شعر أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب (ولسنا نعد ما يروى ابن اسحاق له ولا لغيره شعرا ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم) [2] .

---

(١) انظر العمدة لابن رشيق ١-٣٢-٣٨

(٢) طبقات فحول الشعراء ١-٢٤٧

شعر قريش ضد المسلمين :

منزلة الشعر وتأثيره فى نفوس العرب وحياتهم أمر لا يحتاج إلى توضيح ، ولذلك يمكن أن نتصور مدى تأثير الشعر فى الصراع المحتدم بين المسلمين والمشركين من قريش ، ولنا أن نتصور أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن ليطلب شعراء المسلمين يستعين بهم فى هذا الصراع لولا إحساسه بخطورة الشعر وتأثيره فى هذا الصراع ، والروايات تؤكد تأثير الشعر الخطير حينئذ ، فهذا صفوان بن أمية وهو من زعماء الشرك يحشد للإعداد للحرب فى أحد ، فيجعل من أهم ما يحشده الشعر لإثارة النفوس إلى القتال ، فيطلب من أبى عمرو بن عبد الله الجمحى الشاعر القرشى المشهور بأبى عزة قائلا : يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك ، واخرج معنا ، ومع أن أبا عزة كان قد من عليه النبى يوم بدر فأطلقه مقابل موثق أخذه عليه ، ألا يعين على المسلمين بشعره ، ومع ذلك فإن صفوان بن أمية ما زال به حتى استماله فخرج ومعه شاعر جمحى آخر هو مسافع بن عبد مناف بن وهب يحرضان المشركين ، ويجمعان بشعرهم الجموع لقتال المسلمين .

ومن التأثير النفسى للشعر ما عبر عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين سمع هندا بنت عتبة ترتجز ببعض الشعر بعد انتصار المشركين فى أحد ، شامتة فى المسلمين ، متشفية بقتل حمزة رضى الله عنه وتمثيلها به ، فقال عمر بعد ذلك لحسان بن ثابت : لو

سمعت يا ابن الفريعة ما تقول هند ، ورأيت أشرها [1] قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة ! قال حسان : أسمعني بعض قولها أكفكموها ، فأنشده عمر بعض ما قالت ، فهجاها حسان بشعر منه [2] :

أشرت لكاع وكان عادتهـــا   لؤمــا إذا أشرت مــع الكفر

ونظرة إلى ما روته الأخبار من الأشعار الكثيرة المتبادلة بين المسلمين فى المدينة ، وشعراء قريش فى مكة أثناء الحروب المشتعلة بين الفريقين طوال السنوات العشر التى عاشها النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة هذه النظرة ترينا أهمية الشعر فى هذا الصراع بين الفريقين ونأخذ مثالا لذلك ما قيل من شعراء الطرفين فى موقعة أحد وآثارها نرى هذا الكم الكبير من الشعر ، والذى اشترك فيه عبد الله بن الزبعرى وضرار ابن الخطاب الفهرى ، وأبو عزة الجمحى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهبيرة بن أبى وهب ، وعمرو بن العاص ، وهند بنت عتبة من شعراء الشرك فى مكة ، وحسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهند بنت أثاثة من شعراء الإسلام فى المدينة .

وإذا افترضنا أن بعض هذا الشعر أو كثيرا منه غير صحيح فى نسبته إلى أصحابه كما يوضح ذلك ابن هشام وابن سلام ، بل لو

---

(١) الأشر الغرور والبطر

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٣–٦٠٨

افترضنا أن هذا الشعر كله غير صحيح وأنه منحول على هؤلاء الشعراء فمن الواضح أنه حينئذ يكون عوضا عن شعر قيل فى هذه المناسبة ، ولكنه فقد ، فقيل هذا الشعر ووضع مكانه ، بمعنى أن الرواة فى هذه الحقبة القريبة من هذه المناسبة كانوا يعلمون أنه قيل فى هذه المناسبة شعر من هؤلاء الشعراء ، ولكن كلا الطرفين كان مشغولا عن الشعر بما هو أهم فلم يهتموا بروايته ، أو أن دخول مكة فى الإسلام جعل المسلمين حزبا واحدا ، فلم يكن هناك داع لروايته ، لأن رواية مثل هذا الشعر الذى يمثل حربا من فريقين إنما تروج فى حال وجود الصراع والتنافس بين هذين الفريقين ؛ أو نحو ذلك من الأسباب التى جعلتهم لا يروون هذا الشعر

نقول إذا افترضنا أن هذا الشعر كله موضوع ومنحول ، فمن البدهى أن الذين وضعوه إنما حاكوا به شعرا عرفوا وعرف المجتمع حينذاك أنه قيل فى هذه المناسبة ، كما يشير إلى ذلك كارل بروكلمان في رده على بعض المستشرقين الذين يزعمون أن الشعر الجاهلى كله منحول [١] ومحمد ابن إسحاق الذى دون هذه الأشعار فى كتاب (سيرة النبى) كان قريب العهد بهذه المناسبة ، وقد ولد فى المدينة وهى موطن هذه المناسبة ، وعاش فيها نحوا من ثلاثين سنة قبل رحيله عنها ولقى أكثر من شخص من علماء التابعين وأخذ عنهم [٢] ، وكان

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان

(٢) ولد ابن أسحق نحو سنة ٨٥ هجرة بالمدينة ؛ وتوفى نحو سنة ١٥١ ببغداد

عصرة حافلا بالرواة والعلماء ، فلو أنه روى شعرا ولم يكن قد قيل في هذه المناسبة شعر لكذبه أكثر من شخص ، ولكن الذين شكوا في هذا الشعر لم يشكوا فى أنه قيل شعر من شعراء طرفى الصراع ، فهذا أمر لا نزاع فيه ، ولكن الشك هل ما رواه ابن اسحاق هو عين الشعر الذى قيل ، أم أن الشعر الذى قيل ضاع بعضه فوضع بعض الشعراء المتأخرين شعرا مكانه ، أو زادوا عليه ؟

ولكن ذلك لا يعنينا هنا ، إنما يعنينا ذلك لو كنا فى مقام تحقيق هذا الشعر أو تحليله أو دراسته الأدبية ، أما الذى يعنينا هنا فهو أنه قد قيل خلال الصراع بين المسلمين والمشركين شعر من شعراء مكة ضد المسلمين وأن هذا الشعر كان ذا تأثير ، سواء أكان هو الذى قيل أصلا ، أم أنه محاكاة للشعر الأصلى ؛ فالذى يهمنا الآن أن شعراء مكة قالوا شعرا كثيرا ضد المسلمين ، وكان لهذا الشعر تأثير كبير ، سواء فى نفوس المشركين إثارة وحمية ، أو فى نفوس المسلمين غضبا وسخطا ، فهذه الحقيقة لا نزاع فيها ، ويزيدها وضوحا أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما طلب من شعراء المسلمين أن يردوا على شعر المشركين من قريش فى مكة ، ولو لم يكن لشعرهم تأثير ما عني النبى به .

وحيث كان الذى يعنينا هو شعر مكة بوصفه جبهة ضد المسلمين لذلك نختار حديثا موجزا عن شاعر من هذه الجبهة .

عبد الله بن الزبعرى

هو عبد الله بن الزِّبَعْرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم [1] وابن الجوزى يقول إن الزِّبَعْرى فى اللغة السيء ولذلك لقب بعبد الله بن زغب الإيادى [2] ويقول إنه مختلف فى صحبته ، ولكن جمهور الرواة يتفقون على أنه أسلم بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسوق ابن اسحاق سببا مباشرا لإسلامه ، وهو أنه سمع هجاء حسان بن ثابت إياه ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، فقال حين أسلم بضعة أبيات يخاطب بها النبى معتذرا بها عما أسلف من إساءة ، وتتفق معظم المصادر على هذه الأبيات التى مطلعها :

يا رسول المليك إن لســــانى   راتـــق ما فتقتُ إذْأنا بُورُ

ويصفه ابن سلام الجمحى بأنه أبرع شعراء مكة شعرا ، ويسوق القصة التى أشرنا إليها آنفا ، والتى تتضمن أن قريشا أصبحت ذات يوم فإذا دار الندوة مكتوب عليها

أَلهى قصيا عن المجد الأَساطير   ورشوة مثل ما ترشى السفاسير

---

(١) فى بعض أسماء هذا النسب اختلاف بين الروايات

(٢) لم اجد مصدراً وافق ابن الجوزى فى هذا ولعله التبس عليه باسم شخص آخر من المترجم لهم .انظر تلقيح فهوم أهل الأثر فى عيون الأخبار والسير لابن الجوزى ٢١٨

وأكلها اللحم بحتا لا خليط له وقولها : رحلت عير مضت عير[1]

فقالت قريش : ما قالها إلا ابن الزبعرى ، وأجمعوا على ذلك ، فمشوا إلى بنى سهم وطلبوا منهم أن يدفعوا إليها ابن الزبعرى ليحكموا فيه حكمهم ، قالوا : وما حكمكم فيه ؟ ؟ قالوا : نقطع لسانه ، فوافق بنو سهم على أن يقطعوا لسان كل من يهجوهم من شعراء قريش ففهم بنو قصى أنهم يشيرون إلى الزبير بن عبد المطلب الشاعر الذى كان حينئذ فى رحلة إلى اليمن ، والذى كانوا يتوقعون أن يرد على ابن الزبعرى بهجاء بنى سهم رهطه ، فخافوا على الزبير فكفوا عن تعقب ابن الزبعرى ، ومما نأخذ من هذه القصة أن ابن الزبعرى كان لامعا فى مكة ، وأن شعره كان ذا طابع معين يمكن أن يميز عن غيره والتميز علامة الجودة فى أى فن من الفنون ، وما لم يكن للشخص طابع معين متميز فى أسلوبه أو نتاجه أو مهنته بصفة عامة فلا يستحق أن يوصف بالجودة ، وشعر ابن الزبعرى كان أشد أشعار المشركين إغاظة للأنصار ونيلا منهم ، ومن شعره المشهور فى أحد ضد الأنصار قصيدته التى يقول فيها :

ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل[2]

---

(١) السفاسير السماسرة وقصى جد هاشم وبنو سهم رهط الشاعر فرع آخر من قريش غير بنى قصى يعنى ان بنى قصى شغلتهم التجارة والسمسرة وحب الطعام عن اعمال المجد

(٢) الأشياخ السادة يعنى ليت سادتنا الذين قتلهم المسلمون فى بدر يزون مافعلناه بالخزرج فى أحد ولعله يتحدث عن الخزرج بالذات لأن حسان بن ثابت غريمه فى الشعر منهم

ولذلك يعده الرواة أشد شعراء الشرك على المسلمين ، وله أشعار كثيرة ترويها كتب السيرة ، ومع ذلك فمن الواضح أن معظم شعره ضد الإسلام لم ترووه الرواة ، لأن فيه بطبيعة الحال ما ينفر المسلمون من روايته [1]

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١-٢٣٢ ومابعدها وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ٢١٨ وسيرة ابن هشام ٤-٨٧٥ والعمدة لابن رشيق ١-٦٥ وديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفى ٨٠ هامش .

شعراء القبائل

ومما سبق نتبين أن أفرادا قليلين هم الذين شغلوا بالدين الجديد وهم النفر الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عنه فى المدينة ، والنفر الذين نصبوا أنفسهم للهجوم عليه فى مكة ، وكل من الطرفين وإن كانوا لم يستخدموا شعرهم فى حقيقية الأمر للدين نفسه وإنما استخدموه ضد الجبهة المضادة لهم ، بمعنى أن شعراء كل طرف لم يهتموا فى واقع الأمر بالدين نفسه بقدر اهتمامهم بالهجوم على أعدائهم فى الطرف الآخر إلا أن شعرهم مع ذلك يعد مرتبطا بالدين الجديد ، إما له وإما عليه ، على أنه لم يكن يخلو شعر الطرفين من إلمام بالحديث عن الدين ولو مرورا عابرا أو خاطفا إما إشادة به وإما تهوينا من شأنه أو تنفيرا منه .

وأما شعراء العرب المنبثون فى القبائل حاضرها وباديها فهم على كثرتهم ، وعلى تفوق بعضهم فى الشاعرية تفوقا واضحا فمن الغريب أنهم لم يشغلوا أنفسهم بالدين ، رغم أن بعضا غير قليل منهم كانت قبائلهم مشتركة فى الصراع الدينى إما تأييدا وإما معارضة ، بل الأغرب من ذلك أن كثيرا من هؤلاء الشعراء كان يشارك قومه فى هذا الصراع تأييدا أو رفضا ، سواء أكانت مشاركته بالقتال أم بغير القتال ، فكثير من الشعراء تحدثنا الروايات بأنهم شاركوا قومهم أشد

المشاركة وأقواها فى موقفهم من الإسلام ، ولكنهم لم يعبروا عن هذه المشاركة أو عن انفعالهم بها بشعرهم تعبيرا واضحا أو محددا ، مع أنه من المشهور والمعروف عن شعراء العرب منذ عرفوا الشعر وهم يعبرون بشعرهم عن كل ما تنفعل به مشاعرهم وما يشغل حياتهم ، فقد عبروا عن كل شيء فى حياتهم ومشاعرهم تعبيرا ملموسا إلا عن موقفهم من الدين ، وحتى فى القصائد القليلة التى قالوها مرتبطة بالإسلام كقصيدة كعب بن زهير المشهورة (بانت سعاد) فلم تكن فى حقيقتها تتحدث عن الإسلام وإنما كانت تعبر عن خوف كعب من وعيد النبى صلى الله عليه وسلم إياه بالقتل ، وعن توسله إليه طالبا العفو .

وحين نلتمس تعليلا لانصراف شعراء القبائل العربية عن التعبير عن موقفهم من الإسلام بالشعر لا نستطيع أن نقول إنهم لم يهتموا بالإسلام ، وأن عدم اهتمامهم به لم يثر مشاعرهم إلى الشعر ، فإن شاعرا من صفوة شعراء العرب وأصحاب المعلقات مثل لبيد بن ربيعة العامرى بلغ من إيمانه بالإسلام ومن انفعاله ببيان القرآن الكريم أن هجر أعز ما يعتز به ، وما ميزه بين العرب بمكانة سامية وهو الشعر ، قائلا إن القرآن يغنيه عن الشعر ، فلماذا لم يعبر عن مشاعره نحو الإسلام بالشعر ؟ ولماذا لم يخدم الإسلام بشعره بدل أن يهجر الشعر ؟

ولا نستطيع أيضا أن نقول إنهم استجابوا لتنفير القرآن الكريم من الشعر فى سورة الشعراء ، فإنهم جميعا باستثناء لبيد بن ربيعة ظلوا يزاولون الشعر كما كانوا يزاولونه قبل هذا التنفير ، فضلا عن

أن هذه الآيات من سورة الشعراء نزلت فى المدينة ، وطوال وجود الدعوة الإسلامية فى مكة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة لم يظهر الشعراء فى شعرهم موقفهم من هذا الدين ، وقد يقال إن الإسلام حينئذ لم يكن ظاهرا ، والجواب أن الذى لم يكن ظاهرا هو الصراع حول الدين ، فلم تكن القبائل تشعر شعورا واضحا بما يدور فى مكة حول هذا الدين من صراع ، أما الدين نفسه فقد انتشر خبره فى كل القبائل ، وكانت قريش نفسها من أهم عوامل انتشار خبره ، فقد كانوا يريدون أن ينفروا القبائل منه ، فينشرون بين وفود الجميع من مختلف القبائل هذا التنفير ، ومن الواضح أن الشعراء حينئذ علموا خبر هذا الدين ، ولكنهم لم يعبروا عن موقفهم منه ، لا رفضا ولا تأييدا .

بل إن القبائل العربية وقفت من الدين الجديد موقفا بالغ الضراوة والشدة ، حينما ارتدت القبائل جميعا عن الإسلام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ما عدا مكة والمدينة ، حتى تحول هذا الموقف إلى حرب شديدة العنف ، ومع ذلك أيضا لم يبلغنا أن شعراء هذه القبائل عبروا عن موقفهم من الدين فى شعرهم تعبيرا واضحا .

ومهما يكن من شىء ، ومهما نلتمس من أسباب لإعراض شعراء العرب عن التعبير عن موقفهم من الإسلام فى شعرهم ، فلا أظن أننا سنجد سببا معينا يقنعنا كل الإقناع بموقف الشعراء من الدين ، ولعل أقرب الأسباب إلى النفوس أن نقول إن الصراع حول الإسلام لم يكن

من بدايته فى حقيقة الأمر صراعا بل ولا خلافا حول الدين نفسه ، وإنما كان صراعا على المصالح وعلى الكيان القبلى ، أما الدين نفسه من حيث هو عقيدة فلم يكن موضع الخلاف والصراع ، بمعنى أنهم منذ سمعوا الدعوة إلى الدين الجديد أحسوا فيما بينهم وبين أنفسهم أنه الدين الحق ، وأن الأصنام التى يتخذونها آلهة هى مجرد وهم باطل لا يرقى فى أعماق نفوسهم إلى درجة الموازنة بين الله سبحانه وتعالى والأصنام وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة فى أكثر من موضع كقوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » فهم لا يعارضون إذن فى أن الله حق ، وأن أصنامهم وكل آلهتهم باطل ، وهذا هو جوهر الإسلام ، وجوهر كل الأديان ، كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم (خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله) فهم إذن فى داخل نفوسهم لا يعارضون الدين الجديد فضلا عن معاداته ، وإنما يعارضون كل ما يحاول أن يسلبهم مصلحة شخصية أو كيانا قبليا ، وقد تصوروا أن هذه القوة الناشئة باسم هذا الدين هى مصدر الخطر على هذه المصالح وعلى هذا الكيان ، فأخذوا يقاومون هذه الجماعة الناشئة ، والأفراد يدافعون عن مصالحهم وأمجادهم ، والقبائل تدافع عن كيانها وعصبيتها وهكذا كان الأمر فى كل مواقفهم ضد الإسلام ، بما فى ذلك موقف الردة فإنهم لم يرتدوا عن الإسلام بوصفه دينا وعقيدة ، وإنما ارتدوا عن الإسلام لأنه فى نظرهم يمس هذه المصالح وهذه العصبية ، ولذلك كانت حجتهم هى رفض الزكاة لأنها تخيل إليهم أنها جزية تفرضها قريش عليهم ، والذين لم يحتجوا بالزكاة من المرتدين تصوروا أيضا أن

وجود السلطة فى قريش بعد النبى صلى الله عليه وسلم معناه أن قريشا سلبت من العرب كل شىء ، وأصبحت صاحبة السيادة والرياسة والملك مع اقتران هذا بمحو كيان القبائل وعصبيتها ، فإن الإسلام لايعترف بعصبيه ولا يميز كيانا عن كيان إلا فى حدود تشريعه ومبادئه وهذا ما يصطدم بالعرف العربى القبلى .

ونخرج من هذا بأن الإسلام من حيث هو عقيدة لم يكن فى حقيقة الأمر موضع الصراع أو الخلاف بين العرب ، وإنما الصراع والخلاف حول المصلحة الشخصية والعصبية القبلية ، ولذلك لم ينفعل الشعراء بجانب العقيدة نفعا لا يثير شاعريتهم ، وإنما انفعلوا بجانب العصبية ، ولذلك عبروا عن موقفهم منها بأشعار كثيرة ، ولذلك كان كل الشعر المرتبط بالإسلام كالأشعار التى قيلت فى الغزوات إنما تدور فى جوهرها حول الصراع القبلى والحزبى ، وليس حول الدين نفسه .

وقد يقال إن الاشكال ما زال قائما ، وهو أنه إذا كان العرب ومنهم الشعراء قد أحسوا فى دخيلة نفوسهم منذ بدء الأمر أن الدين الجديد حق ، فلماذا لم يعبر الشعراء عن هذا الإحساس حين أسلموا ؟ ويمكن أن يقال إننا لا ينبغى أن ننسى بعض الحقائق ، ومن هذه الحقائق أن الشاعر لا تنطلق شاعريته إلا حين ينفعل بشىء له فيه مصلحة شخصية والشعراء لم ينظروا إلى الدين على أن فيه مصلحة شخصية لهم ، وإنما نظر إليه المؤمنون منهم على أنه نور أشرق عليهم كما تشرق عليهم وعلى غيرهم ، ومن هذه الحقائق التى لا ينبغى أن ننساها أن القرآن الكريم

سجل على الشعراء ـ إلا من استثنى منهم ـ أنهم لا يسلكون سبيل الهدى ، وإنما يسلكون سبيل الغواية ، ولولا هذا لنظروا إلى الدين على أنه مصلحة شخصية لهم فوق كل مصلحة ، وبالتالى كان ينبغى أن تجود شاعريتهم فيه بأجود ما تجود به من شعر .

والشعراء المخضرمون ليسوا قلة ، ومع ذلك فهذا العدد الذي وصل إلينا خبره ، والذى يقارب المائة من المؤكد أنه لا يعبر عن العدد الحقيقى لشعراء هذه الحقبة ، وهناك أكثر من سبب يحول دون الوصول إلى العدد الحقيقى للشعراء حينئذ ، وأولها سبب شديد الوضوح ، وهو أنه لم تكن توجد فى هذا العصر ، ولا فى أى عصر حتى اليوم وسيلة لحصر الشعراء أو أصحاب أى مهنة أو طائفة ، أو لم يفكر أحد فى أى عصر فى إيجاد هذه الوسيلة حتى الآن .

ومن هذه الأسباب أن العرب الأولين لم ينظروا إلى الشعر أساسا على أنه حرفة أو مهنة ، بل كان أسلوبا راقيا للتعبير عما فى النفس ولذلك كان كثير من الناس يقولون الشعر دون أن يحترفوه أو أن يوصفوا بأنهم شعراء فى عصرهم ، حيث كان كثير من وجوه القوم وسادتهم يقرضون الشعر دون أن يتخذوه مهنة أو صناعة ، وإنما يقولونه فى الغالب عفوا ، وحسبما يستدعى المقام ، وهؤلاء لم يكونوا معدودين من الشعراء ، وبالتالى لم تنقل إلينا أخبارهم على أنهم من الشعراء رغم أن بعضهم قد يكون أجود شعرا من كثير من الشعراء المحترفين .

والشعراء الذين عرفوا بين العرب بأنهم شعراء محترفون للشعر

أو أن الظروف دعتهم إلى الإسهام بالشعر حتى أصبحوا كأنهم محترفون أولئك وهؤلاء عدد غير قليل ، وهم منتشرون فى كل القبائل ، وكلهم عاصر الصراع حول الدين الجديد وأحس بهذا الصراع ، بل وكثير منهم أسهم بنفسه فى هذا الصراع ، ومع ذلك لم يسهموا بشعرهم ، أو كان إسهامهم فى مجموعهم لا يكاد يذكر .

فمن الشعراء فى هذه الحقبة لبيد بن ربيعة العامرى [١] ، وعتيبة ابن مرداس [٢] المشهور بابن فسوة ، وسحيم من وثيل اليربوعى [٣] والنابغة الجعدى العامرى [٤] .

وضابىء بن الحارث البرجمى [٥] وابن مقبل العامرى [٦] والزبرقان ابن بدر [٧] (وكثير بن العريزة التميمى [٤] وحميد بن ثور الهلالى

---

(١) انظر فى ترجمته وأخبار خزانة الأدب للبغدادى ٢-٢٤٦-٣٣٩و الكامل للمبرد ٢-٣-٥ والعمدة لابن رشيق ٢-١٨٤ حماسة أبى تمام وشرح المعلقات للزوزنى ومصادر أخرى

(٢) انظر خزانة البغدادى ١-٢٦٥ وأمالى القالى ٣-٥٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ - ٦٤٣ اوصمعيات

(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٩ ٢ وخزانة البغدادى ٣-١٦٧ والعمدة ١-٥٣-١٠٦ والكامل ٢ - ٢٥٢ وشرح الحماسة ١ - ٤١٠

(٤) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٥٠ والأصمعيات للأصمعى ١٧٩ وشرح الحماسة ١-٣١١

(٥) انظر خزانة البغدادى ١-٢٣١ والشعر والشعراء لابن قتيبة

(٦) انظر سيرة ابن هشام والأصابة لابن حجر العسقلانى

(٧) انظر تاريخ الأدب العربى شوق ضيف ٢ - ٥٦

العامرى [1] وحريث بن محفض التميمى [2] وخداش بن زهير [3] وعيدة بن الطبيب التميمى [4] ومتمم بن نويرة البرجمى [5] وقيس ابن عاصم المنقرى التميمى [6] وعمرو بن الأهتم التميمى [7] .

ومن قبيلة بنى سليم الخنساء [8] والعباس بن مرداس [9] والفرار السلمى [10] وعمرة بنت مرداس [11] وخفاف بن ندبة [12] وأبو شجرة السلمى [13]

ومن شعراء هذيل أبو خراش [14] وأبو ذؤيب [15] والبريق بن

---

(١) الأغانى للأصفهانى ٤ – ٣٥٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ – ٣٩٠ وشرح حماسة أبى تمام ٢ – ٣٤٠ والكامل للمبرد ٢ – ٨٥

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ – ٦٤١

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ – ٦٣٤٥ وخزانة البغدادى ٤/ ٧٩ والعمدة لابن رشيق ٧٦/١ وهو أول من لقب قريشا بسخينة

(٤) الأغانى للأصفانى ٢١–٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢–٧٢٧ وحماسة أبى تمام/٣٢٨

(٥) خزانة البغدادى ٢ – ٢٤ وحماسة أبي تمام ٣٣/١ والكامل للمبرد ٢–٢٦٥–٢٩٨ وانظر المفضليات للضبى والأغانى للاصفهانى والشعر والشعراء لابن قتيبة

(٦) انظر حماسة أبى تمام ٢ – ٢٦٣ والأصابة لابن حجر العسقلانى

(٧) انظر شرح حماسة أبى تمام ٢ – ٣٠٠

(٨) الخزانة للبغدادى ١ – ٤٣١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ – ٣٤٣ والكامل للمبرد

(٩) انظر ترجمته فى آخر الكتاب

(١٠) انظر حماسة أبي تمام ١ – ٥٧ وكان الفرار صاحب راية بنى سليم يوم الفتح

(١١) انظر حماسة أبى تمام ١ – ٤٥٨

(١٢) انظر الأصمعيات للأصمعى ٢١ (هامش) وخزانة البغدادى ٤ – ١٥ والأغانى للأصفهانى ١٨ /٧٤

(١٣) انظر الكامل للمبرد ١– ٢٣٩

(١٤) الأغانى ٢١ – ٢٢٦ والكامل للمبرد ١ – ٢٦٧ وخزانة البغدادى ١ – ٤٤٠ وديوان الهذليين

(١٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة فى مواضع كثيرة وخزانة البغدادى ١ – ٤٢٢ وديوان الهذليين ١ – ٣٤ والعمدة لابن رشيق ١ – ٨٨ والأغانى للأصفهانى ٢١ – ٢٠٨

عياض [1]

ومن شعراء قريش سوى من سبق ذكرهم فى الحديث عن شعراء الشرك فى مكة النعمان بن عدى [2] وعاتكة بنت زيد بن عمر [3] وصفية بنت عبد المطلب ابن هشام [4] وقتيلة بنت الحارث [5] وهند بنت عتبة [6] وهناك عدد آخر تحدثت عنه كتب المغازى وخصوصا سيرة ابن اسحق من قريش ونسبت إليهم أشعار فى الحروب التى دارت رحاها بين المسلمين والمشركين ومنهم عمرو بن العاص ، إلا أن معظم هذا الشعر غير موثوق به .

ومن شعراء مزينة كعب بن زهير بن أبى سلمى [7] ومن شعرائها معن بن أوس وأوس بن بجير وبجير بن زهير .

ومن شعراء اليمن عمرو بن معد يكرب [8] وأبو الطمحان القينى [9]

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى شوق ضيف ٥٦/٢

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٨٢٤/٣

(٣) انظر حماسة أبى تمام ٤٦٠/١

(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٧٥ وهى أم الزبير بن العوام وعمة النبى – صلى الله عليه وسلم –

(٥) انظر سيرة ابن هشام ٥٥٨/٢ والعمدة لابن رشيق ٥٦/١ وهى التى عاتبته على قتل أخيها

(٦) انظر سيرة ابن هشام ٣ / ٦٦٦

(٧) ديوان كعب والأغانى للأصفهانى ١٧ / ٨١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ١٥٤ سيرة ابن هشام ٤ / ٨٥٩ والعمدة لابن رشيق ١ / ٢٢ وديوان حماسة أبي تمام ٤٠٥/١ .

(٨) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٧٢/١ – ٣٧٤ وخزانة البغدادى ٤٤٤/٢–٤٣٦ وديوان الحماسة لأبى تمام ٤٣/١ – ٥٢ والأصمعيات للأصمعى (هامش) والأمالى للقالى ١٤٥/٣

(٩) الأغانى للاصفهانى ٣/١٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٨٨/١

والنجاشى الحارثى [١] وقيس بن المكشوح المرادى [٢] وبشر ابن ربيعة الخثعمى [٣]

ومن شعراء ثقيف المغيرة بن شعبة [٤] وأبو محجن [٥] ومن شعراء قيس الأغلب العجلى [٦] والنمر بن تولب [٧].

ومن شعراء ذبيان الشماخ بن ضرار [٨] ومزرد بن ضرار [٩]

ومن شعراء المدينة سوى من سبق ذكره من شعراء الاسلام النعمان ابن بشير [١٠] وأبو قيس بن صرمة [١١] .

ومن الشعراء العدنانيين على اختلاف قبائلهم الحطيئة المنتسب إلى

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٩ وخزانة البغدادى ٤ – ٧٦ والعمدة لابن رشيق ١ – ٥٢ ومواضع أخرى

(٢) انظر تاريخ الادب العربى د . شوقى ضيف ٦٣/٢

(٣) المصدر السابق ٦٣/٢

(٤) الأغانى للاصفهانى ٧٩/١٦

(٥) المصدر السابق ١٩/١ – ١٠ الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢٣/١

(٦) الأغانى للاصفهانى ٢٨/٢١ الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦١٣/٢ وخزانة البغدادى ٢٣٩.

(٧) الأغانى للاصفهانى ٢٢ / ٢٧٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٠٩/١ وخزانة البغدادى ٣٢١/١

(٨) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٥/١ وديوان الحماسة لأبى تمام ٤٥٢/١ وخزانة الأدب للبغدادى ١٩٦/٣ والكامل للمبرد ٧٦/١

(٩) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٥/١ والعمدة لابن رشيق ٨٨/١

(١٠) الأغانى للأصفهانى ١٦ / ٢٨ والعمدة لابن رشيق ٢ / ٣٠٦ وتلقيح فهوم أهل الأثير لابن الجوزى ١٥٥

(١١) انظر تاريخ الأدب العربى ، د . شوقى ضيف وفيه أبو قيس صرمة

قبيلة بني عبس [١] واللعين المنقرى [٢] والأقيشر الأسدى [٣] وشويد بن كراع العكلى [٤] وأنس بن أناس الدؤلى [٥] وأبو الأسود الدؤلى [٦] وربيعة بن مقروم الضبي [٧] ومعبد بن علقمة [٨]

وحرقة بنت النعمان بن المنذر [٩] وعمرو بن أحمر الباهلى [١٠] وزرعة بن عمرو بن خويلد [١١] وشبيل بن ورقاء اليربوعى [١٢] وفاطمة بنت الأحجم الخزاعية [١٣] ونهشل بن حرى الحنظلى [١٤] وأمية بن الأسكر البكرى [١٥] وزيد بن حارثة [١٦] وعمر وبن شأس [١٧]

---

(١) انظر الاغانى للاصفهانى ٢ / ١٥٦ – ٢٠٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٣٢٢ وخزانة البغدادى ٢ – ٤٠٦ – ٣ / ٢٨٧ والعمدة لابن رشيق ١ / ٧٦ والكامل للمبرد ١ / ٢٣٢

(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٩٩ وخزانة الأدب للبغدادى ٤/٤٠٧

(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٥٥٩ وخزانة الادب للبغدادى ٤/٤٨٧

(٤) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/٦٣٥

(٥) المصدر السابق ٢/٧٣٨

(٦) المصدر السابق ٢/٧٢٩ وتاريخ الأدب العربي شوق ضيف ٢/٦٠

(٧) الأغانى للاصفهانى ٢٢/٩٧ وشرح حماسة أبى تمام ١/١٣ ، ٢١٠ ، ٢/١١

(٨) شرح حماسة أبى تمام ١/٢٥١

(٩) انظر شرح حماسة أبى تمام ٢/٥٢ وفيه شعرها يوم القادسية أمام سعد بن أبي وقاص

(١٠) المصدر السابق ٢/٣٣٦

(١١) المصدر السابق ٢/٣٤٤

(١٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٥٢

(١٣) شرح حماسة أبى تمام ١/٣٧٦

(١٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٣٧ وخزانة البغداى ١/٣١٢ والعمدة لابن رشيق ٢/٣٠٦

(١٥) الأغانى للأصفهانى ٢١/٨

(١٦) خزانة الادب للبغدادى ٢/٣٠٦

(١٧) تاريخ الادب العربى شوقى ضيف ٢/ ٦٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢٥ والأغانى ٣ / ١ .

والحارث بن مرة [1] والمخبل بن ربيعة بن مالك من بنى أنف الناقة [2] وسويد بن أبي كاهل اليشكرى [3] والأعشى بن قيس ابن ثعلبة البكرى [4] والحصين بن الحمام المرى [5] وعمرو بن الجموح السلمى من بنى سلمة [6] وأوس بن مغراء [7] وزياد ابن حنظلة والأسود بن قطبة [8] .

ومن الشعراء غير العرب سحيم العبد [9] ومن شعراء المنافقين أبو عفك وعصماء بنت مروان [10]

والطابع العام لشعراء القبائل من حيث الدين ، هو عدم اهتمامهم به فى شعرهم ، فحين نتتبع شعرهم بصفة عامة نلحظ أن الدين لم يشغلهم فى شعرهم ، وان شغل بعضهم به فى سلوكه أو عقيدته تأييدا أو إعراضا ، أما فى الشعر فلم يجعلوا الدين موضوعا أصليا فيه ، وذلك لأكثر من سبب ، ومن هذه الأسباب كما سبق أن الدين كان

---

(١) تاريخ الادب العربي شوقى ضيف ٢/٥٤

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢١

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٢١

(٤) تاريخ الادب العربى كارل بروكلمان ١٤٧/١

(٥) تاريخ الادب العربي شوقى ضيف ٢ /٦٨

(٦) تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ١٤٤

(٧) تاريخ الادب العربي شوقى ضيف ٢/٦٦

(٨) المصدر السابق ٢/٦٥

(٩) الديوان والأغانى للأصفهانى ٢٢ / ٣٠٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادى ٢/ ١٠٢

(١٠) انظر سيرة ابن هشام ١٠٥١

أمرا عاما لا يشغل فردا أو شاعرا بعينة ، وليس هناك إغراء أو حافز شخصى للشاعر كالعصبية القبلية أو التطلع إلى العطاء ونحو ذلك ، ولذلك لم يكن الدين حينئذ غرضا واضحا من أغراضهم .

ونسوق حديثا موجزا عن بعض شعراء القبائل ، الذين يمثلون قبائل مختلفة ، ويمثل بعضهم نزعات أو مواقف خاصة .

١ ـ الحطيئة :

واسمه جرول بن أوس ، مشكوك فى نسبه ، وهو نفسه لم يستقر على نسب ، فأحيانا ينتسب إلى بنى عبس ، وأحيانا إلى بنى ذهل ، وكان دميما قبيح الهيئة قصير القامة ، أسلم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان إسلاما ظاهريا لم يبد فيه الاعتقاد الدينى الصحيح ، وكل الروايات تجمع على الشك فى دينه ، وقد قال شعرا مشهورا أثناء ردته يحرض المسلمين فيه ضد خلافة أبى بكر ، وكان شديد البخل ، مشهورا بالشح ، وله فى ذلك قصص كثيرة

فقد اجتمعت فى الحطيئة إذن كل مساوىء النسب ، والهيئة ، والخلق ، والدين ، وهذا من شأنه أن يملا نفوس الناس نفورا منه ، وأن يملأ نفسه ضغينة على الناس وحقدا عليهم ، وكان هذا من أسباب

---

(١) انظر فى ترجمته وشعره : ديوان ديوان حسان بن ثابت والأغانى للأصفهانى ١٣٤/٤ ، ١ / ٢٢٧ وسيرة ابن هشام فى أشعار الغزوات ومواضع أخرى ، والعمدة لابن رشيق ١ / ٢٤ ـ ٤٤ ـ ٥٣ ـ ٦٧ ـ ٨٩ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٥/١ وحماسة أبى تمام ٢ / ٢٥٣ ـ ٣١٩ وخزانة البغدادى ٤ / ٧٤ ـ ١ / ٢٢٧ ومواضع أخرى ، وتاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١٥٢/١ ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير

سيطرة نزعة الهجاء على شعره ، فقد أصبح الهجاء سليقة فيه ، يهجو لأوهى الأسباب ، بل وبدون سبب فى كثير من الأحيان ، فإن لم يجد من يشبع فيه نزعة الهجاء هجا أباه ، أو أمه ، أو زوجه ، أو نفسه وله فى ذلك أخبار مشهورة .

وأما من حيث الشاعرية ، فقد كان شعره وخاصة الهجاء من أجود الشعر العربى ، والأغراض التى طرقها الحطيئة يعد شعره فيها أجود شعر عصره على الإطلاق ، والنقاد القدامى يصرحون بتفوق الحطيئة فى شعره رغم سخطهم على خلقه ودينه ، ومن هؤلاء ابن سلام وأبو عبيدة والأصمعى وابن دريدويلخصون حديثهم عن شعره بأنه ما من شاعر إلا وفى شعره مطاعن ، أما الحطيئة فقلما يجد الناقد مطعنا فى شعره ، ويصفون شعره بالذيوع والانتشار ، ويصفونه بأنه شرور القافية ، والحطيئة يعرف قدر شعره وتأثيره ، ولذلك يقول لكعب ابن زهير مرة : ذهب الفحول غيرى وغيرك ، وسئل من أشعر الناس فأخرج لسانه ، ثم قال : هذا إذا طمع ، ومن تأثير شعره أنه استطاع أن يغير من نظرة الناس إلى بنى أنف الناقة ، فيرفع من قدرها ، وتجنبهم الخجل من هذا اللقب ، ببيت من الشعر مدحهم به ، وهو :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

كما أنه جعل الزبرقان بن بدر وهو من أكبر سادات تميم يشعر بهوان قدره وقدر ذويه حين هجاه بقصيدته المشهورة ، والتى كانت موجعة الهجاء ، رغم خلوها من مقذع الألفاظ ، فقد اعتمد فيها الحطيئة

على التصوير (الكاريكاتيرى) الساخر ، كتصويره بخل آل الزبرقان بأنه حاول عبثا استدرار أى شىء من عطائهم ، مشبها إياهم بناقة حاول هو بكل جهده ، وبكل أساليب الحلب أن يستدر قطرة من ضرعها فلم يفلح ، فيقول :

لقــد مَرَيْتكُمُ لو أن درَّتكـم يوما يجيء بها مَسْحى وإبساسى[1]

ومن ذلك سخريته من الزبرقان بقوله

دع المكارم لا ترحل لبغيتهـا واقعـد فإنك أنت الطاعم الكاسى

مقتبسا الشطر الأخير من مضمون قوله تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم)[2]. بمعنى أنك بذلت جهدك تطعم وتكسو لتبلغ المكارم فلم تبلغها ، ولم تقرب منها

ومما لا شك فيه أن الطابع الخلقى والدينى البالغ السوء للحطيئة قد حط من قدره كثيرا ، ومن قد شعره حينذاك ولو قليلا ، ولولا هذا لكان له فى مجتمعه شأن غير هذا ، ولكنه ظل رقيق الدين واهى العقيدة حتى مات ، ومما يروى أنه حينما أحس الموت أوصى بماله للأنثى مثل حظ الذكر ، فقيل له : ليس هكذا اقضى الله ، قال : ولكنى هكذا قضيت[3]

٢ - أبو ذؤيب الهذلى :

واسمه خويلد بن خالد ، من هذيل ، وقبيلة هذيل عرفت بصفات

---

(١) مريتكم : من مرى الناقة أى مسح ضرعها ؛ والدرة اللبن والايساس : صوت تسكين الناقة للحلب فيقولون لها : بس . بس يعنى لم أستطع أن أستنزل من ضرعكم قطرة

(٢) انظر نصوص أدبية من العصر الاسلامى للمؤلف

(٣) انظر فى ترجمته وأخباره الأغانى للاصفهانى ٢-١٥٦/٢٠٣ وخزانة البغدادى ٢-٤٠٦ الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ - ٣٢٢ والعمدة لابن الرشيق ١ - ٧٦ والكامل للمبرد ١ - ٢٣٢

معينة كانت تميزها عن غيرها ، وهذه الصفات تنحصر فى جانبين ، أحدهما الشاعرية ، والآخر ما يتعلق بحياة الصعاليك وخصائصهم ، من شدة العدو ، ودقة الرمى ونحو ذلك ، وأخبار العلماء القدماء فى ذلك متفقة ، فالأصفهانى يروى عن الأصمعى قوله (إذا فاتك الهذلى أن يكون شاعرا أو ساعيا أو راميا فلا خير فيه) والجاحظ ينقل عن يونس بن حبيب قوله (وليس فى هذيل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو) وفى جيل أبى ذؤيب كانت هذيل تحتل الشهرة بأنها أشعر قبائل العرب ، كما كان أبو ذؤيب يحتل الشهرة بأنه أشعر هذيل ، فهذا ابن رشيق يروى عن حسان بن ثابت أنه سئل : من أشعر الناس ؟ قال : أرجلا أم حيا ؟ قيل : بل حيا ، قال : أشعر الناس حيا هذيل ، ويروى ابن رشيق عن ابن الجمحى قوله : أشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع ، بل يروى ابن رشيق أن التوراة تحدثت عن أبى ذؤيب بأنه مؤلف زورا ، وأن اسمه فيها ، مكتوب بالسريانية ، ومعظم مثل هذه الروايات عن التوراة ونحوها كان مصدره اليهود لأغراض يتعلق معظمها بالرغبة فى أن يغزو بدينهم الأديان الأخرى ، ومن هذا القبيل الاسرائيليات الكثيرة المنتشرة فى كتب التفسير .

وقد أسلم أبو ذؤيب ، ثم رحل إلى المدينة ليلقى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يقدر له أن يلقاه حيا ، فقد توفى النبى قبل وصول أبى ذؤيب إلى المدينة بليلة واحدة ، فحضر أبو ذويب الصلاة على جثمان النبى ثم دفنه .

ومات لأبى ذؤيب بنون خمسة فى عام واحد بمصر ، أصابهم الطاعون أو قتلوا فى الغزو حسب اختلاف الرواية ، فقال فيهم شعرا من أجود شعره ، وبقى أبو ذؤيب إلى خلافة عثمان رضى الله عنه ، فهاجر إلى مصر ، ولعله أراد أن يغرى نفسه بالرحيل إلى أرض ثوى فيها بنوه ، فرحل غازيا مع عبدالله بن الزبير إلى مصر ، ولكن المنية أدركته فى بعض الطريق ، فدفن حيث مات ، ودلاه ابن الزبير فى حفرته .

وواضح مما سبق أن أبا ذؤيب كان من الفحول المشهورين بالشاعرية ، ويشترك مع شعراء قبيلته فى الإجادة فى وصف الطبيعة وحيوان الصحراء ، والبيئة الوحشية لكثرة الصعاليك فيهم ، وهؤلاء كانوا أخبر الناس بالصحراء ومجاهلها ووحشتها ، ويمتاز أبو ذؤيب بالإجادة فى الحكمة والمعانى النفسية ، كما فى بعض أبيات قصيدته التى رثى بها بنيه ، حيث شاع بعض أبياتها على الألسنة لصدق تصويرها للنفس ، رغم عدم العمق فى معانيها أو صياغتها .

وسلوك أبى ذؤيب فى الإسلام لم يكن معيبا ، وفى جاهليته كانت له مساقط فى مسلكه ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض النساء ، وقد تحدث عن ذلك فى شعره ، فى قصص مشهورة فى الروايات [1] .

---

(١) انظر ديوان الهذليين ١ - ٣٤ وخزانة البغدادى ١ - ٢) ٤ - والشعر والشعراء لابن قتيبه ٢ - ٦٥٣ ومواضع آخرى كثيرة والعمدة لابن رشيق ١ -٨٨ والأغاني للأصفهاني ٢١ - ٢٠٨ والبيان والتبيين للجاحظ .

٣ – العباس بن مرداس :

هو العباس بن مرداس بن أبى عامر السلمى ، نسبة إلى قبيلة بنى سليم التى كانت تعيش قريبا من مكة فيما بين العرج والأبواء فى طريق المدينة ، وكانت من القبائل القوية ، وقد عقد لهم النبى صلى الله عليه وسلم لواء خاصا عند فتح مكة وهوازن بقيادة خفاف بن ندبة وكان لواؤهم يقارب الألف مقاتل ، وقد أسلم العباس قبيل هذا الوقت .

وقد نشأ العباس فى بيئة تجمع بين السيادة والشاعرية ، فأبوه مرداس من سادة قومه ، وقد تربى العباس فى جوار الخنساء الشاعرة المشهورة ، التى كانت زوجا لأبيه ، أو كانت أمه فى بعض الروايات . وكان لهذين الجانبين أثر واضح فى شعره ، فقد اكتسب من البيئة صقل شاعريته ، فكان من أجود شعراء عصره شعرا ، واكتسب من بيئة السيادة نزعة الفخر التى تسلطت عليه حتى شغلت معظم شعره ، والتى لم يستطع التخلى عنها حتى فى أشعاره الكثيرة التى تدفق بها بعد انتصار المسلمين فى فتح مكة وهزيمة هوازن أمامهم ، فقد قال العباس حينئذ أشعاراً كثيرة ، ولكن طابعها جميعا . يغلب عليه الفخر بقومه وشجاعتهم وادعاء أنهم كانوا السبب فى نصرة الرسول والمسلمين ، ولولاهم لم يكن نصر [1] وحين أعطى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ جماعة من المؤلفة قلوبهم منهم عيينة بن حصن والأقرع ابن حابس كلا منهم مائة ناقة ، وأعطى العباس دون ذلك غضب العباس

---

(١) انظر نصوص ادبية من العصر الإسلامى للمؤلف .

قريش إلى بنى هاشم ، ويروى أن النبى حينما بلغه هذا الشعر ، قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه[1] .

ومن هؤلاء الشواعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، التى رثت أباها بشعر مؤثر ، بادى الصدق وعمق الإحساس ، وكان أبوها من سادات العرب فى الجاهلية ، أما هى فقد أسلمت ، وهى معدودة فى الصحابة ، وقد ارتبط رثاؤها لأبيها بمناسبة فى الإسلام ، ذلك أن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عائشة زوجه فى رواية أخرى تمثلت به عند وفاة النبى ، ومن هذا الشعر[2] :

قد كنت لى جَبَلاً أَلُوذُ بظله ... فتركْتنى أَضْحى بأَجردَ[3] ضاحِ

قد كنتُ ذات حميَّةٍ[4] ماعشْت لى ... أمشى البَرَاز وكنت أنت جناحى

فاليوم أَخْضع للذليل وأتقى ... منه وأدفع ظالمى بالراح[5]

وأغض من بصرى وأعلم أنه ... قد بان حـد فوارسى ورماحى[6]

وكونه يقال فى رثاء النبى صلى الله عليه وسلم ، وبخاصة من بنته أو زوجه ، يجعل له ولمنشدته شأناً أو ذكرا فى تاريخ الإسلام .

ومن الشاعرات اللاتى ارتبط ذكرهن بالمناسبات والملابسات ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ - ٥٥٨ و ٥٢٧

(٢) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١ - ٣٧٦

(٣) الأجرد الأملس والضاحى المكشوف لا ظل فيه

(٤) الحميه العزة والبراز بفتح الباء الفضاء تعنى كنت طليقة حرة فموتك قص جناحى

(٥) بالراح تعنى لم يعد لى سلاح إلا كفى

(٦) بان انفصل والحد تعنى به القوس

الجاهلية ، من قبيلة مزينة . والبيئة الاجتماعية التى نشأ فيها كعب تغلب عليها نزعتان متوارثتان ، إحداهما نزعة الشاعرية ، ففى أسرة كعب منذ الجاهلية ، ثم لعدة أجيال فى الإسلام سلسلة من الشعراء الذين توارثوا الشعر ، والنزعة الأخرى هى التدين الواضح فى القبيلة عامة ، وفى أسرة أبى سُلمى خاصة ، ومن آثار ذلك أن قبيلة مزينه كان لها عند فتح مكة ألف مقاتل فى جيش المسلمين ، وهو أكبر عدد من القبائل المنضمة إلى الإسلام حينئذ ، تليها بنو سليم التى بلغ مقاتلوها حينئذ نحو تسعمائة رجل ، وكانت أسرة زهير واضحة النزوع إلى الدين ، كما يلاحظ هذا فى شعر زهير الجاهلى ، فرغم أن زهيرا كان جاهليا إلا أن فى شعره بما يؤكد إيمانه بالله وبالبعث بعد الموت مما هو مشهور من شعره ، وكذلك كعب نفسه نجد هذه النزعة فى شعره قبل أن يعلن إسلامه ، ومن الملاحظ أنه حينما أنكر على أخيه بجير إسلامه قبل أن يسلم هو ، لم ينكر الدين نفسه ، وإنما أنكر خروج أخيه على دين آبائه وعاداتهم ، وكان أخوه بجير الشاعر قد اتفق معه على أن يذهب إلى المدينة ليعلم علم هذا النبى الجديد ، فحين لقى بجير النبى صلى الله عليه وسلم آمن ، وعز عليه أن يفارقه فأقام فى المدينة ، فغضب كعب وقال شعرا يلوم فيه أخاه لوما شديدا على مفارقة دين آبائه ، ويعرض فى هذا الشعر بشخص النبى ، ولخطوره الشعر حينئذ فى الدعاية ضد الإسلام وصد الناس عنه ، أهدر النبى دم أمثال كعب ، وحين ضاقت عليه المذاهب فى الأرض جاء إلى النبى مسلما فى قصته المشهورة ، وأنشده قصيدة (بانت سعاد) التى أكسبت

كعبا شهرة وشرفا لا يطاولاون ، فهي تكاد تكون أشهر قصيده في الإسلام ، ولا تنافسها قصيدة أخرى في موضوعها ، فمن الغريب أن الشعراء لم يتجهوا إلى جعل شخص النبي موضوعا أساسيا للمدح أو حتى الاعتذار إليه حينما يعلنون إسلامهم ، ولكن ذلك كان يأتي عفوا خلال الشعر ، فباستثناء قصيدة الأعشى التي كان يريد أن يقدمها بين يدى إسلامه أمام النبي في بعض مايروى والتي أولها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا   وبت كما بات السليم مسهدا

والتي يشك بعض الرواة في صحة نسبتها إلى الأعشى ، باستثنائها لا نعلم قصيدة أخرى كان موضوعها الأصلي مدح النبي أو الاعتذار إليه كما كانت قصيدة كعب ، ولعل جلال شخص النبي في عيونهم من حيث سيطرة صفة النبوة على كل صفاته من جهة ، ثم علمهم بأن مجرد إسلامهم يكسبهم عفوه دون حاجة إلى التودد إليه بالشعر جعلهم لا يركزون جهدهم على الاعتماد على الشعر في صلتهم بالنبي ، ولكن موضوع (بانت سعاد) وما صاحبها من ملابسات ، ومن شهرة كعب وأبيه زهير جعلها تحتل هذه المنزلة ، وبخاصة أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر رضاه عنها ، وكان يشير إلى المسلمين خلال بعض فقراتها أن يستمعوا ، وبعد أن انتهى كعب من إنشادها ألقى عليه النبي بردة إشارة إلى عفوه عنه وجعل البرد جائزة له ، وقد اشترى معاوية فيما بعد هذا البرد بعشرين ألف درهم ، ثم ظل الخلفاء يلبسونه في الأعياد كما يروى ابن قتيبة زمنا طويلا .

وقد أسلم عقب غزوة حنين ، وعاش حتى خلافة معاوية ، وكان معروفا بالتشيع لعلى كرم الله وجهه ، وينسب إليه شعر فى التشيع ، مشكوك فى صحة نسبته إليه . وأما منزلته الشعرية ، فقد كان من صفوة الشعراء المعاصرين له بإجماع النقاد ، وقد ادعى الحطيئة أنه لم يبق أشعر منه ومن كعب بن زهير فلم ينكر عليه أحد ذلك ، وقد جمع السكرى المتوفى سنة ٢٧٥هـ ديوان كعب ، وهو مطبوع متداول وقد أضاف إليه بعض المحققين أشعاراً لم يثبتها السكرى ، وشعره واضح الجودة ، وخاصة فى الوصف ، حيث نجد أروع ما تجود به شاعريته إنما يكون فى وصف البيئة بما فيها من حيوان وأرض ، كوصفه الناقة وصفا بالغ الدقة والتصوير فى كثير من قصائده ، وعلى الأخص فى مقدمة (بانت سعاد) وكوصفه الذئب والغراب فى قصيدته التى مطلعها (ألا بكرت عرسى) ، والتى تنبىء معانيها عن أنه قالها بعد إسلامه كقوله (فأقسمت بالرحمن لا شىء غيره) ثم يصرح فى البيت التالى لهذا باسلامه فيقول (لاستشعرن أعلى دريسى مسلما) [1] ومع ذلك يتحدث فى القصيدة بأنه يعاقر الخمر كقوله :

وقد أشهد الكأس الروية لاهيـا   أعَلُّ قبيل الصبح منها وأنهَل

ومن أحس شعره فى الوصف قصيدته التى مطلعها (وهاجرة لاتستريد ظباؤها .) (والتى أبدع فيها فى وصف البيئة والصيد وحمر الوحش .

---

(١) استشعر الثوب : لبسه والدريس : الثوب البالى أى لألبس ثوبى وأنا على دين الإسلام

وكان كعب مشهورا بإتلاف المال كما يصفه السكرى بأنه أتلف للمال من الحطيئة ، وقد عاش فقيرا منكود الحظ. فى نصيبه من رخاء العيش حتى مات [1] .

(١) انظر ديوان كعب بن زهير للسكرى وأغانى الأصفهانى ١٧ - ١٨ ومابعدها والشعر والشعراء لابن قتيبة ١-١٥٤ ومعابدها وشرح حماسة أبى تمام للتبريزى ١-٤٠٥ والعمدة لابن رشيق القيروانى ١-٢٢ وسيرة ابن هشام ٤-٨٥٩ وتارخ الأدب العربى كارل بروكلمان ١-١٥٦

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٤٦٤١

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢١٥ ـ ٦